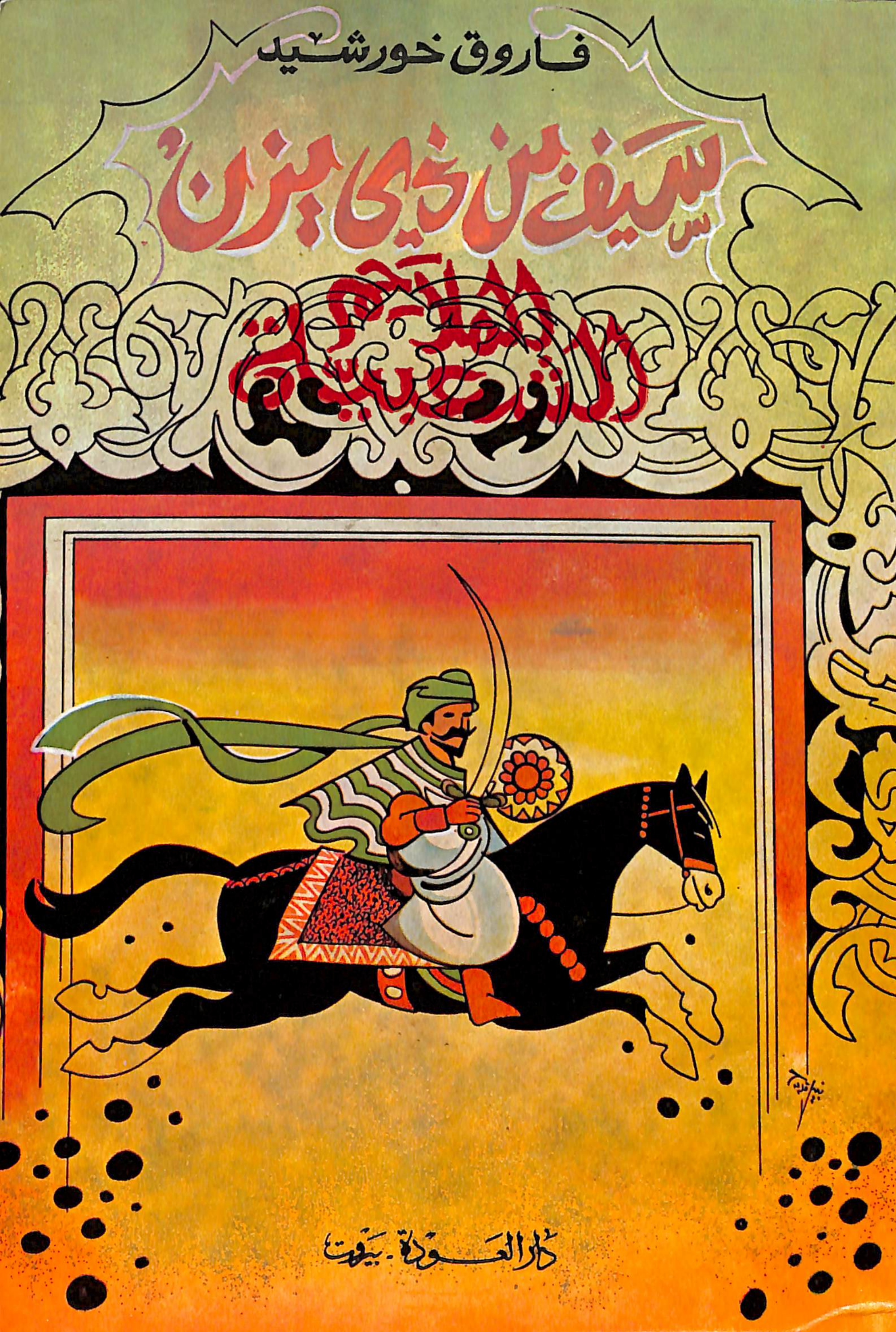


فاروق خورشيد
سيف بن ذي يزن
الملحمة الشعبية
دار العودة - بيروت

الملاحم الشعبية

سيف بن ذي يزن

فاروق خورشيد

سيف بن ذي يزن

دار العودة - بيروت

١٩٨٦

كورنيش المزرعة - بناية ريفييرا سنتر
تلفون : ٣١٠٨٤٠ - ٣١٨١٦٥ - ٨١٥٣٣٥
تلكس AWDA 23682 LE
ص.ب ١٤٦٢٨٤

إهداء

إلى أول من فتح أمامي
أفق السير الشعبية الرحب ،
وعالمها الفسيح ...
إلى أمي ..

فاروق

كلمة

ونحن نبني غدنا ، تغوص عقولنا الواعية في ضمير أمتنا بحثاً عن سند من أمسنا ، وأمسنا – ولو علمنا – مليء بالأرض الثابتة الصلدة تحتمل ثقل البناء الذي نريد وتقبل إصرار الأصلاء على أن يكون حاضرنا جسر يمتد بين ماض عريض ومستقبل واثق ...

وفي دنيا الفن والأدب يقول تراثنا إن شعبنا عبر عن نفسه في ثقة واقتدار ، وإنه أحس أهمية الكلمة فاستعملها صادقاً جريئاً لا يهاب ، استعملها لتعكس أمله وتطلعه ، ولتؤكد إصراره وعزمه ؛ ولتصنع منه رائداً من رواد حضارة الإنسان ..

وفي سيرنا الشعبية جوهر هذا الشعب الأصيل الذي جعل من بطولاته أساطير تبقى على مر الزمن وتعكس فضائله وتجسد كفاحه من أجل حرية الإنسان وكرامة الإنسان ، والفن في السير الشعبية ليس زخرفاً وليس جمالاً شكلياً ، الفن في السير الشعبية تركيب معقد ، مزيج من الحلم والواقع ، وتآلف حقيقي بين ألم ما يرسمه الحاضر من احباطات للإنسان ، وبين أمل ما يريده القلب الحر للإنسان من انتصارات ، إنه قصة الدراما الإنسانية في صراعها الصريح الواضح بين ما هو كائن وبين أمل الإنسان فيما يجب أن يكون ... صراعها بين الواقع والخيال ..

كلمة عن سيف بن ذي يزن

«سيف بن ذي يزن» واحدة من مجموعة السير الشعبية التي تمثل لوناً من ألوان الأدب القصصي العربي.. وهذه السير لم تصل كلها إلى يد القارئ العربي المعاصر ، بل وصل منها عدد قليل جداً ، فالسير المعروفة عندنا اليوم من مخلفات هذا الفن الذي ازدهر فترة طويلة في تاريخ حياتنا الفنية ، وهي : سيرة عنترة بن شداد ، وسيرة الظاهر بيبرس ، وسيرة الأميرة ذات الهمة ، وسيرة حمزة البهلوان ، وسيرة علي الزيبق ، وسيرة سيف بن ذي يزن ، إلى جوار السيرة الهلالية وأجزائها المتعددة .

وتقديم السير الشعبية كأعمال فنية جديرة بالقراءة ، ثم بالدراسة ، هو الرد الوحيد على من يرون أن أدبنا العربي وتراثنا الفني قد خلا من فن القصة خلواً تاماً .

فكثير من الناقدين المحدثين يزعمون أن أدبنا العربي ، لم يعرف فن كتابة القصة أو الرواية إلا في عصور النهضة المتأخرة إثر اتصالنا بالآداب الأوروبية عن طريق الترجمة ، أو عن طريق الاتصال المباشر ، لمن أتيح لهم أن يتقنوا اللغات الأوروبية ، وأن يتصلوا بآدابها .. إما دراسة في الجامعات الأوروبية ، وإما قراءة واطلاعاً على هذا الفن الأوروبي المولد والمصدر .. وهم بهذا يجردون أدبنا من كل معرفة لفن

القصة ، قبل أن يتم هذا الاتصال بآداب الغرب .

وهذا الادعاء الذي يحلو لأصحاب هذه النظرة الضيقة خطير وخطأ جملة وتفصيلاً .. هو خطير لأنه يحاول ربطنا بالحضارة الأوروبية ربط التابع بالمتبوع والمستجدي بمن يمنح عن كرم وسخاء ، ويجعل من أدبنا العربي الحديث لا امتداداً طبيعياً لتراث أصيل حمله له تطور الأجيال وجهد المتفننين من أبناء العربية على مر القرون .. وإنما أدب تمتد جذوره لحضارات أخرى وأمم أخرى ، منت علينا بالفضل الذي حرمناه في تراثنا نحن .. وهو خطأ ، لأن الثابت علمياً أن القصة فن إنساني اشتركت كل الشعوب في تكوينه ، ثم اشتركت في تطويره ، لأن القصــة حاجـة طبيعيــة مـن حاجات الشعوب .. وإن ذهب بعض الأساتذة الدارسين إلى جعل مهد القصة الأول هو الشرق كالعالم السنسكريتي « ديودور بنفي » الذي نشر عام ١٨٥٩ المجموعة القصصية الهندية المعروفة باسم « بنتشتنترا » والذي يقرر أن الهند هي المهد الأصلي للقصة ، وذلك لحاجة الديانة البوذية الشديدة إليها .. بينما يذهب عالم آخر كالعالم « بديه » إلى أن القصة متعددة المصادر الأولى ، كما أن البشرية متعددة الأوطان .. بينما يذهب العلامة العربي الدكتور فؤاد حسنين في كتابه « قصصنا الشعبي » إلى أن قصصنا العربي من أقدم القصص ظهوراً ، وأنه يكون وحدة في القصص السامي الذي يضرب في القدم بنفس القدر الذي يضرب به القصص الهندي ، ويقول الدكتور فؤاد حسنين : « تمتاز العقلية العربية كغيرها من عقليات الشعوب السامية بإعادة تأليف القصص القديمة التي توارثتها منذ أقدم العصور ، وإظهارها في ثوب يكاد يكون جديداً ، وكتبنا الدينية سواء منها السماوية وغير السماوية ملأى بشتى القصص ومختلف الأساطير والملاحم المتصلة

بالنفس البشرية اتصالاً مباشراً .. لذلك أصبح من السهل علينا أن نتعرف إلى خلق القصة العربية . وطريقة العربي في الإفصاح عن نفسه ، ثم إلى أي حد نجحت هذه القصة في العصور الوسطى في غزو العقلية الغربية والتغلغل في الآداب الأوروبية » .

القصة إذن ليست شيئاً مقصوراً على الآداب الغربية بخاصة ، وإنما هي ملك مشاع – كما قرر العلماء الدارسون – لكل الشعوب .. وهي عند هؤلاء العلماء أيضاً أقرب إلى أن تكون ملك الشعوب الشرقية منها إلى أن تكون تراثاً لشعوب الغرب . ذلك أن الشرق كما هو معروف مهد للديانات ، وذلك أن الديانات – كما هو معروف أيضاً – تعتمد في بث تعاليمها وتثبيت معتقداتها على الحكاية والقصة التي تبرز معالم التعاليم والعقائد ، وتجسد صور الفضيلة تجسيداً يقربها في أذهان العامة ومتلقي هذه التعاليم والعقائد .. لكن أصحاب النقد الحديث من دارسينا العرب يهربون من هذه الحقائق التي تدخل في مجال الدراسات دخول المسلّمات ، ليقرروا أنهم يقصرون حكمهم على فن القصة المتكامل ، والذي عرف شكله الأخير عند الغرب في القرن السابع عشر أو الثامن عشر ، وحددت بذلك أصوله النقدية ومناهج الإبداع فيه .. والواقع أن هذا الزعم أيضاً هروب لا يقف على قدميه أمام المناقشة ، فإن فن القصة حتى الآن برغم وجود القواعد النقدية والقوانين الابتداعية لم يكف عن التطور ، ولن يكف عنه إلا إذا كفت البشرية عن الابتداع . وما نراه اليوم قانوناً نقدياً متكاملاً سوف نراه في الغد صورة متخلفة لا تليق بالإنتاج الجديد .. وهي نفس النظرة التي ينظر بها هؤلاء النقاد إلى تراثنا القصصي العربي الذي يتمثل فيما أمكن أن يصل إلينا نحن من السير الشعبية .

ودارسونا هؤلاء يعلمون أن أوروبا نفسها قد عرفت القصة قبل هذا القرن السابع عشر بزمن طويل ، ذلك أن أوروبا عرفت القصة منذ أن عرفت الأسطورة التي تطورت في أشكال مختلفة ، فظهرت منها الملاحم والدراما وأشعار الرعاة والأقاصيص المتداولة .. وكذلك فإن العرب قد عرفوا الشكل المتكامل للقصة قبل هذا القرن السابع عشر بعدة قرون إذ تدلنا الأبحاث التاريخية على أن سيرة «عنترة بن شداد» قد كتبت مثلاً حوالى القرن الحادي عشر الميلادي ، بينما كتبت سيرة «سيف ابن ذي يزن» حوالى القرن الرابع عشر الميلادي ، وفي هذه الحدود الزمنية تقريباً يرجح أن سيرة «الظاهر بيبرس» قد تكاملت .

• • •

واقدم النصوص العربية عن السير الشعبية هو ذلك النص الذي أورده «ابن كثير» في كتابه «تفسير القرآن الكريم» والذي يقول فيه : «وأما ما يذكره العامة عن البطال من السيرة المنسوبة إلى دلهمة والبطال والأمير عبد الوهاب والقاضي عقبة فكذب وافتراء ، ووضع بارد وجهل وتخبط فاحش ، لا يروج ذلك إلا على غبي أو جاهل ردي . كما يروج عليهم سيرة «عنترة العبسي» المكذوبة ، وكذلك سيرة البكري والدنف وغير ذلك . والكذب المفتعل في سيرة البكري أشد إثماً وأعظم جرماً من غيرها ، لأن وضعها يدخل في قول النبي صلى الله عليه وسلم : من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» .

و «ابن كثير» توفي عام ٧٧٤ هـ (١٣٧٣ م) أي انه كان يعيش في القرن الرابع عشر الميلادي . ومعنى هذا أن تلك السير كانت موجودة في ذلك الزمن ، وكانت من الإنتاج المعترف به والمتداول . وبالرغم من أن كثيراً من السير التي ذكرها «ابن كثير» لم تصلنا أو لم نعثر على

مخطوطاتها بعد ، فإنه قد ذكر من السير التي بين أيدينا سيرة « ذات الهمة » وسيرة « عنترة بن شداد » . وهذا يقطع بأن هاتين السيرتين كانتا متكاملتين ومتداولتين في ذلك الزمن ، حتى خشي هذا المؤرخ من أثرهما على العامة . وذلك يقطع بانتشارهما بين عامة الناس انتشاراً كبيراً .

وموقف « ابن كثير » يمثل موقف أصحاب الأدب الرسمي من هذا اللون من ألوان الإنتاج الأدبي ، الذين لم يعترفوا به ولم يقدروه قدره لأنه كما هو واضح انتشر بين عامة الناس ووجد فيه القصاصون منفذاً إلى عقول الناس وقلوبهم ، فقدموا لهم فيه المعلومات العلمية بطريقة مزجت فيها الحقيقة بالخيال .. بل قام فيها الخيال بالدور الأول ، وخشي العلماء على الحقيقة أن تضيع وسط هذه الزحمة من الأحداث التي يخلقها خيال الكتاب .

والواقع أن موقف هؤلاء العلماء موقف طبيعي ومفهوم ، فعقلية العالم التي لا تعرف غير المسلمات من الحقائق ، غير عقلية الفنان المبدع الذي تفتح أمامه الحقائق أبواباً ونوافذ يطل منها على عوالم أخرى يستشفها من خلال الحقيقة ، وينفذ منها بباصرته الواعية الخلاقة بما يتجاوز الحقيقة العلمية إلى ظلال وأعماق أبعد منها بكثير وأوثق ، إلى معطيات القلب ومعطيات النفس ، وأبعد إلى – حد نسبي – عن معطيات العقل .

• • •

شهد إذن القرن الرابع عشر الميلادي الذي عاش فيه « ابن كثير » تغلغل هذه السير الشعبية وانتشارها عند الناس ، بل شهد أيضاً نوعاً من المعارك بينها وبين العلماء يثبت وجودها وخطرها . والقرن الرابع

عشر الميلادي لم يشهد صوراً متكاملة من الأدب القصصي في أوروبا ، ربما لأنها وجدت من وسائل التعبير ما يغنيها عن القصة ، وربما لأن حضارة العرب وتشعب ثقافاتهم وتعدد مكونات الشعب العنصرية والجنسية والسياسية لم يجد له وسيلة من وسائل التعبير عن نفسه أقرب من هذه الوسيلة المتشابكة المتداخلة والتي تتيح له الفرصة لتحويل مجالات الاصطدام والفرقة فيه إلى عمل أدبي ينفس عن هذا التعارض والتضاد بين الجماعات المكونة للشعب العربي .

وأقدم سيرة وصلتنا واستطعنا أن نحقق تاريخاً تقريبياً لها هي سيرة «عنترة بن شداد» التي ترجع في أرجح الأقوال إلى القرن الحادي عشر الميلادي .. وليست هناك من السير الشعبية التي بين أيدينا كلها سيرة تفوق سيرة «عنترة» من ناحية الحرفية الفنية ، ورغم أننا لسنا بصدد الحديث عن سيرة «عنترة بن شداد» إلا أننا نحب أن نؤيد هنا الرأي الذي ذهب إليه كثير من الباحثين من أن كاتب هذه السيرة شخص واحد ، فالواقع أنه رغم تعدد الأقوال عن كاتب هذه السيرة إلا أنها أجمعت على البحث عن شخصية مفردة لتنسب إليها السيرة ، وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن كاتبها هو «يوسف بن إسماعيل» كاتب الخليفة العزيز ، وذهب بعضهم إلى أن كاتبها هو العنتري أو الصباغ من العراق ، وحاول آخرون نسبتها إلى الرواة الذين جاءت أسماؤهم بالسيرة نفسها كالأصمعي ونجد بن هشام وجهينة اليماني وغيرهم . وراح بعض المستشرقين يؤيد رأياً ويدحض غيره ، وراح الآخرون يتعصبون لرأي دون آخر ، إلا أن إجماعهم على البحث عن كاتب مفرد لهذه السيرة يؤيد ما نذهب إليه من أن سيرة عنترة ، وغيرها من السير التي تبعتها إنما هي أعمال فنية وراءها فنان مبدع

شاء بها أن يقدم لوناً من التعبير عن عصره وعن أزمة معاصريه .

والواقع أننا نستطيع أن نجد بسهولة قضية معينة وراء كل سيرة ، فبينما تدافع سيرة «سيف بن ذي يزن» عن الساميين ضد الحاميين ، وتغلف هذه القضية العنصرية الخطيرة بأغلفة روائية بارعة ، نجد سيرة عنترة تدافع عن قضية مقابلة هي قضية الرابطة بين الساميين والحاميين فهي تجمع هنا ولا تفرق ، وتجعل من شخصية بطلها عنترة .. مزيجاً بين العنصرين ، وممثلاً لهذين الأصلين الجنسيين الكبيرين ، ونجد في سيرة كسيرة «الظاهر بيبرس» دفاعاً أشمل وأعم عن قضية وحدة الشعب العربي بكل مكوناته سواء آرية أم سامية أم حامية ، أو بصورتها التجسيدية سواء كانت عربية أم سودانية أم فارسية أم رومية .

وتبني كل سيرة لقضية يؤكد أن وراء كل سيرة فنان له هدف ، ويعمل من أجل غاية .. كما أنه يعني أن السيرة قالب فني معترف به عند هؤلاء الفنانين المختلفين الذين أبدعوا في هذا المجال ، وربما كان يعني كذلك أن فن السيرة هذا المعترف به قد كون لنفسه تقاليد متوارثة وحرفية بذاتها يستغلها هؤلاء القصاصون ويضيفون إليها ويطورونها .. وهذا الفن – فن السيرة الشعبية – يحتاج في واقع الأمر إلى دراسة منفصلة تبين تقاليده ، وتوضح سماته ، وتخرج لنا معالمه الفنية وأصوله الحرفية لتأخذ مكانها بين تقاليد أنواع الكتابة الفنية التي عرفتها الإنسانية في بحثها عن قوالب صالحة للتعبير عن نفسها .

وهنا نحب أن نرصد هذه الحقيقة ، وأن نقررها كمسلمة علمية ونقدية يفرضها تاريخ أدبنا الذي هو جزء من تاريخ الأدب الإنساني بعامة .. فقد قامت السير الشعبية بدور هام في التعبير عن حقيقة شعبنا في الوقت الذي اقتصر فيه الأدب الرسمي على التعبير عن الارستقراطية

الفكرية التي خلقتها ظروف مجتمعنا السياسية في مراحل مختلفة من تاريخ حياته .

أما سيرة «سيف بن ذي يزن» فيرجح الدارسون أنها كتبت في القرن الرابع عشر الميلادي .. ويستند الدكتور فؤاد حسنين في إثبات هذا الرأي إلى أن الشخصية الثانية في السيرة ، وهي شخصية ملك الحبشة «سيف أرعد» شخصية تاريخية معروفة حكمت الحبشة فيما بين عامي ١٣٤٤-١٣٧٢ م .. وقد رأى الدكتور فؤاد حسنين أن اختيار مؤلف السيرة لشخصية «سيف أرعد» غير موفق لأن بطل السيرة «سيف بن ذي يزن» من أبناء القرن السادس مما يجعل التناقض التاريخي واضحاً .

والواقع أن السيرة الشعبية لا تعترف بمنطق التاريخ في تركيبها الروائي ، وهي من هذه الناحية أقرب إلى الأسطورة منها إلى الرواية بمعناها المصطلحي الحديث .. وكاتب السيرة لا ينظر إلى الصدق التاريخي بقدر ما يهتم باختيار ما يلائم الهدف الأساسي الذي يكتب سيرته من أجله .

وقد أفادتنا شخصية «سيف أرعد» في تحديد زمان كتابة هذه السيرة ، وهي تفيدنا كذلك في تحديد سبب كتابتها .. فـ «سيف أرعد» كما يقول الدكتور فؤاد كانت حياته امتداداً لسلسلة من أعمال القسوة والإرهاب شنها والده «عمد أصيون» على المسلمين القاطنين في تلك البلاد والأقطار المجاورة حتى انه أغار على صعيد مصر وأطلق سراح بطريرك الاسكندرية الأب مرقص الذي كان قد قبض عليه والي مصر وسجنه لامتناعه عن دفع الجزية ..

ويذكر لنا كتاب «بين الحبشة والعرب» للدكتور عبد المجيد

عابدين تفسيراً كـاملاً لظـروف مصر في ذلك الحين مـن ناحية علاقتها بالحبشة ، مما يمكن أن يلقي أضواء على سر كتابة هذه السيرة... فيقول في الباب الثاني من الكتاب : «كان بين الأحباش والقبط علاقات مودة وإخلاص وكثيراً ما كان يهاجر الأقباط إلى الحبشة حين يحسون من الوالي ظلماً وعنتاً .. حدث هذا في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي ، كما حدث في أوائل القرن الثالث عشر أن لجأ عدد كبير من الأقباط إلى ملك الحبشة «لا ليبلا» على إثر ما أنزله بهم السلطان الكامل ناصر الدين الأيوبي من اضطهاد في الوقت الذي كان الصليبيون يحاصرون فيه مدينة دمياط سنة ٦١٨ هـ . ولا شك أن هؤلاء الفارين قد بثوا شكواهم إلى ملك الحبشة وطلبوا حمايتهم من السلطان الأيوبي . وكانت الحروب الصليبية في ذلك الحين في أواخر عهدها ، وكانت بلاد الحبشة على معرفة تامة بذلك الشعور التعصبي الذي ساد أوروبا والشرق في ذلك الحين .. بل من المحقق أن الحبشة قد مثلت دوراً هاماً في تلك الأفكار الصليبية التي شاعت في ذلك الحين» .

فالعلاقة إذن بين الحبشة والعالم الإسلامي بعامة ، ومصر بخاصة ، كانت انعكاساً للحروب الصليبية التي تركت آثارها في الشرق والغرب على السواء ، والتي حددت طبيعة العلاقة بين الشعوب التي كانت وقوداً لهذه الحروب .. وقد خلفت لنا هذه الحروب وما بثته من روح متعصبة في نفوس الناس مجموعة ضخمة من الأساطير في الشرق والغرب على السواء .. من هذه الأساطير أسطورة القسيس يوحنا التي تحكي تأسيس امبراطورية مسيحية تحت زعامته يسكنها أشخاص خيالبون ورجال عيونهم في صدورهم ، وهي مهد بعض الحيوانات والزواحف المخيفة المفزعة التي لا تعيش إلا على لحوم الآدميين ، والمخلوقات العجيبة

التي تتركب أجسامها من رؤوس الطيور ذات الأجنحة وأجسام الحيوان ومخالب الوحوش ولها ذيول من الأفاعي الحية.

ونحن نشير إلى هذه الأسطورة لأن سيرة سيف قد اعتمدت على ما جاء بها في خداع الملك قيمرون بواسطة الحكيمة عاقلة عن الوصول إلى معرفة مكان سيف بن ذي يزن. ونحن نشير إليها أيضاً لأنها ترسم صورة لعلاقة الأحباش بالتعصب الديني الصليبي الذي تغلغل في العالم المسيحي في ذلك الوقت بل لقد جاء في رسالة الأستاذ حامد عمار عن علاقات الدولة المملوكية بالدول الإفريقية فيما نقله عن الدكتور عبد المجيد عابدين أنه كان في بيت المقدس دير بعد نواة للأحباش يقيمون فيه وهو دير عرف باسمهم يرجع أنه ظهر إبان الحروب الصليبية وقد شملة صلاح الدين بعطفه وسماحته عندما دخل بيت المقدس سنة ١١٨٧م وأطلق عليه اسم دير السلطان وله رئيس يعرف باسم «مهر» أي المعلم يعينه ملك الحبشة. وكان لوجود هذا الدير الحبشي ببيت المقدس أهمية في علاقة الحبشة بالحروب الصليبية لأنها كانت الوسيلة لإيصال أنباء الصليبيين تباعاً إلى الأحباش.

وهكذا نحس أن الحبشة صليبية دورت في الحروب الصليبية وأنها كانت تتحين الفرص للاشتباك بالمسلمين. وفي عهد الظاهر بيبرس حدث صدام بينه وبين يكونو ملك الأحباش انتهى برسالة يستعطف فيها ملك الأحباش الظاهر ويسترضيه. إلا أن القرن الرابع عشر يحمل صورة من المعاملة الجافة بين مصر والحبشة تتضح في الرسائل شديدة اللهجة المتبادلة بينهما بل لقد أخذ الأحباش يهاجمون مسلمي الطراز المتاخمين لحدودهم. ونجد في صبح الأعشى

الجزء الخامس أن هذه الحروب قد أفزعت مسلمي الطراز، فلجأوا إلى سلطان مصر ليستكتب البطريق رسالة إلى ملك الأحباش ليكف عن أذية من في بلاده من المسلمين.. وصدرت المراسيم السلطانية للبطريق بكتابة ذلك، فكتب إلى ملك الأحباش كتاباً بليغاً شافياً فيه معنى الإنكار لهذه الأفعال.

فإذا ما جئنا إلى الحكم سواي كرستوس «سيف أرعد» (١٣٤٤ - ١٣٧٢ م) نجد كتب التاريخ تذكر أن سلطان مصر طلب من بطريق الإسكندرية زيادة الضرائب المقررة على المسيحيين.. فرفض البطريق فزج به في السجن، فلما سمع بذلك «سيف أرعد» قبض على جميع التجار المصريين في مملكته وطرد قوافلهم من بلاده.. واضطر السلطان إلى أن يطلق سراح البطريق تحت ضغط التجار الذين تأثرت أعمالهم.

ويذكر الدكتور عبد المجيد عابدين أن «سيف أرعد» هذا قام بنصيب كبير في محاربة ملوك الطراز المسلمين، وظلت هذه الحروب طول حياة «سيف أرعد» وطول حياة ابنه «نواي مريم ابن سيف أرعد».. وما نصل سنة ١٣٨١ م حتى نقرأ عن حملة للجيش الحبشي تصل حتى أسوان.

وفي هذه الفترة التاريخية إذن والتي يرجح أن سيرة «سيف ابن ذي يزن» قد كتبت فيها كانت الحبشة تمثل عند المصريين مركزاً من مراكز العدوان على العالم الإسلامي بعامة، وعلى بلادهم بخاصة، وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا على الوعي الشعبي وأن يظهر في تعبير الشعب عن نفسه.

ونحن نرجح أن سيرة «سيف بن ذي يزن» كتبها مؤلفها كعملية تعويض فني عما يعانيه من قلق واضطراب نتيجة التهديد الحبشي الدائم لأمته وسلامتها ، كما لعله شاء بهذه السيرة أن يحقق للشعب العربي انتصاراً حاسماً على أعدائه يعيشه ويرويه ويحكيه على مدى الأجيال ..

والسيرة في هذه الحالة رد فعل واضح لما يعانيه الشعب العربي في ولاية «الطراز» الإسلامية من اضطهاد من ملوك الأحباش ، ولما يحس به المصريون من تهديد دائم لحدودهم .. وكان «سيف أرعد» الملك الحبشي يمثل العدو الحبشي تمثيلاً كاملاً .. وكان لا بد من البحث عن بطل عربي يقوم بتمثيل الشعب العربي في المعركة الروائية الدائرة وينتصر عليه ..

وقد اختار القاص «سيف بن ذي يزن» لهذه المهمة .. وأسباب هذا الاختيار واضحة ومفهومة ، فقد بحث القاص عن شخصية عربية قامت بدور تاريخي معروف في حرب الأحباش ليدور حوله بحوادث السيرة ؛ وقد استطاع أن يجد هذه الشخصية المطلوبة في الملك الحميري «سيف بن ذي يزن» ، فقد استطاع الأحباش أن يستولوا على ملك اليمن منذ حوالى عام ٥٢٣ م ، وذلك بمساعدة الروم وفي حملة شبه صليبية .. إذ تذكر كتب التاريخ أن «ذا نواس» اعتنق مع شعبه دين اليهودية ، وأخذ يحمل باقي أهالي اليمن على هذا الدين ، وكانت النصرانية قد انتشرت في نجران ، فأبى أهل نجران ، أن يغيروا دينهم .. فحفر لهم أخدوداً وملأه ناراً وأحرق فيه جمعاً غفيراً وقتل بالسيف قوماً آخرين ، فأرسل ملك الحبشة بالاستعانة بملك الروم حملة أخرى على «ذي نواس» وقتلوه واستولوا على اليمن وأقاموا عليها ولاة من عندهم .. إلا أن اليمنيين لم يكفوا عن مقاومة الأحباش الغزاة طوال حكم غازيهم

«أبرهة» وابنه «يكسوم» .. ويقول الدكتور عبد المجيد عابدين : « وكان « سيف بن ذي يزن » ممن لعبوا دوراً هاماً في هذه الآونـــة ، وهو رجل من أذواء حمير من أسرة عريقة في اليمن ، سمعنا عن بعض أفرادها منذ عهد « ذي نواس » و « أبرهة » وكان للأسرة اتجاه سياسي واحد ، هو التمسك باستقلال اليمن وانفصالها عن السلطان الأجنبي» .. ويروي الطبري في الجزء الأول قصة «سيف بن ذي يزن» وكيف خرج إلى ملك الروم فلم يجد عنده ما يحب بل ووجده يحامي على الحبشة لموافقتهم إياه على الدين ، فلجأ إلى كسرى وأقنعه .. فأرسل معه قوة من الجيش تمكنت من هزيمة الأحباش ، وملك «سيف» على اليمن .

فاختيار القاص العربي شخصية «سيف بن ذي يزن» ليصور فيه كفاح الشعب العربي وبطولته ، يقوم على ما عرف في التاريخ من دور لهذا الملك في هزيمة الأحباش ، ورغم أن «سيفاً» كان يعيش في القرن السادس إلا أن خيال صاحب السيرة لم يجد غضاضة في الاستعانة به لتحقيق هدفه الروائي وخلق بطولة عربية تهزم الأحباش وتستند على سند من التاريخ الثابت المعروف ..

وهناك سبب آخر نرجح أنه شجع على اختيار شخصية «سيف بن ذي يزن» .. ذلك أن الملك «سيفاً» كان يعيش قبل الإسلام ، ومعاركه إنما هي في سبيل تثبيت معاني الإيمان بمعناه المطلق أو الإسلام القديم ، ونبيه الخليل إبراهيم .. ووضع القاص أمامه الأحباش عباداً للنجوم ، وبذلك استطاع أن ينجو من مأزق خطير ، وهو أن تصبح السيرة مجالاً للتعصب الديني .. ولو اختار القاص بطلاً عربياً معاصراً لاضطر اضطراراً أن يقيم معارك بينه وبين المسيحيين أو القبط بخاصة ، لأن الأحباش كانوا قبطاً ، ومعلوم أن المسيحيين المصريين من القبط أيضاً .

واستغلاله لهذه الشخصية التاريخية جعله ينجو من مأزق التعرض لحرب الأديان .

ويدلل الدكتور فؤاد حسنين على أن هذه السيرة قد كتبت في مصر مستشهداً على ذلك بمعرفة المؤلف بكثير من أسماء المدن واستخدامه لها ، وكذلك استخدامه للكثير من التعبيرات المصرية الشائعة ، ونحب أن نضيف إلى ما كتبه الدكتور فؤاد حسنين في كتابه « قصصنا الشعبي » إن دفاع السيرة عن موقف العرب إزاء الأحباش دليل قاطع على هذه القضية ، لأن الأحباش كما قدمنا كانوا ملاذاً للمضطهدين من القبط المصريين ، كما كانوا دائمي الإغارة على حدود مصر الجنوبية ، كما أن القضايا التي دافعت عنها السيرة تكاد تكون قضايا مصرية خالصة ، منها مثلاً قضية ماء النيل . فالسيرة تبدأ في فصولها الأولى بكفاح « سيف بن ذي يزن » لاسترداد كتاب النيل ، ويتمكن من استرداده وإجراء ماء النيل إلى أرض مصر ، وبهذا يصبح ماء النيل حقاً مصرياً خالصاً لا يدعي الأحباش أنهم يستطيعون منعه عنهم .. وهي الدعوى التي نلمح أصداءها فيما بين الأحباش وولاة مصر من مكاتبات رسمية ، وفيما ترويه كتب التاريخ من تهديدات الأحباش للمصريين . ونفس « سيف » هو الذي تمكن من إجراء ماء نهر « بردي » ، ثم ينجب ولدين أحدهما « مصر » ويحكم مصر ويعمرها ، والثاني « دمر » ويملك الشام ويعمرها .. وكأنما أراد كاتب السيرة المصري الذي عاش حوالى القرن الرابع عشر أو أوائل الخامس عشر الميلادي أن يرسم صورة للوحدة العربية متمثلة في ذلك البطل اليمني الذي يحطم قلاع الكفر ، ويثبت معالم الإسلام ، الدين العربي القديم ، دين الخليل ابراهيم ، ثم ينجب ولدين أحدهما مصر

والثاني دمر ، أحدهما يتولى حكم مصر وإنشائها ، والثاني يتولى حكـــم الشام وإنشائها ..

و «سيف بن ذي يزن» في حاجة - كما أن السير الشعبية في نفس الحاجة - إلى دراسات منهجية جادة لتبرز مدى وعي الشعب العربي بقضاياه من خلالها ، كما تبرز مدى تمكن أصحاب السير من فنهم القصصي المتكامل ..

° ° °

لهذا كله نقدم لك سيرة « سيف بن ذي يزن » كنموذج حي لهذه السير .. كما نقدمها لك ملتزمين الأصل الذي تناقلته الرواة بقدر الإمكان حتى ليمكننا أن نقول إن كل ما تم من تغيير هو إدخال الفن الروائي المعاصر في تقديم العمل نفسه ، وما يبيحه هذا الفن من حرية في السرد أو استعمال للحوار أو استخدام للمنولوج الداخلي في جلاء معالم الشخصيات وربط الأحداث .. وقد كـان مبررنا في هذا أن هــذه السير قدمت في كل عصر بحسب فهم الراوي لروح العصر ونفسية المتلقين ، وليس فيما فعلنا بجديد على هذه السير التي تكاد شخصيتها الأصلية تتوه في ضمير التاريخ ..

فاروق خورشيد

١

التوبة

كان في قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان ، ملك من الملوك السابقين ، ذو عز وتمكين .. يخشى الناس من سطوته ، وتفزع الملوك من هيبته ، لأنه قوي الأركان ، شديد البطش والسلطان .. وكان اسم هذا الملك «ذا يزن» ..

وكان لهذا الملك وزير عاقل ، مرفوع الرتبة ، مقبول الكلمة ، له السطوة على كل الجنود .. وكان اسمه «يثرب» .. وكان الوزير «يثرب» قد قرأ الكتب القديمة ، والملاحم العظيمة ، فوجد في التوراة والإنجيل ، وفي صحف إبراهيم الخليل ، وفي مزامير داود عليهما السلام اسم محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه يظهر من قريش من بني هاشم ، وأنه يظهر الإسلام ، ويبطل الكفر والطغيان .. فترك الباطل ، واتبع الحق ، وصار من عباد الله الصالحين. ولكنه كتم إيمانه في قلبه ، ولم يخبر به أحداً ..

أقبل العيد على الملك «ذي يزن» فخرج إلى ظاهر المدينة ، وخرج الناس لخروجه ، كما خرج العساكر والجنود ، ولم يبق بالمدينة أحد إلا وخرج لخروج الملك .. ونظر الملك «ذو يزن» إلى كثرة عساكره وعدد أتباعه ، ففرح فرحاً شديداً ما عليه من مزيد ، وقال :

ـ وحق اللات والعزى ما حاز ملك مثل هذا العسكر الجرار .

والتفت إلى وزيره «يثرب» وقال له :

ـ يا «يثرب» .. أنا أعرف أنك بالأمور خبير ،، ترى أتعرف في جميع ملوك الأرض ملكاً أكبر أو أعظم جنداً مني ، أو في الجاه والسلطان يماثلني ؟

قال الوزير «يثرب» :

ـ اعلم أيها الملك الهمام ، والأسد والضرغام ، أن في بلاد الشرق ملكاً يقال له «بغلبك» صاحب همة وبأس ، وله من الفرسان والرجال أبطال كأنهم الأسود ، لا يخافون الموت . ثم إن ذلك الملك جعل له قبة خارج المدينة ، وحشاها كثيراً من الجواهر والفضة والذهب ، وتلك القبة مبنية من الفضة والذهب ، وفيها من المصابيح البلور مائة وعشرون توقد من داخلها ومن خارجها ، وعلى تلك القبة قطعة من الجوهر تزن عشرين قيراطاً ، ومن حول تلك القبة بستان فيه من جميع الفواكه ألوان تنبت بقدرة الرحمن الرحيم ، وإلى جانب تلك القبة قصر ينفي الهموم ويزيل الغم عن المهموم [illegible]

وبان الغضب على الملك فلم يرد ، فكاد الوزير «يثرب» ينتهي من كلامه حتى صاح [illegible]

ـ وحق اللات والعزى لا بد أن أسير إلى بغلبك الكبير وأقتله حتى لا يعود ذكره يدور على ألسنة الناس ، ثم أدور على أرجاء الكون شرقاً وغرباً ولا أبقي من الملوك أحداً حتى لا يصبح في هذه الدنيا من يزيد قدرة على قدري ، ويسير ذكراه إلى جوار ذكري [illegible]

وانقضى العيد ومرت بعده أيام وأيام وتذكر الملك ذات يوم عهده الذي قطعه على نفسه ، فاستدعى وزيره الأمين ، وأمره أن يجهز

الركب إلى بلاد الملك «بعلبك» .. ومضى الوزير يصدع للأمر وبعد جيش الملك «ذي يزن» برجاله وعتاده وقواته ، فلما أحس أن الجيش قد أخذ أهبته ، صف الجنود في خارج المدينة ، وذهب إلى الملك يعلمه أن الجيش قد أعد .. فقام الملك من مجلسه ، وركب الفيل ، وخرج إلى خارج المدينة ، ومضى يتفقد جنوده المصطفين ، وسعد الملك بعدد جنوده الكبير ، وعدتهم الوفيرة ، ونظامهم الكامل .. وعندما انتهى من تفقد جيوشه أمر بالاستعداد للمسير في الغد ، ثم انصرف ..

وما أن أشرقت شمس الصباح حتى ركب الملك ، وأمر الحجاب أن ينادوا في الجند بالرحيل .. وسار الموكب الكبير يهز الصحراء بأفياله وأبطاله وقواده ، ومضت أيام ثلاثة ، وأقبل الجيش في اليوم الرابع على بيت الله الحرام .

ونظر الجنود فإذ بالوزير «يثرب» ينزل عن راحلته ، ويسجد أمام البيت الحرام ، وأسرع إليه الملك «ذو يزن» غاضباً وهو يصيح :

ـ ما هذا الذي تفعل يا «يثرب» ؟

واستوى «يثرب» واقفاً ، وهو يقول :

ـ اعلم أيها الملك أننا قد أتينا بيت الله الحرام ، ومنزل ملائكته والأنبياء والرسل العظام ، فهذا بيت الذي خلق السماء والأرض والجبال ..

فقال «ذو يزن» :

ـ أنا لا أعرف من الآلهة إلا اللات والعزى .

ـ أيها الملك الهمام ، إن اللات والعزى شيء خلقه الذي هذا بيته .

ـ ومن الذي عمر هذا البيت ، ولم يكن هنا إلا الخراب ؟

فقال الوزير «يثرب» :

ـ اعلم أيها الملك أن الله تبارك وتعالى أمر آدم عليه السلام أن يسير

إلى الكعبة ويعمر البيت للحرام ، ووضع جبريل القواعد وعلم آدم البناء .. ثم أمر جبريل آدم أن يحج إلى البيت كل عام ومعه الملائكة ..

وكان الملك « ذو يزن » يسمع حديث « يثرب » صامتاً ، فلما انتهى من كلامه قال له :

ـ يا « يثرب » .. ماذا تأمرني أن أفعل في هذا البيت ؟

ـ انزل وطف به ..

فأمر الملك بنزول العساكر ، ثم دخل هو والوزير « يثرب » ليطوفا بالبيت ..

* * *

كان الملك « ذو يزن » يجري ويطوف بالبيت ، وهو يديم إليه النظر .. وكلما أطال « ذو يزن » النظر إلى البيت زاد في قلبه حديث الغرور .. ومضى يحدث نفسه أن يهدم البيت ، وأن يأخذه ليفتخر به على جميع ملوك الأرض ، فلا يعلو على مكانته أحد ..

وما أن انتهى الملك من الطواف حتى كان هذا الأمر قد استقر في قلبه وملك عليه لبه ، فأمر الوزير أن يعود معه إلى الصيوان .. وعاد الملك والوزير إلى الصيوان ، وكل منهما يسبح في أفكاره وتأملاته .. وما أن استقر الملك في مكانه من الصيوان حتى التفت إلى وزيره « يثرب » ، وقال له :

ـ إنني أريد أن أهدم هذا البيت ، وأن أنقل حجارته إلى بلدي ، وأفخر به على سائر ملوك الأرض ..

قال له الوزير :

ـ أيها الملك .. إن البيت له رب يحميه ، فلا تطع حديث نفسك تندم حيث لا ينفع الندم ..

فغضب الملك وثار ، وصاح في ثورة :

ـ وحق اللات والعزى لا بد من هدمه .. ولن يجرؤ أحد أن يقول لـ «ذي يزن» كلمة لا ..

وأمر الملك بإحضار المهندسين والبنائين والقطاعين ، وغير هؤلاء من أصحاب المهن ، وأمرهم أن ينقضوا بناء البيت حجراً بعد حجر بحساب .. وبعد أن ظل زمناً يوضح لهم حقيقة ما يريد ، صاح فيهم :

ـ واعلموا أن كل من كسر حجراً كسرت رأسه ، وأخمدت حسه .

وانصرف الجميع من أمامه يهرولون إلى خيامهم يتدبرون أمر ما كلفوا به ، ويعملون للغد المقبل بهذا العمل الغريب كل حساب ..

أما الملك «ذو يزن» فما إن خلا من حوله الصيوان ، وانفض الأتباع والجند حتى آوى إلى فراشه مجهداً من تعب النهار ، وأحلام النفس ، ومنى العظمة والتفوق ..

وأقبل الصباح ، وأفاق الملك من نومه ، فإذا هو قدر الفيل العظيم وقد تورم جسده ، وتضخمت أعضاؤه .. فأخذه الانذهال ، ومضى يصيح من فرط الانفعال طالباً وزيره «يثرب» .. وعاد الحجاب بالوزير ، الذي أسرع إلى الملك وهو يردد :

ـ ما الخبر أيها الملك السعيد ..

فأنّ الملك وقال :

ـ لقد أصبحت فوجدت نفسي على هذا الحال ..

قال له الوزير :

ـ يا ملك الدنيا ، هذا سهم رماك به رب البيت ..

ـ يا «يثرب» .. اشهد عليّ أنت وكل الحاضرين ، أني صرفت نيتي عن هدم هذا البيت ، وآمنت بربه ..

ومضى الوزير يعظ الملك ، والملك «ذو يزن» يعلن التوبة والندم إلى أن مضى النهار وأقبل الليل بالاعتكار ، فطاف بالملك طائف النوم ، وانصرف القوم .

وما زال «ذو يزن» في نومه حتى الصباح .. فلما أفاق رأى نفسه صحيحاً سليماً ، ونظر إلى البيت فاستحسنه ، وأعجبه أكثر مما أعجبه أول مرة ، وحدثته نفسه مرة أخرى بهدم البيت ، وزعمت له أن ما كان به ما هو إلا عارض قد زال .. فأحضر المهندسين والبنائين ، وأمرهم أن يعدوا العدة لهدم البيت إذا ما جاء الغد ..

وعندما نام الملك هذه الليلة ، استيقظ على ورم أخبث من سابقه ، فأمر بإحضار الوزير الذي قال له :

ـ يا ملك الزمان ، أنت آمنت برب هذا البيت أول مرة ورجعت عن نيتك ، فعد إلى الحق واصرف نيتك عن هدم هذا البيت ، وآمن برب هذا البيت وبنبيه الخليل إبراهيم ..

فأجاب الملك وزيره إلى ما أراد .. وبات تلك الليلة وأصبح ، فوجد نفسه سليماً معافى ، وسرعان ما رجع إلى نيته الخبيثة ونقض عهده للوزير .. وما ان بات وأصبح حتى وجد نفسه في حال أشد مما مر عليه .. وحضر الوزير «يثرب» إلى الملك العليل ، فلما رآه الملك أطلق الله لسانه واندفع يقول :

ـ أيها الوزير ، ما بقيت في نفسي القدرة على طلب المحال ، وإني أعلن لك عزمي على الرجوع عن هذه الأفعال .

قال له الوزير «يثرب» :

ـ لقد آمنت مرتين ورجعت ، وإن أنت عدت مرة أخرى فأنت من الخاسرين الهالكين ، وتلحق بالقوم الكافرين .. وإن أنت آمنت

حقاً وصدقاً برب هذا البيت وبنيه إبراهيم الخليل عليه السلام بعدت عن العذاب بعد اليقين ، ومصيرك إلى جنات النعيم .

قال « ذو يزن » :

ـ أيها الوزير العاقل اللبيب ، إشهد أني قائل على يديك أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن إبراهيم خليل الله .

وأمر جنده بالإسلام فأسلموا ، عندئذ أظهر الوزير « يثرب » إيمانه وأعلنه .. وحين نام الملك هذه الليلة رأى هاتفاً يصيح به أن يكسو البيت الشريف .. وفي الصباح أمر بكسوة البيت خسفاً .. ولكنه عندما نام جاءه الهاتف مرة ثانية يأمره أن يكسو البيت غير هذا ، فأمر في الصباح أن يكسى البيت بالحرير .. وما انقضى النهار حتى كان الصناع قد فرغوا من أمر الكسوة ، ونام الملك وإذا بالهاتف يأتيه للمرة الثالثة ويأمره أن يكسو البيت غير هذا .. فلما أفاق من نومه أمر بزركشة الكسوة بالفضة والخز والذهب .. وصارت هذه الكسوة تقليداً عنه لمن جاء بعده من الملوك .

أما الملك « ذو يزن » فقد أمر جيشه بالتحرك .. وسار الجيش بفرسانه وجنوده يشق السهول والوديان ، فرسخاً وراء فرسخ ، إلى أن قطع سبع فراسخ .. وما أن أهل الجيش على الفرسخ الثامن حتى وجد القوم أنفسهم في واد نضر الأشجار ، متدفق المياه ، فيه الطيور والجوارح والحيوان .. فأمر الملك « ذو يزن » جنوده بالنزول في تلك الأرض .

وفي الصباح أقبل الوزير « يثرب » على الملك « ذي يزن » ومثل بين يديه وقال :

ـ إعلم أيها الملك أنني رأيت في الكتب القديمة والملاحم العظيمة أن الله تعالى يبعث في آخر الزمان نبياً هاشمياً قرشياً ، يهاجر من مكه

إلى هذه الأرض الطيبة ويكون بها مسكنه وقبره ، وأحب أن أبني في هذه الأرض مدينة ..

فأذن الملك ، واجتهد الوزير في عمارة المدينة وبنائها ، ثم أسكن فيها قوماً من قومه بنسائهم وأولادهم وسمى المدينة باسمه يثرب .. ثم شد الملك «ذو يزن» ورجاله الرحال يقطعون الفيافي والآكام .. قاصدين ديار الملك «بعلبك» ..

° ° °

توافرت الأخبار إلى الملك «بعلبك» بأن الملك «ذا يزن» قد نزل على البلد بجميع عساكره ، فأوفد حاجباً من حجابه إلى الملك «ذي يزن» برسالة من عنده ، ورد عليه الملك «ذو يزن» برسالة أخرى .. فأمر الملك «بعلبك» بإقامة الضيافة للملك «ذي يزن» وعسكره لمدة ثلاثة أيام .. وفي اليوم الرابع ركب الملك «بعلبك» مع وزرائه وحجابه قاصداً الملك «ذا يزن» في سرادقه .. فخرج «ذو يزن» للقائه ، ورحب به وبمن معه ، وصحبهم إلى سرادقه ، وأمر بالطعام والشراب ..

ودار الحديث بين الملكين ، وحكى «ذو يزن» للملك «بعلبك» ما دار بينه وبين وزيره «يثرب» حول عظمة الملك «بعلبك» وكثرة جنوده ، فابتسم الملك «بعلبك» ووعد أن يريه مصداق ما أخبره به «يثرب» في الغداة ..

وفي صباح اليوم الثاني ، خرج الملك «بعلبك» على رأس جنوده يعرض عساكره وعدتهم على الملك «ذي يزن» الذي أخذه الانذهال وتعجب من كثرة الرجال .. ثم عاد الملك «بعلبك» إلى داخل مدينته ، وأرسل يطلب الملك «ذا يزن» ليزوره في قصره ..

وعندما وصل الملك «ذو يزن» وسط حاشيته ، قام له الملك

«بعلبك» فأخذ بيده ورحب به وأجلسه إلى جواره ، وجاء الطعام في أوان من الجوهر والذهب الأحمر .. وما أن انتهى الطعام حتى أخذ «الملك» يعرض على ضيفه خزائن الأموال ، وبهرت كثرة المال «ذا يزن» فقال للملك «بعلبك» :

– إني نظرت إلى عسكرك ورجالك وأموالك وذخائرك وبقي لي أن أنظر إلى شيء آخر وهو شجاعتك ..

فقال الملك «بعلبك» : وقد أجبتك إلى ما تريد ..

وفي الصباح ركب الملكان ، وتقلد كل منهما بعدة كفاحه ، وركب الفرسان ينظرون ما يجري بين الملكين .. وظل كل منهما يصول في الميدان ويجول ، وقد ظهر من طعناتهما أنهما ندان لا يشق لهما غبار ، وفارسان ليس مثلهما في معرفة الطعان والنزال .. ومضى النهار ولم ينل أحدهما من الآخر .. وافترق الملكان حين أقبل الليل ، وكل الحضور يتعجبون من قوة بأسهما وشدة صلابتهما ..

وظلت المعركة دائرة ثلاثة أيام .. والغبار المنعقد حول الفارسين يحجبهما عن الناظرين . وما أن أوشك نهار اليوم الثالث على الزوال حتى كلت قوى الملك «بعلبك» ، وأحس من نفسه العجز والقصور ، فحول فرسه عن الميدان ، وأسرع هارباً وهو لا يصدق بالنجاة من شرب كأس الفناء ..

أما الملك «ذو يزن» فما أن هرب الملك «بعلبك» من أمامه في الميدان حتى استولى على قصوره وأمواله ، ودانت له عساكره ورجاله .. ثم أمر الرجال بشد الرحال . وسار الملك «ذو يزن» في عسكر جرار ، لم يسمع به ملك من قبل ، يشق الأرض ويقطع القفار .. إلى أن اقترب بعسكره من بلاد الأحباش ، فأمر بحط الرحال ، لراحة الجند والرجال ..

٢

مكيدة !

وكان ملك الأحباش هو الملك «سيف أرعد» ، يحكم على كل ملوك الأحباش والسودان ، وتخافه جميع الفرسان ، ومدينته تسمى مدينة الدور ، وكان عدد عساكره ستمائة ألف فارس ، من كل مدرع ولابس .. وكان وزيره «بحر قفقان الريف» قد قرأ علم الأمم الماضية ، فوجد في الكتب القديمة أنه يظهر في آخر الزمان نبي قرشي تختم به الأنبياء والرسل ، فأسلم «بحر قفقان» وآمن ، ولم يطلع أحداً على إيمانه إذ كان قومه يعبدون الكواكب دون الملك الغلاب عز وجل .. وكان للملك «سيف أرعد» حكيمان شيطانان ، على الكفر مقيمان ، وبالشر يجهران ويبطنان ..

* * *

استدعى الملك «سيف أرعد» أرباب دولته ، وهما الحكيمان والوزير «بحر قفقان» وقال لهم :

ـ أنظروا إلى هؤلاء العرب ، الذين عدموا العقل والأدب ، والذين نزلوا في أرضنا .. لقد عزمت أن أغزوهم ، وأقتل كبارهم وصغارهم .

قال له الحكيم «سقرديوس»

ـ تمهل أيها الملك ، واسمع نصيحتي ، ولا تشتبك معهم في قتال أو صدام لأني قرأت في الكتب القديمة أن صدام الأحباش والعرب لا يتأتى علينا بخير ، ولا يجر علينا إلا الويل .

وبينما هم يتحادثون إذ بالحجاب يدخلون جماعة من التجار قد أتوا إلى المدينة ، وقبل التجار الأرض بين يدي الملك ، وقال كبيرهم :

ـ يا ملك الزمان ، بينما نحن سائرون ، وإلى مدينتكم قاصدون وجدنا في طريقنا مدينة حصينة في الأرض الحمراء لم ننظرها من قبل هذا الزمان ، وهي مشيدة الأركان ، محصنة الأسوار ذات أبراج ترمي بالنار ..

وما أن سمع الملك «سيف أرعد» هذا الكلام حتى صار الضياء في عينيه ظلاماً ، واشتد به الغضب ، والتفت إلى الحكيم «سقرديوس» وقال له :

ـ لقد كنت معولاً على غزو هذا الملك فنهيتني أنت عن هذا الأمر ..

قال « سقرديوس » :

ـ لولا أن هذا الملك يحس في نفسه القوة والمنعة ما أتى إلى أرضنا ، وسلك هذا السلوك ، ولكن يا ملك الزمان نحن نخادعه ونأخذه بالحيلة والتدبير ..

ـ وما الحيلة والتدبير ؟ ..

ـ أيها الملك ، الحيلة أن ترسل إليه هدية ، ومن جملتها جارية من أجمل جواريك ، وتعطيها حقاً صغيراً فيه مثقال من السم الخارق ، وتوصيها أن تسقيه هذا السم في الشراب أو تضعه في الطعام فيموت لوقته وساعته ، وترتاح بعد ذلك من رؤيته .. فإذا مات رحل قومه من غير حرب ولا قتال ..

فابتسم الملك «سيف أرعد» ، وأمر بإحضار الخازن في الحال ، ثم أمره أن يعد هدية عظيمة تليق بأقدار كبار الملوك .. ثم أمر بإحضار الجواري بين يديه ، وجعل ينظر إليهن وهن يسرن أمامه ، إلى أن نظر إلى جارية ذات حسن وجمال ، وقد واعتدال .. وما أن شاهدها الملك حتى أمر بإحضارها إليه ، فحضرت وقبلت الأرض بين يديه .. وما أن اقتربت منه حتى عرفها .. إنها الجارية التي جاءت من بلاد العجم ، من مدينة يقال لها قمرا ، وكان جلابها يسميها «تحفة النار» .. وأما الملك «سيف أرعد» فقد سماها «قمرية» . وكان يعرف عنها إلى جوار جمالها ما امتازت به من مكر ودهاء ، وقدرة على الكذب والاحتيال...

وقال لها الملك «سيف أرعد» :

ـ يا «قمرية» ، نحن نحتاجك في مهمة خطيرة ، لا يصلح لها إلا ذكاؤك ودهاؤك ..

قالت «قمرية» :

ـ أنا جاريتك ، فأمر أنفذ ما تقول ..

وحكى لها الملك ما يريد ، وأعطاها حقاً صغيراً به السم ، فأخذته وخبأته في ذوائب شعرها ، ووضع الملك يده في ذوائب شعرها فلم يعثر للحق على أثر .. وارتاح الملك «سيف أرعد» واطمأن باله . وأمر لها بأفخر الملابس وأعظم الجواهر .. ثم أرسلها مع الهدية ومعها خطاب إلى الملك التبعي الحميري «ذي يزن» ..

* * *

وكان الوزير «بحر قفقان الريف» يسمع ويرى ، وهو من خسة الحكيم «سقرديوس» في غيظ كظيم .. وما أن انفض مجلس الملك حتى أسرع إلى بيته حيث اختلى بنفسه ، وكتب كتاباً إلى الملك «ذي

يزن» يخبره بالجارية «قمرية» وما معها من سم تخفيه في شعرها ، وما في قلبها من خبث ومكيدة ، وختم خطابه بالسلام على الوزير «يثرب» الذي يعرف أمر إيمانه وصدق مشورته ، ورجاحة عقله .. ثم دعا إليه عبداً كان قد رباه ، وعلى الخلق القويم أنشأه وتعهده ، وأمره أن يأخذ الكتاب إلى المدينة الحمراء ، مدينة الملك «ذي يزن» وأن يسلم الكتاب للملك على ألا يظهر نفسه لإنسان ..

* * *

دخل الحجاب على الملك «ذي يزن» في مجلسه ، وأخبروه أن بالباب قوماً يحملون هدية عظيمة ويدعــون أنهم رسل المــلــك « سيف أرعد» فأمر الملك بدخولهم ..

ودخل الرسل إلى حضرة الملك فقبلوا الأرض بين يديه ، وقرأوا رسالة الملك «سيف أرعد» عليه ، ثم قدموا الهدية ، ووسطها الجارية «قمرية» .. وما أن نظر الملك «ذو يزن» إلى الجارية حتى وقعت في قلبه محبتها ، وبهره حسنها وجمال طلعتها .. فأمر أن يدخل الرسل إلى دار الضيافة ، وأن يكرموا غاية الإكرام .. وأمر أن توضع الهديــة في خزائنه .. ثم هب من مكانه يريد أن يفض الديوان ليسامر الجارية «قمرية» ويتملى بطلعتها البهية .. وأسرع إليه الوزير «يثرب» يهمس في أذنه :

ـ مهلاً يا ملك الزمان ، فربما تكون هذه الجارية مكيدة أو دسيسة واعلم أننا دخلنا بلاد هؤلاء الأحباش وبنينا هذه المدينة وأقمنا حولها الأسوار من غير إذن ملكهم ، ولست آمن عليك من مكرهم وخداعهم ..

وقطع الحاجب حديث الوزير إذ استأذن في دخول رسول من عند

الوزير «بحر قفقان الريف» وزير الملك «سيف أرعد» .. فنظر إلى الوزير «يثرب» ثم أذن للحاجب بإحضار الرسول ، وقبل الرسول الأرض بين يدي الملك «ذي يزن» ودعا له بدوام البقاء ، ثم أعطاه كتاب الوزير «بحر قفقان» . وأخذ الملك الكتاب وأعطاه لوزيره «يثرب» الذي فضه وقرأ محتواه ، والملك «ذو يزن» يسمع والغضب يشتعل في قلبه ، والحنق يملك عليه زمام نفسه ..

وما أن انتهى الوزير «يثرب» من قراءة الكتاب حتى قال له الملك «ذو يزن» :

ــ ما أحسنك من وزير ، بعواقب الدهر خبير .. ولكن ما تدبيرك في هذا الأمر الخطير .. !!

ــ أرى يا مولاي أن تكشف للجارية أنك عرفت أمرها وكشفت سرها ، وأن تهددها بالقتل إن لم تظهر حق السم الذي معها ..

قال الملك :

ــ صدقت يا وزير .. ولولا ذكاؤك لوقعت في هذا التدبير ، أما العبد الذي جاء بالكتاب فأحسن مثواه ، ورده إلى سيده ، وشكره على ما بدا من إخلاصه وشهامته ..

ه ه ه

دخل الملك «ذو يزن» والسيف في يده مشهور ، والغضب على جبينه واضح ، والنار في عينيه تتلظى ، ورأت «قمرية» هذا فأحست أن أمرها افتضح ، وأن سرها قد عرف .. فهبت من مجلسها واقفة وهي تتأود كالغزال العطشان وقد شهرت في وجه غضبه سلاح جمالها وفتنتها .. وجعل الملك يهددها ، وجعلت هي تتأود وتتثنى وتلين له في الكلام وتخضع له في القول .. وصاح بها الملك :

ـ من أنت ، ومن أين أقبلت ؟
قالت وهي تنظر إلى وجهه بعين فاحصة :
ـ أنا هدية يا ملك الزمان ..
فهدر الملك قائلاً :
ـ بل أنت هدية في الظاهر وأذية في الباطن .. أين حق السم الذي تخفينه يا شيطانة ..
فابتسمت في وجهه وخادعته وهي تهمس لنفسها «إن قصر الفهد فيما بدا ، إن ما صاد اليوم صاد غدا» ثم أخرجت الحق من شعرها ، وتأودت ثم قالت :
ـ حقاً يا مولاي إنك لملك عظيم الشأن عالي الهمة ، وما كنت لأخدع رجلاً كريماً مثلك ، وملكاً عظيماً له مثل قوتك وعظمتك .
وخدع الملك لمقالها ، وبهره جمالها وذكاؤها ، وأقبل عليها مشغوف القلب مستطار الفؤاد .. ومن يومها صارت «قمرية» أعلى الجواري عنده وأكثرهن قرباً إلى قلبه وتحكماً في مشاعره ..
كان الملك «سيف أرعد» . غاضباً أشد الغضب . ساخطاً كل السخط ، ويقوم في مجلسه ثم يقعد ، ويصرخ في الجالسين حوله ثم يسكت . حين دخل عليه «سقرديوس» وهو يقول :
ـ لقد وصل الرسول يا مولاي ..
ـ وماذا يحمل من أنباء الخائنة الغادرة ، التي أرسلتها لتقتل «ذا يزن» فإذا بها تصحبه وتعيش في قصره ..
ـ صبراً يا مولاي ، إنها تنفذ الخطة في بطء وعلى حذر ..
ـ ولماذا البطء يا «سقرديوس» ..
ـ إنها حامل يا مولاي ...

فهب الملك صارخاً وهو يهدر :

ـ أهي حامل ؟ .. هذه الأفعى التي لا تعرف لنفسها سيداً ..

ـ نعم يا مولاي .. وماذا تفعل وهي بين يديه ؟ .. لقد صبرت عندما انكشف أمرها ، وجعلته يأمن جانبها حتى حكمها على ملكه وحكمها على قلبه ، وأعطاها من السلطان والجاه فوق ما أعطى لوزيره .. وعندما يموت ستملك الأمر من بعده ..

ـ عندما يموت !! .. لقد فشلت حتى الآن كل الوسائل التي رسمتها أنت يا «سقرديوس» ..

ـ كلا يا مولاي .. فإني لم أخبرك بباقي رسالة الجارية «قمرية»

ـ وما باقي الرسالة .. ؟

ـ الملك «ذو يزن» في النزع الأخير ، وهو اليوم على فراش الموت بفضل السم البطيء الذي أرسلته أنا ووضعته «قمرية» في شرابه كل يوم جرعة ..

• • •

أرسل الملك «ذو يزن» يطلب وزيره ورجال قصره ، فحضروا باكين إلى فراش مرضه ، وقال لهم الملك «ذو يزن» وهو في وهن الاحتضار :

ـ لقد جمعتكم أيها الرجال لأوصيكم وصية طيبة ..

قال الرجال المحزونون :

ـ وما الوصية يا مولاي ؟

قال الملك المحتضر :

ـ أوصيكم بالإيمان وتصديق رسالة الخليل إبراهيم ، وأن تعلموا أن هذه الجارية حامل مني وهي الحاكمة عليكم من بعدي إلى أن تضع

ابنها وتربيه ، فإن كان الولد ذكراً فهو الحاكم ، وإن كان أنثى كان من يتزوجها هو الحاكم عليكم ..

بكى الرجال وأقسموا أن ينفذوا وصية الملك ، ودعوا له بطول العمر وانقضاء المرض .. إلا أن سيف الموت كان قد وصل ، وكلمة القضاء قد حانت .. فسرعان ما قضى الملك نحبه ولحق بربه ..

٣

وادي الموت

تولت الجارية الخبيثة «قمرية» الملك بعد موت «ذي يزن» ، وأمرت ونهت في الرجال ، وصلح لها الأمر والحال .. ثم أكملت أشهرها ، وجاء وقت ولادتها .. فوضعت غلاماً ذكراً كالبدر ، على خده شامة خضراء .. وقد نزل في قلبها البغض للمولود من ساعة رأته وعرفت أنه إن عاش أخذ منها ملك أبيه فأضمرت في نفسها الغدر .. وأخذت تهمل الغلام وتجيعه عسى أن يموت ، والغلام كل يوم في ازدياد ونمو .. والغيرة منه تنمو في قلبها الأسود وتفترس صدرها الخبيث ..

وعندما اكتمل الغلام أربعين يوماً ، اجتمع الوزراء وأرباب الدولة وطلبوا رؤيته ، فألبسته وأجلسته على كرسي المملكة وهي تنظر من خلف ستار .. فإذا بهم يصطفون حسب رتبهم ، ويتقدم كل منهم إلى كرسي الغلام فيقبل الأرض بين يديه ويقول :

ـ جئت أيها الملك السعيد إلى ملك والدك ، ونحن لك من جملة الخدم والعبيد ..

وكان الكلام ينزل على قلب الجارية كالسهام المسمومة .. فما أن انتهى الوزراء ورجال الدولة من رؤية الغلام حتى اختطفته اختطافاً من على كرسي المملكة ، وأسرعت به إلى حجرتها ، فرمته على الأرض ،

وأشرعت في يدها سكيناً مرهف النصل وأقبلت عليه كالنمرة الهائجة تروم ذبحه ، وإذ بجاريتها تدخل عليها وتصرخ فيها .. فشل الله يدها وييبس السكين بين أصابعها ..

وقالت الجارية لسيدتها «قمرية» :

ـ ما الذي أغراك بهذا الأمر .. أتقتل أم فلذة كبدها .. ؟ !

فارتمت «قمرية» على سريرها وهي تصرخ كالمجنونة ، ثم قالت لجاريتها :

ـ بل لا بد من قتله ، فإنه إن كبر أخذ مني الملك وتسلط على الرجال ..

ـ ألا تعلمين أنك إن قتلته ، وعلم أهل المملكة بفعلك هذا لن يتركوك دون القصاص الرهيب ؛ فيقتلونك شر قتلة ، ويجعلون منك عبرة للمعتبرين ، وموعظة للمتبصرين ..

قالت «قمرية» :

ـ لا بد لي من قتله لأستريح ، لقد أوقد النار في قلبي خضوع الرجال له اليوم وهو ابن أربعين يوماً ، فماذا يكون الحال عندما يكبر ويبلغ مبلغ الرجال .. !

قالت الجارية :

ـ ومن منعك من قتله ؟ فقط لا تتحملي وزر قتله بيدك ..

ـ وما العمل ؟

ـ اتركيني أدبر لك الأمر خفية حتى لا يقول أحد : قتلت الملكة ابنها بيدها حتى لا يرث الملك منها .. !

غابت الجارية تدبر أمرها أياماً ، ثم جاءت لـ «قمرية» ذات ليلة وقالت لها :

ـ هات عقداً من الجوهر ، وهات من الدنانير ألفين ، وهات أجمل أثوابه المزركشة ..

وذهبت «قمرية» إلى حجرتها وعادت بما طلبته جاريتها .. فألبست الجارية الغلام ملابسه والعقد وأخذت صرة الدنانير .. ثم أمرت الهجان أن يأتي بهجين وجوادين ، وأن يوقفهم عند باب الخدم في مطلع الصباح ، وأعطت «قمرية» الهجان بدرة مال ، فانصرف بعد أن نفذ ما طلب منه .. أما الجارية فقد قالت لـ «قمرية» :

ـ في الصباح نركب نحن الاثنتين ، ونأخذ الغلام إلى مدينة الموت .. وهناك نتركه وحده ، إن عاش عاش لعمره وإن مات مات لأجله .. وما أحسب الموت يتركه في هذه المدينة المهجورة المليئة بالسباع والضواري ..

• • •

وفي غبش الصباح ، غادر مدينة الحمراء جوادان وهجين .. أما الهجين فكان يحمل زاداً وماء ، وأما الجوادان فعلى أحدهما كانت تركب «قمرية» والغلام ، وعلى الثاني كانت تركب الجارية ومعها كيس الدنانير ..

ومضى هذا الموكب يجتاز المدينة التي ما زالت نائمة ، ويخرج إلى البراري والتلال والسهول ..

وظلت «قمرية» وجاريتها في سير متصل أربعة أيام وليال .. وفي اليوم الخامس أشرفتا على واد فسيح مقفر فقالت الجارية :

ـ هذا وادي الموت .. هنا تنتهي رحلتنا ..

ونزلت «قمرية» من على جوادها وفي يدها الغلام ، ونزلت الجارية وهي تقول :

ـ كان هذا الوادي المخيف في الأصل مدينة عظيمة ، أقام بها الموت حتى قضى على رجالها ونسائها ، فهي قفر خراب ينعق فيها البوم والغربان وترتادها الوحوش الكواسر الجياع ، فلا أمان هنا لحي ..

وكانت «قمرية» تنظر ما أمامها من علامات الخراب والدمار ، وقلبها يزداد قسوة وتحجراً ، إلى أن رأت أمامها شجرة شوك ، فهرولت إليها ووضعت تحتها الغلام وهي تقول :

ـ وإن نجا من الوحوش والسباع فلن ينجو من الحر والهجير .. ووضعت الجارية إلى جوار الغلام كيس الدنانير .. ثم أسرعت المرأتان تركبان الخيل وتقودان الهجين عائدتين إلى مدينة الحمراء .. والطفل الصغير وحده تحت الشجرة لا يعرف ما فعلت به أمه، وما يخبئه له الزمان ..

٤

طفل غريب

كانت الغزالة ترضع ابنها الوليد وهي آمنة مطمئنة ، حين أحست بدنو الخطر ، فرفعت رأسها وأدارته يمنة ويسرة .. ثم انطلقت تجري بكل قوتها وقد نسيت وليدها الصغير .. وأسرع الصياد يجري وراءها وقد نسي حذره وتربصه ، وما كاد يقترب من المكان الذي كانت تقف فيه حتى وجد وليدها يقف وحيداً في استكانة ، فحمله ومضى يطارد الغزالة من جديد ، فإذا به قد فقد أثرها فمضى لشأنه وقد أضمر في نفسه أن يعود إلى هذا المكان عندما ينتهي من صيده فربما عادت بحثاً عن وليدها ..

وحين أمنت الغزالة مطاردة الصياد ، عادت إلى حيث تركت وليدها فلم تجده .. وبينما هي تبحث عنه عثرت على الطفل الصغير تحت شجرة الشوك يضرب الأرض بقدميه ويصرخ من الجوع .. فأنزل الله في قلبها الحنان ، فألقت بثديها في فمه الذي تلقفه في شراهة ومضى يمتص لبنها في نهم ..

وكان الصياد يتقدم إلى المكان في حذر ، وحين وقع بصره على هـذا المشهد الفريد ، فوقف في مكانه وقد ملأه العجب .. وأحسّت بـه الغزالة فتركت الطفل وأسرعت تجري ، وتقدم الصياد فمال على الطفل

وحمله ووجد تحت رأسه الكيس المليء بالدنانير فأخذه وقد استبشر وملأه السرور ، وزاد سروره عندما عثر على العقد الجوهر .. فأسرع يحمله كالمجنون ويعود إلى مدينته ، مدينة الدور ..

* * *

كانت مدينة الدور واحدة من المدن التي تقع تحت سطوة الملك «سيف أرعد» ملك الأحباش ، ولكن كان يحكمها بطل جبار وفارس لا يشق له غبار ، هو الملك «أفراح» الذي يعبد الكوكب «زحل» دون الواحد الفتاح .. وبينما الملك في إيوانه ، بين وزرائه وأعوانه ، إذ دخل عليه الحاجب وقال :

ـ صياد بالباب ، يستأذن في الدخول على مولاي ، وهو يقول إن معه هدية ثمينة ، وحكاية عجيبة ..

فأمر الملك «أفراح» بدخول الصياد ، والإذن له بالمثول بين يديه ..

ودخل الصياد ، فقبل الأرض ، وحكى للملك أفراح قصته الغريبة .. فعجب الملك «أفراح» ومد يده يأخذ الغلام ، فإذا بالطفل يبتسم في وجهه والشامة تظهر على خده . فابتسم الملك ، وألقى الله محبة الصبي في قلبه .. فأمر الصياد أن يأخذ الدنانير ، وأعطاه بدل العقد الجوهر بدرة أخرى مثل ما أخذ أو أكثر ..

وبينما الملك «أفراح» يتأمل في الطفل الغريب ، ويستعيد قصة الصياد ويستزيد ، إذ بالديوان يضج بالصياح ، وإذ بالحاجب يسرع إلى مولاه ويقول :

ـ يا مولاي ، وصل الحكيم «سقرديون» أخو الحكيم «سقرديوس» من عند الملك «سيف أرعد» ، ومعه الحاشية والغلمان والفرسان ..

فقام الملك في الحال ، يستقبل حكيم الملك «سيف أرعد» ويرحب

به ، وينزله في الديوان منزل التشريف ، ويحيطه بكل رعاية وتحية ..

وما أن جلس الحكيم «سقرديون» حتى نظر الغلام فعجب واندهش ، والتفت إلى الملك «أفراح» يسأله عن سر هذا الطفل الذي رآه في الديوان .. فقال الملك «أفراح» :

ـ هذا غلام وجده الصياد في حجر غزالة ترضعه ..

فأمسك الحكيم «سقرديون» الغلام بين يديه ، فأوقع الله الكراهية في قلبه ، ونظر الشامة على خده اليمين فصاح وهاج .. وقال :

ـ لا بد أن تقتل هذا الغلام يا ملك الزمان ..

قال الملك :

ـ ما الأمر يا حكيم «سقرديون» ؟

ـ هل سمع أحد بغزالة تلد طفلاً ؟! .. إن هو إلا ابن خاطئة خافت الفضيحة ، فرمته إلى الآكام عسى أن تقتله الوحوش ..

ـ وما البأس أن نربيه نحن يا حكيم الزمان ؟!

قال الحكيم «سقرديون» :

ـ هذه الشامة أيها الملك على خد الغلام ، علامة تحذير لعبدة النجوم والأصنام .. فإني وجدت في الكتب العظيمة والملاحم القديمة ، أن ولداً سيظهر يقال له «تبع جار الغزال» يقضي على عبدة زحل والنجوم ويكون أبوه من حمراء اليمن ، ويقال له «سيف بن ذي يزن» ويحكم على الإنس والجان بسر سيف «آصف بن برخيا» وزير نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام .. وأن «آصف» رصد سيفه لملك اسمه «سيف بن ذي يزن» يتلو حسبه ونسبه ويملكه بقوة ساعده وزنده ..

فابتسم الملك «أفراح» ، وهو يعجب من الحكيم وكيف تاه عقله وراح .. وقال :

ــ وحق زحل يا حكيم الزمان ، لست أجد لهذا الطفل ذنباً نقتله به ، ولا جريرة نأخذه بها ..

وقبل أن يرد الحكيم «سقرديون» ، إذ بالحاجب الأعظم يدخل الديوان مهرولاً دون أن يستأذن وهو يصيح في بشر وسرور :

ــ البشارة يا ملك الزمان ، قد جاءك السرور ، وزالت عنك الهموم ، لقد وضعت الملكة دهشانة طفلة كأنها البدر ليلة تمامه ..

وهرول الملك من ساعته إلى حجرة زوجته .. فإذا بها قد ولدت بنتاً ذات حسن وجمال ، وعلى خدها خال مثل ما على خد الغلام .. ففرح بها غاية الفرح ، وحملها وعاد بها إلى إيوانه ، ليريها لجلاسه وسماره .. ثم وضع الفتاة جنب الغلام ، والناس قعود وقيام ، وقال :

ــ ما أحسن هاتين الشامتين ، وما أظرفهما على الخدين ..

عند ذلك لطم الحكيم خده ، ورمى عمامته على الأرض ، وهو يصيح بأعلى صوته ويقول :

ــ وحق زحل في علاه والنجم وما سواه ، إني خائف من هاتين الشامتين ، واجتماعهما مع بعضهما ..

فصاح الملك «أفراح» وقد ملأه الغضب ، واستبدت به الحيرة :

ــ ماذا جرى لك أيها الحكيم «سقرديون» .. ؟

قال الحكيم :

ــ ما جرى لي إلا مخالفتك لما نقول .. اعلم أيها الملك أنه متى اقترنت هاتان الشامتان نفذ المقدور ، وانتهت عبادة زحل والنجوم ، وانتهى ملك الحبش وحل ملك العرب .. فلا بد أن تقتل هذه الفتاة وذلك الغلام حتى يهدأ مني البال ويستريح البلبال ..

فصرخ الملك الذي ملكه الغضب :

ـ ماذا تقول أيها الحكيم التعيس ؟ .. أأنت من ذرية إبليس ، كيف تريدني أن أقتل ابنتي وفلذة كبدي ، أما هذا الغلام فلست أجد له جريرة .. ولكني سأفرق بينهما منذ اليوم وأجعل كل واحد منهما في مكان ..

وأمر الملك «أفراح» أن تربى ابنته بعيدة عن الغلام ، وأن يكون لكل منهما مراضع غير الذي للآخر .. وأمر الجميع بإكرام الغلام ، وأسماه «وحش الفلا» لأن الصياد وجده في البراري والخلا ..

* * *

كانت حاضنة «وحش الفلا» تملأ إناء الشرب من المزيرة ، فإذا بها تسمع صوتاً يقول لها :

ـ يا جارية ، أحضري «وحش الفلا» يتربى عندي مدة من الزمان ، حتى يكبر ويصير له من العمر ثلاثة أعوام ..

وظنت الجارية أنها لم تسمع جيداً ، فعاد الصوت يردد لها ما قاله أول مرة ، فلم ترد الجارية .. فإذا بالصوت يعود ويقول :

ـ إن لم تأت به آذيتك وأخذته غصباً عنك ..

فخافت الجارية وارتعبت ، وأسرعت وهي ترتجف تحضر الغلام ، وتضعه إلى جوار المزيرة . وحين عادت بعد قليل لم تجد للغلام أثراً .. فهرولت إلى القصر تحكي الأمر للملك ..

واغتم الملك «أفراح» وتألم ، وملأت الحيرة والدهشة قلبه .. وأسرع يخبر الحكيم «سقرديون» بالأمر ، ففرح اللعين الفرح الذي ما عليه مَن مزيد ، وهون الأمر على الملك «أفراح» ، وقد اطمأن باله وارتاح ..

٥

عطمطم !

وانقضت الأيام .. ومضت الثلاثة أعوام .. وبينما الملك «أفراح» يخرج من القصر إلى الديوان ، إذ مر في طريقه بالمزيرة .. وإذ به يسمع صوتاً يهتف به :

ـ يا ملك «أفراح» أبشر بالسرور والأفراح .. ها أنا أعيد لك الغلام بعد أن ربيته عندي ثلاثة أعوام .. فخذه واعتن به ، واعلم أن «وحش الفلا» ابن ملك همام ، وهو إلى جوار هذا قد صار ابني بالرضاعة ..

فخاف الملك وارتعد .. وقال :

ـ من أنت يا صاحبة الصوت ؟ .. وما شأنك بهذا الغلام ؟ .. فجاءه الصوت يقول :

ـ أنا ملكة جبال القمر ومنابع النيل زوجة الملك الأبيض من ملوك الجان . أما قصتي مع هذا الغلام فعجيبة ، ذلك أنني كنت يوماً أرتاح إلى جوار شجرة شوك ـ أنا وابنتي «عاقصة» ـ فوجدنا هذا الغلام يصيح من الجوع وهو وحده في هذه الفلاة .. وعندما عدت أخبرت زوجي بقصته ، فأقسم على أن لا أعود حتى أحضره ليتربى عندنا حتى يشتد .. فبحثت عنه حتى وجدته في قصرك ، وربيته مع ابنتي «عاقصة» كل هذه الأعوام .. واليوم أعيده إليك ، فإياك

أن تمسه بضر أو تسعى إليه بشر ، ولو كان يمكن أن يعيش أبناء البشر في دنيا الجن ما أعدته إليك .

والتفت الملك «أفراح» فما وجد سوى الغلام «وحش الفلا» يرقد على الأرض وهو في نوم عميق ، فحمله الملك وقد حن قلبه عليه ، ومضى به إلى زوجته يحمل لها بشرى عودته إليه ..

ظل «وحش الفلا» يتربى عند الملك «أفراح» – وهو عنده في أعز مكان وأعلى منزلة – إلى أن بلغ من العمر سبع سنين .. وأراد الملك أن يعلم الغلام الفروسية فأمر أن يأتوا للغلام بمهر صغير ، ولكن الغلام رفض وأصر على ركوب جواد أدهم اختاره بنفسه ، ثم طلب رمحاً طويلاً وسيفاً صقيلاً ، فأتوا له بما طلب .. فإذا به يركب كأحسن الفرسان ويصول في الميدان ، ويبادر الأقران والشجعان ..

وظل «وحش الفلا» يركب كل يوم فرسه ، ويباشر طعنه وضربه إلى أن بلغ من العمر أربع عشرة سنة ، وقد ضج الناس من قوته ، واشتكى الفرسان من بطشه وسطوته ..

° ° °

كان الحكيم «سقرديون» في حضرة الملك «أفراح» حين دخل عليهما فارس صغير ، فقام له من في الديوان ، ثم أخذ مجلسه إلى جوار الملك .. فدهش «سقرديون» وتأمل في الفارس فإذا به غلام صغير .. فالتفت إلى الملك وهو يقول :

ـ من هذا الفتى الصغير الذي وقف له كل من في الديوان ، وأخذ مجلسه إلى جوارك كأنه بعض أقاربك ؟!

قال الملك «أفراح» وهو يبتسم :

ـ ألا تذكر أيها الحكيم «سقرديون» الطفل الصغير الذي وجده

الصياد في الفلاة ، ثم اختطفه الجن من المزيرة .. لقد عاد بعد ثلاثة أعوام ، وتعلم الفروسية وغدا اليوم كما ترى متعة لكل عين وبهجة لكل قلب ..

وما أن سمع «سقرديون» هذا الكلام ، حتى ظهر عليه الغيظ وبان .. ثم قال :

ـ ألم أطلب منك أن تبعد هذا الغلام عن ابنتك «شامة» ، حتى لا تتحقق باجتماعهما العلامة .. ولكنك بدلاً من هذا تربيه ، وتعلمه اللعب بالسيف ، وتجلسه إلى جوارك في الديوان .. وحق زحل في علاه إن لم تخرج هذا الغلام من أرضنا لأرسل إلى أخي «سقرديوس» ليعلم الملك «سيف أرعد» أنك تربي عدونا في بلادنا ، فيرسل إليك جنده كالبحر الزاخر ، تطردك من أرضك ، وتخرجك من ملكك وتقتل هذا الغلام ، وتقتل ابنتك صاحبة الشامة ..

فأطرق الملك «أفراح» يفكر ، ثم رفع رأسه وهو يقول :

ـ أيها الحكيم العظيم الشأن .. لقد وجدت وسيلة أنفذ بها كلامك ، فأنت عندنا رفيع الشأن عالي المنزلة ، وكلامك أمر مطاع ..

أرسل الملك «أفراح» يستدعي فارسه المشهور وبطله المعروف «عطمطم» خراق الشجر .. وكان «عطمطم» يعيش تحت نفوذ الملك «أفراح» في حصن يبعد عن مدينة الدور مسيرة ثلاثة أيام ، وكان سبب تسميته بخراق الشجر أنه إذا ركب على ظهر جواده يأخذ قنطاريته بيده ويضرب بها أعظم شجرة فيخرقها بقوة ساعده وسداد ضربته ..

وما أن بلغت رسالة الملك «أفراح» إلى «عطمطم» حتى سار من وقته وساعته قاصداً مدينة الدور مجيباً رسالة الملك ملبياً دعوته .. وحين

دخل «عطمطم» على الملك «أفراح» قبل الأرض بين يديه ، ووقف عاقداً ساعديه وهو يقول :

ـ لبيك يا مولاي ، هل بغى باغ تريد أن أؤدبه ، أو عصى عاص تريد أن أجندله ؟!

فابتسم الملك «أفراح» وقال له :

ـ بل لقد أرسلت في طلبك من أجل شيء آخر .. أترى هذا الغلام ؟ .. إنه عزيز عندي بل هو أعز من ولدي ، فخذه معك إلى حصنك ، وأكرمه غاية الإكرام ، وعلمه طرفاً من شجاعتك وقوتك وفروسيتك .

فأجابه خراق الشجر بالسمع والطاعة ، وقد سره شكل الغلام ، وما هو عليه من مهابة ، وما يظهر على وجهه من مخايل النجابة .. وسار به إلى حصنه يعلمه ألوان الفروسية ، وأنواع الكر والفر ، والجلاد على الحرب والضرب .. إلى أن مر عام ، وصار لـ «وحش الفلا» من العمر خمسة عشر عاماً كاملة ..

° ° °

وذات صباح استدعى «عطمطم» «وحش الفلا» وقال له :

ـ يا ولدي أنت ملكت الشجاعة والقوة والبراعة ، وتعلمت أبواب الحرب ومواقع الطعن والضرب ، ولكن بقي أمامك باب واحد فقم معي .

وسار «وحش الفلا» مع «عطمطم» إلى أن أتيا إلى شجرة كبيرة ضخمة يحار الناظر في طولها وعرضها ، وعندها تسع شجرات يقاربنها في الحجم ، وفي كل شجرة منها طاقة مخروقة .. قال «وحش الفلا» :

ـ وما هذه الخروق التي في هذه الأشجار يا مولاي ؟

ـ اعلم يا ولدي أنني أركب على ظهر جوادي وأحمل على الشجرة

وأطعنها بهذه القنطارية فأخرقها ، وأميل عليها فأخرقها ، ولهذه سميت خراق الشجر .. وانظر سأريك فعالي حتى تعرف مكاني ..

وقام خراق الشجر وركب صهوة جواده ، واعتد بعدة جلاده ، وأخذ قنطاريته بيده ، وأسرع بجواده إلى الخلاء ، ثم عاد حاملاً على الشجرة وطعنها فخرقها .. فقال « وحش الفلا » :

ــ أحسنت يا مولاي أعطني هذه القنطارية وانظر ماذا أصنع بها ..

فأعطاه خراق الشجر قنطاريته ، وركب وحش الفلا جواده ، وحمل على الشجرة وطعنها وإذا بسن القنطارية ينفذ من عقب الشجرة قدر شبر كامل ، فمد يده وشد القنطارية فخرجت في يده مع جري الجواد .. فإذ بالقنطارية في يده ، وابتعد « وحش الفلا » بجواده .. ثم عاد إلى الشجرة وطعنها ثانية ، ومد يده فأخرج القنطارية من الناحية الأخرى مع جري الحصان ..

وظل « وحش الفلا » يكرر هذه الطعنات الصائبة والحيرة تشتد بـ « عطمطم » والدهشة تبدو عليه .. فما أكمل « وحش الفلا » أربعين طعنة حتى أخذ الرعب بقلب خراق الشجر ، ورمى تاجه من على رأسه ولطم بيديه على خديه حتى برز الدم إلى عينيه ، والتفت وهو محنق يقول لـ « وحش الفلا » :

ــ ما أدراك لعلك تكون أنت الذي على يديك هلاك عابدي النجوم ، يا غلام ما هذه أرضك ، ولا أرض أبيك ، ولا جدودك من قبلك ، ولكنها أرضنا نحن . وفي أي مكان وجدناك فيه سنقتلك ..

وبينما « عطمطم » في ثورته ، والغضب آخذ منه مأخذه ، اندفع « وحش الفلا » هارباً وللنجاة طالباً .. وقد خشي من غضب خراق الشجر الذي بان وظهر ، فاندفع إلى الصحراء تائهاً بين الوديان والجبال ...

٦

بنات الملوك

ظل «وحش الفلا» يسير في البراري والقفار يومين كاملين .. وفي صباح اليوم الثالث أشرف على غار ، وما أن قصد إليه حتى سمع فيه صوت إنسان ، فعجب «وحش الفلا» وخاف . ولكن جوعه وعطشه أسرعا به إلى الغار عسى أن يجد ما يسد به رمقه ..

ووجد في داخل الغار رجلاً أعجمياً ، فتقدم منه وقال :

ـ يا مولاي .. أنا رجل غريب عن الأوطان وقد رماني الزمان بالحرمان .

فقال له الأعجمي :

ـ اعلم يا ولدي أنني أنتظرك في هذا المكان منذ مدة من الزمان فإنه يوجد في ذلك الغار كنز عليه خدم من الجان ، وفيه سوط من الجلد مطلسم ، ولا يقدر على أخذه إلا غلام اسمه «وحش الفلا» .. وها أنت قد أتيت فانزل إلى ذلك الغار وائتني بالسوط ، وأنا أبطل لك جميع المهالك من السحر والحكمة ..

قال «وحش الفلا» :

ـ وما منفعة ذلك السوط ؟

ـ إن هذا السوط إن ضرب به شخص قتل لوقته وساعته .. لا يقف أمامه جن ولا إنس !

ونزل «وحش الفلا» إلى الغار وقلبه مليء بالخوف من الهلاك ، ووصل إلى سرير عليه حكيم كبير والسوط تحت رأسه .. فمد يده يأخذ السوط وعاد راجعاً وهو لا يصدق بالنجاة ، وما أن وصل إلى باب الكنز حتى نادى الأعجمي بأن الحاجة قد قضيت .. فقال الأعجمي :

ــ ناولني السوط فأنت عندي أعز من الولد ..

ــ أخرجني إلى خارج الكنز وخذ مني السوط في الغار ..

وأخذ الأعجمي يغريه ، ويحاول أن يخدعه ويلهيه ، و «وحش الفلا» يصر على ألا يعطيه السوط إلا بعد أن يأخذ بيده ، وإلى ظهر الأرض يخرجه ، فمد الأعجمي يده وجذبه وهو يحاول أن يطبق بيده الأخرى على السوط لينتزعه ، إلا أن «وحش الفلا» كان أسرع منه فضربه بالسوط ، فإذا برأسه عن جسده قد طار .. فحمد «وحش الفلا» ربه على نجاته من يده ؛ وفرح لحصوله على السوط ، وأكل من زاد الأعجمي واستراح .. ثم مضى في طريقه وقد زال تعبه وراح غمه عنه ..

• • •

ظل «وحش الفلا» في سيره حتى أشرف على مدينة عالية الأسوار وأبواب المدينة كلها مغلقة ، وأهل المدينة يقفون على الأسوار وهم يبكون بدموع غزار .. وقد لبسوا السواد كمن فقد أعز الأهل والأولاد ، ورأى خارج المدينة خيمة منصوبة وهي مزركشة تدل على أن بداخلها عروساً .. فاتجه «وحش الفلا» إلى هذه الخيمة ينظر ما بها وقد أخذ منه العجب .. وما أن اقترب من الخيمة وأزاح بيده الباب حتى بهره جمال العروس ، وقد جلست وحدها تبكي وتندب حظها .. وكانت العروس جميلة كأجمل ما تكون النساء ؛ فقال «وحش الفلا» :

ـ ما يبكيك يا أجمل ما في الدنيا ؟!

فرفعت رأسها ونظرت إلى «وحش الفلا» فبهرها جماله ، وأعجبتها الفتوة والشهامة تبين على وجهه ..

وقالت له :

ـ أنا أيها الشاب المليح بنت ملك وسلطان ، وقد تزوجني عفريت من الجان ..

ولما رفعت العروس رأسها ، التقت أعينهما في نظرة أعقبتها ألف حسرة ، وقد رأى لها خالاً أخضر على خدها مثل الذي على خده .. وقال :

ـ وكيف كان هذا الحال .. ؟

ـ اعلم يا سيدي أن اسمي «شامة» بنت الملك «أفراح» وهذه أسوار مدينتي وهؤلاء أهلي وأقاربي ..

فلما سمع «وحش الفلا» هذا ، وعرف أنها «شامة» بنت الملك «أفراح» الذي رباه وهو صغير مولود ، عزم على تخليصها بقوة الملك المعبود ..

وكان لهذه الحكاية أصل غريب ، ذلك أن الحكيم «سقرديون» لما رأى أن الملك «أفراح» قد عصى أمره ولم يقتل ابنته ولا الغلام «وحش الفلا» سار قاصداً مدينة «سيف أرعد» ليخبر أخاه «سقرديوس» .. فبينما هو سائر إذ وجد في طريقه كاهناً سحاراً يقال له «عبد نار» فأخبره بحاله وعزمه على أن يفرق بين الملك «أفراح» وبين ابنته ، خوفاً من أن تقترن الشامتان فتنتهي عبادة النجوم .. فتعهد الكاهن بتدبير الأمر ..

ودخل الكاهن مرصده ، وعزم وهمهم .. فخرج له مارد هائل المنظر .. فأمره الكاهن – وكان اسمه «المختطف» – أن يأسر «شامة»

بنت الملك «أفراح» على أن تكون له هدية ..

وأسرع «المختطف» إلى مدينة الدور ، وصرخ عليها صرخة اهتزت لها الجبال ، وأطلق بروقه وصواعقه .. فامتلأت المدينة بالرعب والخوف ، وأسرع الرجال إلى حيث المارد يسألونه عن مرامه ، فقال لهم :

ـ أريد منكم أن تزينوا «شامة» بنت الملك «أفراح» وتخرجوها في خيمة عظيمة خارج المدينة حتى أعود إليها غداً ، فآخذها لأتزوج بها ، وإلا خربت المدينة على رؤوسكم وأخذتها غصباً عنكم ، ثم تركهم ومضى .. ؟

وحمل الرجال هذه الرسالة إلى الملك «أفراح» وهم خائفون مرتجفون ، وحل الحزن بالملك «أفراح» كما حل بالمدينة كلها .. وأخذت أم «شامة» تلطم وجهها .. إلا أنهم لم يملكوا إلا أن ينفذوا ما أمر به المارد ، فألبسوا «شامة» وزينوها ، وفي خيمة مزينة خارج المدينة تركوها .. ووقف الأهل والأصحاب على أسوار المدينة يرقبون وهم يصيحون ويبكون .. !

° ° °

وما أن انتهت الملكة «شامة» من هذه الحكاية ، حتى علا الغبار المكان وتكدر الجو وأظلم ، وأقبل المارد فإذا به يجد «وحش الفلا» بجانب الملكة «شامة» ، فصاح صيحة مزعجة ارتجت لها الجبال والأودية ، ومد إلى «وحش الفلا» يده يريد أن يقتله .. فرفع «وحش الفلا» السوط ، وضرب يد «المختطف» فقطعها كأنه نشرها بمنشار .. !

فصرخ المارد من الألم ، وأخذ يده المقطوعة من الأرض ، ووضعها مكان القطع خوفاً من أن يخرج الدخان فيموت .. إذ ان الجن لا يسيل

لهم دم لأنهم خلقوا من النار .. ونشر المارد أجنحته وطار .. !

وضج أهل المدينة بالفرح والسرور ، وخرج الملك «أفراح» وهو ملهوف الفؤاد ووراءه جميع أهل دولته ، وهم يغنون ، وينشدون ، إلى أن وصلوا إلى خيمة الملكة «شامة» .. وأسرع الملك «أفراح» إلى «وحش الفلا» وقبله بين عينيه ، وشكره وأثنى عليه .. وعاد بهما إلى المدينة وأمر بإقامة الزينة والأفراح ..

وكان الحكيم «سقرديون» قد عاد من عند الكاهن المأفون ، فوجد المدينة وقد ازدانت .. وسمع أهلها يتحدثون بما فعل «وحش الفلا» مع المارد . فاغتاظ الحكيم «سقرديون» وملأ الحنق قلبه .. وأسرع إلى بيته وهو من حقده لا يكاد يرى ..

أفرد الملك «أفراح» لـ «وحش الفلا» جناحاً خاصاً في قصره ، وخلع عليه خلعة سنية . وأمر بذبح الذبائح ونصب الولائم ..

أما الملكة «شامة» فقد ظلت طول النهار تفكر في مخلصها من الدمار ، وتفكر كيف تلقاه وهي لا تجد سبيلاً إليه طول النهار .. فما أن أتى الليل ، حتى أسرعت إلى جناحه فسلمت عليه وجلست إلى جواره .. وظلا يتحادثان ساعة من الزمان ، وقد كشف كل منهما عما يحمل لصاحبه من الحب والغرام ، وقالت الملكة «شامة» :

ـ لقد صرت عتيقة سيفك ، وأمينة خوفك .. فإن كنت تحبني كما ذكرت ، فاذهب إلى الديوان واخطبني من أبي ..

فعزم «وحش الفلا» على تنفيذ ما قالت ، وقد زاد به الحب .. وظلا يتحادثان إلى الصباح ، فرجعت إلى حجرتها وقام «وحش الفلا» إلى الديوان ..

ولكن الحياء منع «وحش الفلا» من أن يفاتح الملك «أفراح»

في الأمر الذي اتفق عليه مع «شامة» فانفض الديوان وهو عاجز عن التبيان ..

° ° °

وما كاد الليل يأتي حتى أسرعت إليه الملكة «شامة» تلومه على حيائه وخجله ، وتحثه على التقدم بطلبه .. ثم قضيا الليلة في حديث عذب جميل ، ولم تتركه إلا في الصباح وقد أكدت عليه أن ينفذ ما اتفقا على تنفيذه ، ومضى «وحش الفلا» إلى الديوان وقد حزم أمره واستجمع عزمه .

وما أن انعقد الديوان ، حتى دخل «وحش الفلا» فقبل الأرض بين يدي الملك «أفراح» ودعا له بطول البقاء ودوام العز ، واستأذن في الكلام .. فأذن الملك ..

وقال «وحش الفلا» :

ـ جئتك خاطباً ، وفي كريمتك راغباً ، فلا تردني يا مولاي خائباً ..

وما أن سمع الحكيم «سقرديون» هذا الكلام حتى صار الضياء في وجهه ظلاماً ، ولطم بيده على رأسه ، فقال له الملك :

ـ ما الذي جرى أيها الحكيم .. ؟

قال «سقرديون» :

ـ هذا ما كنت أخاف منه .. فتى اقترنت الشامتان ببعضهما ، فأبشر بخراب الأرض وبانتهاء عبادة النجوم وزوال ملك الحبشة .

قال الملك :

ـ ماذا تقول يا حكيم الزمان .. كيف نرده وقد خلصها بالأمس من المارد ، وأبدل حزننا فرحاً وخوفنا أماناً ؟!

ـ نأخذه بالدهاء .. قل له أن أمرها بيد حكيمها ، فاخطبها منه واترك لي الأمر أدبره .. !

فالتفت الملك «أفراح» إلى «وحش الفلا» وأعلنه بترحيبه وأخبره أن أمرها بيد الحكيم .. فالتفت «وحش الفلا» إلى الحكيم يخطب «شامة» منه ، فقال «سقرديون» مخاتلاً مخادعاً :

ـ أبشر يا فارس الزمان ، إن «شامة» لك من جملة الجواري .. لا تتزوج بغيرك أبداً ، وزحل ينصرك على الأعداء .. ولكن أنت تعلم أن البنات لهن مهور غوال وخاصة بنات الملوك .

قال «وحش الفلا» :

ـ أطلب مني ما شئت أمام هؤلاء الرجال ، وكل ما طلبت يأتيك ويحضر بين يديك ..

ـ نحن يا بني لا نطلب منك مالاً ولا عطاء .. وإنما نطلب مهراً يليق بفارس . فمهرها أن تأتي إلى عندي برأس عبد يسمى «سعدون» الزنجي ..

ـ وأين مكانه وأنا آتيك برأسه .. ؟!

ـ إنه ساكن في قلعة تسمى قلعة الثّريا ، بيننا وبينها مسيرة ثلاثة أيام .

قال «وحش الفلا» .

ـ لك على ذلك .. وهذا عهد بيني وبينك يشهد عليه الحاضرون ..

٧

كتاب النيل

كان «وحش الفلا» يسير وحيداً ، وهو يذكر ما أخذ على نفسه من العهود .. ويردد بينه وبين نفسه أشد الأقسام أن يحقق غايته ويحصل على بغيته .. وإذ به يسمع صوتاً ينتزعه من أفكاره ويخرجه من أحلامه .. وكان الصوت يصيح بلهجة التهديد :

ـ إلى أين يا من جرؤت على السير وحيداً في هذا الوادي ؟ .. أبشر بهلاكك ، فقد حل موعد فنائك ..

ولمح «وحش الفلا» فارساً يقبل عليه من بعيد ، وقد رفع رمحه وأطبق درعه ، والغبار يثور من تحت سنابك جواده .. والشر يلوح من صرخاته .. فاستعد «وحش الفلا» للقائه وتأهب لصدامه . وسرعان ما اشتبك الفارسان مع بعضهما ، وتطاعنا بالرماح ، ثم تضاربا بالسيوف وقد انعقد الغبار عليهما وعلت صيحاتهما .. وطال الأمر على «وحش الفلا» فأخذه الغضب .. وسرعان ما صرخ في غريمه صرخة عظيمة اهتزت لها الجبال والتلال ، وضربه بعقب الرمح في صدره فقلبه عن جواده ، ونزل عن جواده منقضاً عليه مشهراً خنجره في يده يريد أن يذبحه .. فإذا بغريمه يصيح به :

ـ امسك يدك أيها الفارس الصنديد قبل أن تندم حيث لا ينفع الندم .

وحيرت الصيحة «وحش الفلا» .. وأحس أنه يعرف الصوت ويألفه ، فمد يده يرفع اللثام عن وجه غريمه .. وإذ بوجه كالقمر ينير من تحت اللثام .. وضحك صاحب الوجه وقال :

– نعم يا فارس الزمان .. أنا «شامة» بنت الملك «أفراح» جئت أطمئن عليك ، وأختبر قوتك ..

وتحولت الدهشة في صدر «وحش الفلا» إلى فرحة غامرة ، فأخذ بيد حبيبته ونفسه بالبشر عامرة .. وجلسا يتجاذبان الحديث ويتطارحان الهوى .. ثم نبهته «شامة» إلى أن الوقت يفوت ... وعادا يقطعان عهود الوفاء والمحبة .. ثم غادرها «وحش الفلا» وفي قلبه من فراقها غصة .. ومضى في طريقه .. وتركها تعود إلى المدينة والأهل ..

° ° °

ظل «وحش الفلا» يسير وحيداً حتى أشرف على قلعة عالية الأسوار مقفلة الأبواب ، وكان الليل قد لف الدنيا بالظلام ، فوقف محتاراً لا يدري ماذا يفعل .. وإذ به يسمع صوت خيل تصهل ، وأحس بحركة قافلة تقبل من أعماق الظلام وتتجه إلى باب القلعة .. فاختفى خلف أكمة عالية ومضى يرقب ما يحدث . وسرعان ما حاذاه الركب ، فإذا بعشرين من الرجال الأشداء يقودون قافلة منهوبة وأموالاً مغصوبة وقد ربطوا الرجال على خيولهم بالحبال واتجهوا جميعاً إلى باب القلعة .. فأسرع «وحش الفلا» يختلط بهم ، ثم فتح لهم الباب واجتازوا إلى وسط الساحة فأنزلوا الأحمال والرجال المقيدين ، ثم صعدوا إلى القلعة .. وانتظر «وحش الفلا» فلم ينزل أحد منهم .. فحزم أمره ، وشرع الحسام في يده ، ثم تقدم إلى درج القلعة ليصعد إليهم ، ويقضي عليهم .. وما كاد يضع قدمه على أول درجة حتى زاغت من تحته ،

فنزل يهوي إلى جب عميق فأيقن بالهلاك واستعد لمجابهة الموت .. وإذ به يسمع صوتاً يناديه بالأمان ويبشره بالخلاص، ويقول :

ـ لا بأس عليك يا بطل الزمان ..

وعرف في الصوت ، صوت «شامة» ، فامتلأ قلبه بالفرح والبشر وأسرعت تمد له يدها وتعينه على الخروج من مأزقه .. ثم قالت له :

ـ لقد تبعت أثرك بعد أن تركتك ، وقد اشتعل قلبي خوفاً عليك ودخلت مثلك وسط القافلة المأسورة ثم وقفت أراقبك فرأيتك تقع في هذا الفخ المنصوب .. ورأيي أن تجس كل درجة قبل أن تصعد عليها خوفاً من فخاخ أخرى ..

فجعل «وحش الفلا» السيف في يده ، وذبابته إلى أعلى ورأسه إلى أسفل .. وصار يجس به الدرج ، ويدق عليها واحدة واحدة حتى وصل إلى رأس السلم ، فإذا بالدرجة تتحرك حين جسها بسيفه ، فالتفت إلى «شامة» وقال لها :

ـ فخ في أعلى ، وفخ في أسفل ، ونحن في الوسط لا نستطيع حراكاً .

فقالت «شامة» :

ـ وهل تعوقك هذه الألاعيب ، ما هي إلا عبث أطفال .. ألا تستطيع أن تعتمد بيديك على الحائط ثم تنقلب فتصير في الدهليز ؟!

وأعجبته فكرتها ، وسرعان ما نفذها ، وتبعته «شامة» فإذا بها إلى جواره .. ورأى «وحش الفلا» باب القصر أمامه وله مصراعان ، أحدهما مقفول ، والثاني مفتوح يبدو من خلاله النور .. فاختبأ «وحش الفلا» خلف المصراع المقفول ، ونظر بعينيه فرأى ثمانين رجلاً من أقوى الرجال وأمامهم فارس مهول ، وهو يصيح فيهم قائلاً :

ـ هل أحكمتم وثاق الأسرى ؟ .. إني أخاف أن يفلت أحدهم

فيفك وثاق الآخرين .. فليذهب أحدكم إليهم ويطمئن عليهم ..

قفز أحد الرجال واقفاً وشرع سيفه ، واتجه إلى دهليز القلعة .. وكان «وحش الفلا» مستعداً للقائه ، فما أن ابتعد عن الباب حتى بادره بضربة قاضية من سيفه قضت عليه في الحال ، وسحبته «شامة» إلى جوار الحائط ..

وأبطأ الرجل على «سعدون» فصار من الغضب كالمجنون ، وأمر آخر أن يذهب ليرى ماذا حل به .. وكان «وحش الفلا» في انتظاره فألحقه بأخيه .. وحين أبطأ الرجل الثاني على «سعدون» هاج وماج وشرع سيفه في يده وقد أحس أن خطراً يحدق به .. وأمر الرجال أن يتبعوه وأن يوقدوا الشموع وينيروا الدهليز .. وعرف «وحش الفلا» ما ينتظره من أخطار إذا ما وقعت عليه عيون الرجال .. فشرع سيفه ووقف في وسط الدهليز .. وما أن أقبل الرجال حتى أخافهم منظره وضوء الشموع ينعكس على حد سيفه ، وهو كأنه رسول الموت إليهم .. ورآه «سعدون» فصاح في رجاله :

ـ لا يتقدم أحد منكم حتى أرى أمر هذا الرجل الغريب الذي تجاسر واقتحم علينا القلعة دون أن يخاف من قوتي أو يأبه لسطوتي .. وأنت أيها الفارس المغتر بقوته سأعلمك كيف تحترم حرمة الرجال ، ولا تتجرأ على سيد الفرسان ..

ولم يمهله «وحش الفلا» فما كاد يتم كلامه حتى أطبق عليه بحسامه .. ورد «سعدون» ضرباته بمهارة .. ثم بدآ يصولان ويجولان وهما يدهشان الرجال بما يبديان من فنون القتال وحيل الطعن والنزال .. وطال بهما الأمر حتى حل بهما التعب ، وزاد عليهما النصب .. وعزم كل منهما على القضاء على خصمه بطعنة نجلاء .. واختلفت بينهما

الطعنتان ، وكان السابق بالطعنة «سعدون» ولمحت «شامة» السيف وهو يكاد يهوي على حبيبها ، فأمسكت خنجرها من قبضته وأطلقته وقد وجهت ذبابته إلى ساعد «سعدون» فسقط السيف من يده ، وكان «وحش الفلا» قد نزل عليه بسيفه – وقد انكشف له غريمه فأمسك عن طعنه ، والتفت إلى «شامة» قائلاً :

ـ لا شلت يداك يا «شامة» ..

ثم التفت إلى «سعدون» قائلاً :

ـ خذ سيفك يا «سعدون» وقاتل به ، ولا تقل «وحش الفلا» أخذني غدراً ..

فقال له «سعدون» :

ـ يا بطل الزمان .. عندما أعدت سيفك إلى جانبك التفت وراءك وتحدثت .. فمن كنت تخاطب ؟

ـ وما شأنك أنت يا «سعدون» ؟ .. لقد كنت أخاطب الملكة «شامة» بنت الملك «أفراح» التي جئت هنا لأحصل على رأسك مهراً لها ..

ـ رأسي ؟ ألهذا السبب تجرأت على قلعتي ؟ .. قل لها أن تدخل لأرى من هي تلك التي يوضع رأسي مهراً لها ..

فصاح «وحش الفلا» طالباً من «شامة» الدخول ، فدخلت الدهليز ، وبهر جمالها «سعدون» فقال لها :

ـ ضاقت الدنيا على أبيك حتى لا يطلب مهرك إلا رأسي .. ؟ ولكن لأجل مثلك تهون الرؤوس ، ولأجل هذا الفارس الذي قد روعنا ، ورفض أن يغدر ويخون .. وأنت يا فارس الزمان ، صار قتالك حراماً فافعل بي ما تشاء ، واخرج سالماً أنت وزوجك من قلعتي ..

ـ أنا لا أعود إلا برأسك مهراً لها ..

ـ إذن .. هيا بنا إلى خارج القلعة ، ولنتصارع ثلاث مرات .. فمن غلب كان الحاكم في أمر صاحبه يفعل به ما يشاء ..

فوافق «وحش الفلا» .. وخرج الجميع إلى الساحة الأمامية للقلعة ، والرجال ينيرون المكان بشموعهم ، و «سعدون» قد استهان بالغلام لنحافته وصغر حجمه ، ومنى نفسه بالنصر عليه .

وما أن وصلا إلى الساحة الخارجية حتى أطبق كل منهما على الآخر .. وأسرع «سعدون» يمسك «وحش الفلا» من جنبيه ويرفعه عن الأرض ثم يلقيه بكل قوته ، فإذ بـ «وحش الفلا» ينزل واقفاً على قدميه .. ثم يهجم على «سعدون» ويلف يده على رقبته ، ويمكنها من اذنه ويضغط عليها بكل قوته ، فإذ بـ «سعدون» يهوي إلى الأرض وقد شلت حركته .. وسرعان ما برك «وحش الفلا» على كتفيه وسحب خنجره ، وأراد أن يقطع رأسه .. فقال «سعدون» :

ـ ارفع يدك حتى لا تندم .. هذه واحدة وبقيت مرتان ..

فخجل «وحش الفلا» وقام يعيد خنجره إلى قرابه ، وسرعان ما وقف «سعدون» على قدميه ، وعادا يتشابكان ويتلاكمان ويتصارعان . ولكن «وحش الفلا» غلبه في المرة الثانية ، ثم عادا إلى القتال من جديد وقد أخذ «وحش الفلا» يحس بالتعب من مجالدة هذا الوحش الكاسر .. فأراد أن يسرع بالانتهاء من الصراع قبل أن تخذله قوته ، فمد يده إلى عنق «سعدون» وأطبق عليها بكل قوته ، فوقع «سعدون» على الأرض ... وسرعان ما رقد «وحش الفلا» فوقه وسل خنجره ، وقال «سعدون» :

ـ أتريد أيها الفارس البطل أن تذبحني ذبح البقر .. ؟

فتركه «وحش الفلا» ووقف ، وقام «سعدون» ثم جلس راكعاً

وقد مد يديه من خلف ظهره وطأطأ برأسه ، وقال له :

ـ اضرب رأسي هكذا .. وأحكم ضربتك ..

وخجل «وحش الفلا» من «سعدون» فرمى بسيفه ، وأقبل إلى رأس «سعدون» يقبلها ويقول :

ـ ليس مثلك من يموت هكذا أيها الفارس الصنديد .

فهب «سعدون» من ركوعه ، وهو لا يصدق أذنيه ، واحتضن «وحش الفلا» بين يديه ، وقبله بين عينيه .. وقد صفت بينهما القلوب ، وزال الغل ، وانتفت الأحقاد . وأمر رجاله أن يفتحوا أبواب القلعة ويعدوا الطعام ويقدموا الشراب .. وأكرم «وحش الفلا» و «شامة» مدة ثلاثة أيام .. ولما كان اليوم الرابع استأذن «وحش الفلا» في الرحيل فقال له «سعدون» :

ـ خذني معك أيها البطل الهمام أسير في ركابك أنا ورجالي ... أو إقطع رأسي لتعود بها ..

قال له «وحش الفلا» :

ـ مثلك نادر بين الرجال .. وقد أكلنا سوياً زاداً لا يخونه إلا كل غدار .. ولكن يا «سعدون» أطلق سراح هؤلاء الرجال ، ورد عليهم أموالهم وعتادهم ... وإن شئت أن تصحبني فعلى الرحب والسعة ..

* * *

كان الملك «أفراح» في مجلسه ، وقد جلس إلى جواره «سقرديون» يتبادلان الحديث ، وقال الملك «أفراح» :

ـ ترى ماذا حل بـ «وحش الفلا» مع «سعدون» .. ؟

قال «سقرديون» :

ـ لا تفكر في «وحش الفلا» مرة أخرى ، فلا بد أنه قد لقي

حتفه على يد «سعدون» ورجاله ..

وعندما أتـى الصباح إذ بالقصر يمتلىء بالصياح ، وأقبل الحجاب يخبرون الملك أن عسكراً يلوح متجهاً إلى المدينة .. فخرج الملك «أفراح» والحكيم «سقرديون» يستطلعان الأمر .. ومن بعيد لاح لهما موكب كبير يتوسطه فارسان أحدهما أطول من باقي الرجال بذراع .. وظل الملك متحيراً في أمر هذا الفارس حتى اقترب منهما الركب فإذ به يعرفه ، فركبه الهم لوقته وقال :

ـ هذا نتيجة تدبيرك يا «سقرديون» .. هذا «سعدون» يقبل علينا وسط رجاله كالمجنون .. وما أظن إلا أن «وحش الفلا» أخبره بأننا طلبنا رأسه مهراً لـ «شامة» ، وأحسب أنه قتل «وحش الفلا» وجاء إلينا برجاله لينتقم منا شر انتقام ، ولسنا نقدر على نزاله ولا نحن نستطيع قتاله .

ثم لوى عنق جواده وأسرع إلى مدينته ، ووراءه الحكيم «سقرديون» وعسكره ورجاله .. وأغلقوا أبواب المدينة ووقفوا على الأسوار ، وقد أيقنوا جميعاً بالهلاك تحت رماح «سعدون» ورجاله ..

° ° °

عندما أوشك الركب أن يصل إلى المدينة تركتهم «شامة» وتسللت وحدها دون أن يراها أحد .. وظل الركب في سيره حتى وصل إلى باب المدينة فرأى الملك «أفراح» «وحش الفلا» راكباً إلى جوار «سعدون» .. فاطمأن باله وأمر بفتح باب المدينة .. وازدحم أهل المدينة من رُجال ونساء وأطفال ، يتفرجون على «سعدون» ورجاله وقد عقد الخوف ألسنتهم ، فوقفوا ساكتين كأن على رؤوسهم الطير .. وواصل «سعدون» و «وحش الفلا» والرجال سيرهم حتى قصر الملك «أفراح» ، فخرج للقائهم ، وصحبهم حتى قاعة عرشه ، وأمرهم بالجلوس من حوله ..

فجلس «وحش الفلا» .. أما «سعدون» فقد رفض الجلوس وهو يقول .

ـ هل ضاقت عليك الدنيا فلم تجد مهراً لابنتك سوى رأسي أنا .. ؟

قال الملك «أفراح» وهو يشير بعينيه إلى «سقرديون» .

ـ يا بطل الزمان أنا لا دخل لي في هذا الأمر كله ..

فقال «سقرديون» .

ـ لا داعي لأن تتغامز عليّ يا ملك «أفراح» فنحن ما دبرنا هذا إلا لنرى الفارس العظيم «سعدون» الشهير .. أما وقد جاء فقد قبلنا هذا مهراً من «وحش الفلا» .. والآن لنأمر بالطعام والشراب فهذا وقت الأفراح ..

وجلسوا إلى الطعام يتبادلون الحديث والكلام .. ثم قام «سعدون» ورجاله ، وكذلك «وحش الفلا» إلى مخيمهم ليناموا .

° ° °

وفي الصباح اتجه «وحش الفلا» إلى الديوان ، وقبل الأرض بين يدي الملك ثم طلب منه الإذن بزواجه من «شامة» فالتفت الملك إلى «سقرديون» الذي سكت قليلاً ثم قال :

ـ يا بطل الأبطال نحن طلبنا منك المهر فجئتنا به وبقي الحلوان .. والحلوان هو أن تأتينا بكتاب النيل ..

ـ وأين يوجد هذا الكتاب .. ؟

ـ أنا يا بني لا أعلم .. ولكن وحق زحل في علاه إن لم تأتني بهذا الكتاب فليس لك عندي زواج ..

فأقسم «وحش الفلا» أن يأتيه بكتاب النيل . وقد امتلأ قلبه بالغصص ، وحل فيه الحزن بدلاً من الفرح .. وأسرع يلقى «سعدون» ليخبره بعزمه على الرحيل بحثاً عن كتاب النيل ..

٨

نور الإيمان

سار «وحش الفلا» وحيداً مستوحشاً بين الصحارى والآكام ستين يوماً كاملة ، وقد أخذ منه التعب مأخذه ، ونال منه الإجهاد مناله .. وكان في اليوم الستين يسير الهوينا بجواده ، وقد خاف عليه من الموت وهو يذكر ليلته الأخيرة في مدينة الدور ، وكيف أرادت «شامة» أن تضرب برأي أبيها عرض الحائط ، وتصحبه دون موافقته أو موافقة الحكيم «سقرديون» وكيف قال لها :

ـ نحن قوم عرب إذا وعدنا وفينا ، وإذا قدرنا عفونا ، وإذا قلنا «لا» لا نقول «نعم» ..

وملأ الحزن قلبه وهو يذكر وداعهما ليلة الرحيل ، ويذكر محاولة «سعدون» أن يصحبه في الطريق ، وكيف وعده «سعدون» أن يفديها بحياته ..

ورفع «وحش الفلا» رأسه ، وهو يبعد عن نفسه هذه الذكريات فلمح من بعيد جبلاً عالياً وإلى جانبه صومعة .. فوخذ جواده يستحثه على الإسراع ، واتجه إلى حيث الصومعة . وما أن وصل إليها حتى سمع صوت إنسان يذكر الله ويردد له الدعاء .. فاقترب من الباب وصاح بشاغل المكان بالتحية والسلام ، وصمت الصوت لحظة ثم قال :

ـ أهلاً وسهلاً بملك اليمن وغيرها من ملك الله ، الملك «سيف بن ذي يزن» .. انزل يا ملك من فوق الحصان ، واصعد عندي واتركه يرعى من نعم الله ، فقد ظل يحملك شهرين كاملين دون راحة ..

فاندهش «وحش الفلا» ولكنه أطاع ، وصعد إلى ساكن الصومعة وهو يقول :

ـ لمن تقول هذا القول يا عمي وأنا اسمي «وحش الفلا» ؟ ..

ـ هذا يا بني اسم سماك به الملك «أفراح» .. أما اسمك الحقيقي فهو سيف من عند الملك الفتاح لتؤيد دين الإسلام ، وتقضي على الكفر وعبادة النجوم والأوثان .. وقد آن الأوان لتعرف اسمك ونسبك ، ولتعلن عبادتك لله الواحد القهار دون ما يعبده أهل النار من إفك وبهتان .. فقل يا بني : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن إبراهيم خليل الله ، وأن محمداً رسول الله الذي يأتي في آخر الزمان ..

وأشرق في قلب «وحش الفلا» نور الإيمان ، فأسلم قياده للشيخ «جياد» يعلمه الدين والصلاة .. وحكى له حكايته من بدايتها حتى أسره لـ «سعدون» مهراً لـ «شامة» ثم ما طلبه «سقرديون» من حلوان ..

فقال الشيخ «جياد» :

ـ وأنت لو طفت الدنيا من الشرق إلى الغرب لن تعرف طريق هذا الكتاب إلا بإذن الله . وقد شاء الله سعدك ، إذ أدخلك في دينه ، وأوجب عليّ مساعدتك .. فاسمع مني .. اقض ليلك معي هنا ، وفي الصباح تكون قد استرحت من عناء الرحلة ومشقة السفر .. فامض إلى هذا الجبل فاصعده وانزل من الجانب الآخر تجد بحراً جارياً ، فاجعله إلى يسارك وسر أنت إلى اليمين .. فإذا عطشت فاشرب من الماء وإن جعت فكل من الخضرة .. وواصل سيرك ثلاثة أيام حتى تصل

إلى أرض بطحاء متسعة بها بحر واسع .. فقف على شاطئ البحر إلى وقت الغروب تلقاك دابة من دواب البحر ، تأتي وهي ناظرة للشمس وراءها تروم أن تخطفها .. وعند الغروب يدركها النوم فتنام إلى شروق الشمس ، ثم تستيقظ فتجد الشمس قد ظهرت من الشرق فتمشي إليها تريد خطفها ، فتكون الشمس قد ارتفعت وتدور معها وهي ناظرة إليها إلى أن تغرب .. فإذا وصلت إليها فاصعد على ظهرها - أو أي مكان شئت من جسدها - فهي لا تحس بك ، حتى تصل بك إلى البر الثاني .. فليس لك وسيلة للوصول إليه إلا هذه الوسيلة ، فسبحان من دبر الأمر والحيلة .. فإذا ما وصلت إلى البر الثاني ، فستجد من هي في انتظارك .

قال الملك «سيف» :

- ومن هي تلك التي في انتظاري ؟

- كل شيء يعلن في حينه .. وكل الأسباب توضع لك لتحارب الكفار وتنتصر عليهم ..

وقضى الملك «سيف» ليلته مع الشيخ «جياد» وفي الصباح ودعه وسار في سبيله بعد أن ترك جواده عنده يرعى أمام الصومعة .. وظل في طريقه حتى وصل إلى البحر الواسع بعد ثلاثة أيام من السير المتواصل .. وهناك رأى الدابة البحرية التي أخبره عنها الشيخ «جياد» تنام على الشاطئ ، فتسلل وهو يذكر الله إلى أن جلس بين أرياشها وهي لا تحس به .. وما أن أصبح الصباح حتى رفعت الدابة رأسها تروم أن تخطف الشمس ، وتحركت إلى أن وصلت إلى البر الثاني ، فوثب من فوقها وهو يتعجب من كبر حجمها ..

° ° °

ظل الملك «سيف» يسير في طريقه ، وهو غارق في أفكاره ، إلا أنه لمح من بعيد غبرة ثائرة سرعان ما تكشفت عن فارس قد اختفى جسده كله في الحديد ، واختفى وجهه وراء لثام .. وما أن اقترب منه الفارس حتى صاح فيه :

ـ قف يا هذا ، واعلم أن هذا اليوم آخر زمانك ونهاية أيامك...

ولم يرد «سيف» عليه ، كما لم يعبأ بحملاته وضرباته .. بل وقف وهو يردها بسيفه في سهولة ويسر ، سرعان ما أحس الفارس بالإجهاد كما نضح جواده بالعرق من طول الكر والفر .. فوقف لاهثاً وهو يقول :

ـ ألا تهاجمني يا فتى مثلما أهاجمك .. ؟

قال «سيف» :

ـ إني يا فتى أراك غير أهل للقتال ، ولو كنت من أرباب الحرب ما كنت تهاجمني وأنت راكب وأنا ماش على الأقدام .. ومثلك لا يحاربه الرجال بالسيف والحراب وإنما أنا أريك قدر الرجال .. فهم يفعلون هكذا بمثلك من المغرورين ..

ومد «سيف» يده يمسك عنق الجواد ، ورفع باليسرى الفارس عن ظهره ، ثم وضعه كما كان وسط سرج الجواد ، وانبهر الفارس وقال لاهثاً :

ـ صدقت يا ملك ملوك اليمن : ومبيد أهل الكفر والمحن ، ومطهر الأرض من الكهانة والفتن .. إنك ولا شك «سيف بن ذي يزن» ..

وعجب «سيف» أن يعرف الفارس اسمه ، فسأله عن سر معرفته به ، فقال الفارس :

ـ إنني أيها الملك ما جئت إلى هذه القفار إلا خوفاً عليك ، وأنا من ربات الحجال .. فأنا الملكة «طامة» وأمي حكيمة كاهنة اسمها

الحكيمة «عاقلة» وحكايتي معك غريبة ، فإنني عندما كبرت سألت أمي ان تضرب الرمل لتعرف من أتزوج من الرجال ، فقالت إن زوجك من بلاد اليمن هو الملك «سيف بن ذي يزن» وإنه يأتي إلى بلادنا في طلب كتاب تاريــخ النيل حلواناً لـ «شامة» بنت الملك «أفــراح» وأنا التي أساعده حتى يتزوجك .. ومن يوم سرت في طلب «سعدون» وأمي تحكي أخبارك لي أولاً بأول ، حتى أخبرتني بالأمس أنك على ظهر الدابة في طريقك إلى هذا المكان .. فسرت إليك لأنجيك من الأرصاد التي تحمي المدينة ، وأمي هي التي أمرتني أن أهاجمك بالسيف حتى تمسك الحصان بيدك اليمنى وترفعني عن السرج بيدك اليسرى ، فأعرف أنك الملك المطلوب ..

وكان «سيف» يسمع حكايتها ، وهو مندهش من غرابتها ، فقاطعها قائلاً :

لست أظنك أيها الفارس إلا كاذباً خفت على حياتك عندما انهزمت ، فاخترعت هذه الحكاية .. !

ولم ترد عليه «طامة» ولكنها مدت يدها إلى اللثام فرفعته عن وجهها ، فنظر من تحته وجهاً كأنه البدر التمام .. وبهر جمالها الملك «سيف» وقال لها :

ـ أعيدي لثامك يا ربة الحسن والجمال وقد صدقتك .. ولكن مم تريد أمك الحكيمة «عاقلة» أن تنجيني ؟

ـ إن ملك المدينة «قمرون» وأهل مدينة قيمر يعبدون الكتاب .. ولهذا فقد صنعوا بالحكمة والسحر أرصاداً حول مدينتهم ، فما إن يدخل غريب حتى تصيح عليه الأرصاد فيدركه أهل المدينة ، ويدلهم عليه إنسان من الرصد اسمه الغماز صنعه الحكماء المتقدمون ..

ـ هذا حقاً شيء يحير الألباب .. وكيف إذن أستطيع الدخول إلى المدينة .. !

ـ سأسير بك حتى البرج العاشر من سور المدينة ، وستنتظرنا أمي في أعلاه ، ثم تدلي إليك بصندوق مربوط بحبال وبكر ترفعك به من فوق سور المدينة ..

٩

في أعماق الجب

كان الملك «سيف» يجلس مع الحكيمة «عاقلة» وابنتها الملكة «طامة» في حديث عذب وكلام شهي – وقد اطمأن به المكان – حين سمعوا صياح الرجال والنساء وهرجاً وجلبة ، والتفتت الحكيمة «عاقلة» وقالت له :

ـ لا بد أن الغماز قد حكى عنك فأمر الملك «قمرون» بالتفتيش عليك .. وفي هذه المدينة ثلثمائة وستون حكيماً – وأنا رئيستهم – ولا بد أن يحاولوا عن طريق الحكمة أن يعرفوا مكانك ، ولكنك لو أطعتني سأساعدك في التغلب عليهم والهروب منهم والحصول على كتاب النيل .

وأبدى الملك «سيف» ثقته فيها ، واستعداده لتنفيذ كل ما تطلب فأمرت الحكيمة «عاقلة» ابنتها «طامة» أن تحضر سمكة من جارهم الصياد ، وأن توهمه أنها لطعام ضيوف عندها .. واشترت «طامة» السمكة وعادت بها إلى أمها التي فتحت بطنها وسلخت جلدها ، ولفت الملك «سيف» في جلدها ، وتركت رأسه ورقبته ، ثم شقت صدر طائر كان عندها ووضعت رجليه على أكتاف «سيف» بينما جعلت يدي «سيف» من داخل صدر الطائر .. وبعد أن أحكمت رباط كل هذا ، ربطت الجميع بحبل طويل ، ودلت «سيف» وهو على هذا الحال

في بئر في بيتها ، وأمرت ابنتها أن تظل معه في البيت إلى أن تعود إليها .. ثم ركبت بغلتها بعد أن أغلقت الباب عليهما ، وسارت إلى ديوان الملك « قمرون » .. وما أن رآها الملك « قمرون » حتى قام ورحب بها ، وأخبرها أن الغماز قد انكسرت رقبته بعد أن أدى غايته ، وكشف عن دخول الغريب إلى المدينة ، وأنه طلب الحكماء ليعرف منهم مكان هذا الغريب .. وما أن جاء الحكماء حتى أمر الملك بإيحاء من « عاقلة » بانسحاب ثلثمائة حكيم ، وترك ستين منهم ليضربوا تحت الرمل ويعرفوا مكان الغريم .. وضرب الحكماء تحت الرمل ، وقالوا للملك :

ـ إن الغريم الذي دخل إلى البلد كان في صندوق من الخشب ، وطار به الصندوق حتى رماه في المدينة .. فابتلعته سمكة ، وانقض عليه طير فصار ثلثا جثته في بطن السمكة ، والثلث الثالث قبض عليه الطير ، والسمكة واقفة في الماء ، والطير معلق فوقها ..

وثار الملك ، وأرغى وأزبد ، والتفت للحكيمة « عاقلة » وقال لها

ـ هل سمعت هذا الكلام ؟ .. هل فهمت شيئاً .. ؟

ـ لا تغضب يا ملك الزمان واتركهم إلى الغد .. أما أنتم يا أولادي الحكماء ، ألم أنهكم عن أكل المغلظات فهي تضع حجاباً بين العقل وبين الحكمة ؟ .. وعلى أي حال استريحوا اليوم ونلتقي غداً ..

وفي اليوم التالي ، أحضرت الحكيمة غزالاً ، وجاءت بأجنحة الطائر فربطتها منشورة كأنها تطير ، وجعلتها على ظهر ذلك الغزال مثبتة في عصا ، وربطت العصا من وسطها في طرف حبل وجعلت الطرف الثاني في بكرة .. وسحبت ذلك الحبل فصعد ذلك الغزال إلى أعلى المكان ، وجاءت بلوح خشب وأمرت الملك « سيف » أن ينام فوقه ورفعته إلى أن أصبح في بطن الغزال .. ثم تركته على هذا الحال ،

وتركت «طامة» معه ، وركبت بغلتها إلى الديوان . ووجدت هناك الحكماء وهم يجتهدون في ضرب الرمل أمام الملك «قمرون» .. وقد أصابهم البلبال يغيرون ويعيدون حتى ضاق الملك بهم ، وصاح فيهم في غضب :

ـ ماذا رأيتم في رملكم يا كلاب الحكماء .. ؟

فقالوا له إن الغريم كان بالأمس في صندوق من الخشب ، وقد بلعته السمكة وانقض عليه الطير .. أما الآن فقد أخذه وحش من وحوش البر ، وطار به عن الأرض متجهاً إلى السماء .. وما أن سمع الملك هذا الكلام ، حتى طاش عقله وأصبح يردد كالمذهول :

ـ هل سمع أحد مثل هذا الكلام ؟ .. هل هناك وحش من وحوش البر يخطف آدمياً ويطير به في السماء ..

وأخرج سيفه ، وقد اشتد به الغضب ، وأطاح برأس أقرب الحكماء إليه .. وضرب الثاني فقسمه نصفين ، وضرب الثالث فألحقه بأخويه .. والحكماء يجرون من أمامه ، وهو وراءهم يضرب فيهم بسيفه حتى اختفوا من أمامه وهم يرتجفون ، وعاد وهو يقول للحكيمة «عاقلة» :

ـ أهذا هو جهد الحكماء ؟ .. هل يدخل غريب بلدنا ليسرق معبودنا كتاب النيل ، وأنت ساكتة مكتوفة اليدين .. فقالت الحكيمة «عاقلة» :

ـ أنا لست عاجزة عن إدراك الغريم .. ولو شئت لأحضرته بين يديك ، ولكني أردت أن أختبر الحكماء لأعرف مدى صلاحهم .. وقد أصابني الغم لسوء فهمهم وقلة حيلتهم . وغداة غد أحضر لك الغريم ، وأسلمه بين يديك لتفعل به ما تشاء ..

° ° °

قالت الحكيمة «عاقلة» للملك «سيف» :

ـ لقد استطعت الآن أن أخذل كل الحكماء .. ولم يعد الملك «قمرون» يثق في واحد منهم ، وأصبح كل اعتماده عليّ .. وسأحاول أن أصرفه عنك وأنسيه أمرك ، ثم أحصل أنا لك على كتاب النيل ، وتسافر من هنا بسلام إرضاء لحب ابنتي «طامة» لك ، وحتى تتزوجها بعد زواجك من الملكة «شامة» ..

قال «سيف» :

ـ كل شيء إنما يتم بأمر الله .. ولكني يا حكيمة أريد أن أرى كيف يعبد أهل مدينتكم هذا الكتاب .. ؟

وحاولت الحكيمة «عاقلة» أن تثني الملك «سيف» عن عزمه ، وهي تذكر له ما يحف بهذا الأمر من أخطار .. ولكنه أصر على ما يريد ، وعندما رأت الحكيمة عناده ، أمرته أن يخلع ثيابه ، وأن يدهن جسده بدهان أحمر جاءت به فإذا به حبشي اللون .. ثم ألبسته ثياب أحد غلمانها ، وأعطته حقيبة حكمتها ، وأمرته أن يحملها على كتفه ويسير وراءها حتى لا يشك أحد فيه .. ثم قامت وركبت على بغلتها ، وهو يسير بالحقيبة يتبعها ، حتى وصلت إلى الديوان وحيت الملك بالسلام ، وجلسَت في مرتبتها من الديوان ، وقالت للملك «قمرون» :

ـ والآن وقد عجز الحكماء أضرب أمامك تحت الرمل ، وأعرف لك مكان الغريم ..

وكان الملك «قمرون» مضطرب البال ، مشتت البلبال ، محتار الفؤاد .. فنظر إلى فعلها باهتمام .. فإذا بها تنادي على الغلام وتأخذ منه

الحقيبة ، وتضرب تحت رملها وهي تتأمل فيه وتترجم معانيه ، ثم تبتسم وتقول له :

ـ اعلم أيها الملك السعيد .. اعلم أن ذلك الغريم الذي دخل بلادنا خاف لما عرف بأمر ما حل بالحكماء فهرب ..

واشتد غضب الملك «قمرون» .. ولم يحس قلبه بالراحه لما قالته الحكيمة «عاقلة» .. وقال لها :

ـ ما هذا الكلام ؟ .. إنني أعلم والحكماء يعلمون أن من دخل مدينتنا ووشى به الغماز ، فارس نبيل ضمن أن يأخذ كتاب النيل وأنه لن يخرج من مدينتنا إلا به ..

ـ ولكن الرمل يقول انه هرب .. !

ـ إذن ، لا بد أنه أخذ معه كتاب النيل إن صدق ما يحكيه لك الرمل .. فهيا بنا إلى القبة لنفتحها ، ونطمئن على وجود الكتاب بداخلها ، وأنه لم يسرق من صندوقه .. !

وكان «سيف» يسمع هذا الكلام وقلبه منقبض ، وإحساسه بالضيق يتزايد .. وإذ بالملك يقوم ومعه حاشيته ، وتبعه الحراس والحكماء وأمامهم الحكيمة «عاقلة» .. واقتربت منه الحكيمة في غفلة من العيون ، وهمست له :

ـ إياك أن تدخل القبة معنا ، فإن الكتاب مرصود باسمك .. فإن دخلت القبة دار الصندوق ثلاث دورات ، وارتمى الكتاب تحت قدميك ، فيعرفون مكانك ويقتلونك بسيوفهم وأنت وحيد .. !

ولم يستطع «سيف» أن يرد عليها ، إذ كان الموكب قد وصل المعبد الكبير .. وقد ازدحم حول الموكب جمع غفير من أهل المدينة .. وظل «سيف» عند الباب حتى وصل الملك والحكيمة إلى القبة وفتحا

الصندوق ، وإذ بهم جميعاً يخرون ساجدين .. الجند ، والعسكر وأهل المدينة وأولهم الملك «قمرون» والحكيمة .. وأحس «سيف» بدنوه من نهاية غربته وتشريده ، وبوجود الهدف أمامه دون عائق .. فتحرك متخطياً الرؤوس الراكعة متجهاً إلى حيث الكتاب .. وإذا بصوت كالرعد يدوي في المعبد كله ، وإذ بالصندوق يدور ثلاث دورات فوق قاعدته ، والكتاب ينحدر من مكانه ليستقر تحت قدمي الملك «سيف» ..

وأصاب الجميع الوجوم والذهول ، إلا أن الملك «قمرون» هب من سجوده ، وامتشق سيفه وهو يقول :

ـ ها قد ظهر الغريم ، خذوه ، وبأسيافكم مزقوه .. !

ونظر «سيف» إلى حاجب قد أقبل عليه وبيده حسام ، فصرخ في وجهه ولكمه في صدره ، فألقاه وأخذ منه الحسام .. ومضى يدافع عن نفسه في عزم وصبر واستبسال .. وكلما انقض عليه قوم فضهم بقوة ساعده ، وثبات جنانه ، وقد أسند ظهره إلى جدار – والسيف في يده يصول ويجول – والرجال أمامه تصرع وتجندل .. حتى أرخى الله سدول الليل وهو لا يهن ولا يمل ، والملك «قمرون» يستحث رجاله ويقوي عزائم أبطاله ..

وبينما «سيف» ينثني ليتفادى طعنة رمح ، إذ بقدمه تنزلق على جمجمة قتيل فوقع على الأرض .. وحاول أن يقف على قدميه ، ولكن الجند والحجاب كانوا قد تكاثروا عليه وأوثقوا يديه وساقوه إلى «قمرون» .

وأمر الملك «قمرون» الحجاب أن يمضوا به إلى جب في الجبل عمقه ثمانون ذراعاً ويرموه فيه .. فجروه أمامهم إلى أن صعدوا به الجبل ، وتعاون خمسون رجلاً في رفع غطاء الجب المصنوع من الرصاص .

أما الحكيمة «عاقلة» فإنها ادعت للملك أنها لجأت إلى هذه

الحيلة حتى يكشف الكتاب عن الغريم فيمسكوه دون عناء ، وتركت الملك المسرور .. وركبت بغلتها إلى الجبل حيث وجدت القوم يوشكون على قذف «سيف» في الجب .. فأمرتهم أن يقيدوه في الحبال ، ويدلوه في الجب حتى يموت من الخوف والجوع جزاء ما سولت له نفسه من التعدي على كتابهم المعبود .. فنفذوا كلامها . وسرعان ما كان «سيف» وحده في أعماق الجب بلا رفيق إلا الحزن واللوعة ..

١٠

الشيخ عبد السلام

كان الملك «سيف» يتضرع إلى الله في أمل وثقة ، وقد ضاق به الأمر واسودت أمامه الدنيا .. وإذ بحائط الجب قد انشق عن شخص طويل رأسه في سقف الجب وقدماه على أرضه .. وكادت المفاجأة تطير بعقل «سيف» إلا أنه تشدد وتجلد ، ووطن نفسه على الموت يأتيه من أي طريق .. إلا أن هذا الشخص انحنى على يد «سيف» ثم قبل رجليه وقال له :

ـ يا ملك الزمان أنا مستجير بك فأنقذني من الهلاك والتدمير ..

واشتد العجب بالملك «سيف» من هذا الشخص المهول المطلق السراح ، يتذلل له وهو المقيد العاجز عن الحركة ، فقال له :

ـ يا هذا ما الذي أعمى بصيرتك ؟ .. ألا ترى ما أنا فيه من أسر وقيد ؟ ..

فتقدم منه وفك يدي الملك «سيف» ورجليه ، وقال له :

ـ مرني بما تشاء ، فقط عدني بأن تنقذني من الهلاك .. !

فقال الملك «سيف» :

ـ أريد السوط المطلسم الذي كان معي ..

فمد ذلك الشخص يده في الحائط ، وإذا به يعود حاملاً السوط ، ويقول له :

ـ خذ هذا سوطك لا تسحبه وإلا قتلتني ..

ـ يا هذا من تكون .. ؟!

ـ أنا أختك في الرضاعة ، لأن أمي أرضعتك وأنت طفل واسمي «عاقصة» بنت الملك الأبيض .. نحن قوم مؤمنون بالله رب العالمين ، نسكن في جبال القمر ، وعندنا شيخ صالح يقيم في صومعة يعبد الله ، فتعلمنا منه العبادة .. ولكن سكن عندنا مارد جبار كافر من الكفار يقال له المختطف الأقطع ، أراد ان يتزوجني .. فوافق أبي خوفاً منه ، فذهبت إلى العابد الصالح الذي عندنا وشكوت له حالي ، فقال لي : لا فرج لك منه إلا على يد الملك التبعي الحميري حاكم اليمن ، ومبطل الفتن ، الملك «سيف بن ذي يزن» .. فلما سألته عن مكانك ، قال لي اسألي أمك عنه فإنها أمك وأمه ، فلما سألت أمي قالت لي : يا «عاقصة» لقد رماه الملك «قمرون» في الجب .. طيري إليه وأطلقيه ، وخذيه معك إلى المختطف فإنه أخوك وواجب عليه أن يحميك ..

ثم تقدمت إليه وحملته ، وضربت الأرض فانفتحت ، وطارت في الجو ثم نزلت إلى الأرض أمام صومعة الشيخ «عبد السلام» .. ولما أرادت أن تستأذن الشيخ في الدخول سمعته يقول :

ـ ادخل يا «سيف بن ذي يزن» ستقضي الليل عندي ، وفي الغد تأتي «عاقصة» لتأخذك إلى قصر المارد «المختطف» ..

° ° °

وقضى الملك «سيف» ليلته في العبادة مع الشيخ «عبد السلام»

وهو يلقنه أصول الإسلام .. وفي الصباح جاءت «عاقصة» فحملته وطارت به مقدار ساعة ، ثم وضعته قرب قصر المارد وتركته يكمل الطريق لأنها لا تستطيع الاقتراب من القصر ..

وسار الملك «سيف» متجهاً إلى القصر ، وأخذ يطوف حوله وهو يفكر في طريقة لدخوله أو الصعود إليه .. وإذ به يجد شباكاً قد فتح وأشباحاً منه تشير له ، ثم إذ بمن يقفون في الشباك يدلون له حبلاً ، فربط الملك «سيف» نفسه في الحبل وسرعان ما وجد نفسه في القصر .. ورأى أربعين بنتاً ينادونه باسمه فأصابته الدهشة والحيرة ، وسألهن ، من هن ؟ وكيف عرفن اسمه ؟ .. فقالت واحدة :

ـ أنا اسمي الملكة «ناهد» بنت ملك الصين ، وهؤلاء البنات من بنات ملوك الأقاليم .. خطفنا هذا المارد «المختطف» وأتى بنا إلى هنا ليثبت قدرته على ملوك الانس .. وقد طال بنا الزمان على هذا الحال في انتظار من يخلصنا ، وقد أتاني هاتف في منامي وقال لي : لا تحزني يا «ناهد» فإن خلاصك على يد الملك «سيف» يقتل «المختطف» وهو الذي قطع يده في بلاد الأحباش .

ثم التفتت إليه ، وقالت تسأله :

ـ بحق الإله الذي تعبده ألست أنت الملك «سيف بن ذي يزن» . ؟

فلما أكد لها أنه هو الملك «سيف» مدت يدها وأمسكت يده ، وأعلنت إسلامها على يديه ، ونطقت بالشهادتين .. ثم تقدمت باقي البنات وأسلمن مثلها ، وما كادت البنت الأخيرة تنطق بالشهادتين حتى أظلمت الدنيا ، وانعقد الغبار في الجو ، وأسرعت كل بنت إلى مكانها وهن يحذرن الملك «سيف» من أن المارد قد وصل ..

وما كاد المارد «المختطف» يصل وينظر إلى الملك «سيف» حتى عرفه وصاح به وهو يهدر ويصرخ :

ـ ما الذي أتى بك إلى هذا المكان ، اليوم آخذ بثأري منك ، وأقطع يديك ..

وما أن أتم المارد كلامه ، حتى رفع «سيف» السوط في يده وضربه ضربة قاضية . واحترق المارد وصار كوم تراب وأقبلت «عاقصة» وهي فرحة مستبشرة ، وقالت له :

ـ لا شلت يداك يا ملك الزمان .. لقد جئتك بمن يثبت لك بأني أختك .. هذه أمي التي أرضعتك ..

ولما رآها «سيف» عرفها ، وصدق كلام «عاقصة» وقال لها :

ـ أريد منك أن تعيدي كل بنت من هؤلاء إلى أهلها ..

فأجابته «عاقصة» إلى ما أراد ، وظلت تحمل كل واحدة إلى قصر أبيها وتخبر أهلها أن الذي أنقذها هو الملك «سيف» وأنها أصبحت على دين الإسلام .. وعندما عادت «عاقصة» من آخر رحلة لها لم يبق إلا الملكة «ناهد» .. ولكن «ناهد» رفضت أن تذهب إلى أهلها ، وطلبت من الملك «سيف» أن يتزوج بها ، فأخبرها أنه آلى على نفسه ألا يتزوج قبل «شامة» بنت الملك «أفراح» .. فغضبت «ناهد» وقالت له :

ـ أسأل الله العظيم بحرمة الخليل إبراهيم أن يسوقك إلى أرض عارياً مكشوف الرأس حتى أشفي قلبي منك بين الناس ، ويكون خاطرك مكسوراً كما كسرت بخاطري ..

ـ تقبل الله العظيم دعاءك ، وتكونين مريضة عمياء ، ويكون على يدي شفاؤك ..

ثم حملتها «عاقصة» وعادت بها إلى أهلها .. وعادت إلى الملك

«سيف» فأوصلته إلى الشيخ «عبد السلام» الذي رحب به وأمره أن يصلي معه صلاة الوداع لأن أجله قد حان ، وأوصاه أن يكفنه بكفن وضعه تحت رأسه حين يموت وأن يصلي عليه ويدفنه ..

ومات الشيخ «عبد السلام» ونفذ «سيف» وصيته ، ودفنه ، إلى جوار صومعته وجلس ينتظر «عاقصة» ..

١١

الخاتم السحري

حملت «عاقصة» «سيف» وظلت طائرة به فترة طويلة ، حتى وصلا إلى قبة عالية يخرج الماء من أربع جهات منها .. فوقف «سيف» يتأمل الأنهار الأربعة ، فإذا به يلاحظ ان اثنين منها يغوران في الأرض بينما يظل اثنان يجريان فوقها .. فسأل عنها «عاقصة» التي قالت له :

ـ النهران الظاهران هما سيحون وجيحون وهما يسيران إلى بلاد الترك والروم . أما الغائران فأحدهما الفرات والثاني اسمه النيل الذي جئت أنت في طلب كتابه ..

فقال «سيف» :

ـ نعم . ولم أحصل على شيء حتى الآن .. احمليني إلى مدينة الملك «قمرون» لأستولي عليه وأعود به ..

ـ لم يحن الوقت بعد يا ملك الزمان ، فإن الشيخ «عبد السلام» قد أمرني قبل أن يموت أن أحملك إلى عجائب الدنيا ؛ السبع مدائن المطلسمات التي أنشأ كل واحدة منها حكيم ، وضع فيها من أمور الحكمة ما يحير الألباب ..

وحملت «عاقصة» الملك «سيف» وطارت به في الجو مقدار

ساعة ، ثم نزلت في واد مليء بالزهور والأنهار والنخيل والطيور .. وقالت :

– هذه أول مدينة ، ولا يمكنني أن أسير معك أكثر مـن هذا .. فاذهب أنت وسأظل هنا بانتظارك ..

وبينما هو يقترب من باب المدينة إذ به يجد سبعة فرسان كلهم يرتدون الدروع ويحملون السيوف والرماح ، وهم يتبادلون الضرب والطعان وقد اشتدت بهم الحرب وعلا عليهم الغبار .. فتقدم منهم الملك «سيف» وصاح فيهم بصوت مرتفع :

– ما هذه الفعال ؟ .. كيف تتضاربون بالسيوف والرماح وأنا أراكم متشابهين في الشكل والملامح كأنكم أقارب .. ؟!

فكف الفرسان عن الطعان ، ووقفوا ينظرون إلى الملك «سيف» ثم تقدم واحد منهم إليه وقال :

– صدقت أيها الفارس النبيل ، فنحن كلنا أخوة من أم واحدة وأب واحد .. وقد مات أبونا الحكيم «أفلاطون» وترك لنا ذخيرة عظيمة القيمة ، وكل منا يريد أن يأخذها لنفسه .. فتركنا الحكم بيننا للسيوف والرماح ..

– وما هي هذه الذخيرة العظيمة التي تركها أبوكم ؟

– هي قلنسوة صنعت بالحكمة ، كل من لبسها يختفي عن الجن والإنس ...

فأمرهم الملك «سيف» أن ينزلوا عن خيولهم حتى يحكم بينهم ويفصل في نزاعهم ، وأخذ منهم القلنسوة .. ثم أمسك بقوسه وأوتر سهماً ، ثم جذبه فخرج السهم بقوة واندفاع ، وطلب منهم أن يتسابقوا إلى السهم فمن أتى به أولاً فاز بالقلنسوة .. واندفع الأخوة يتسابقون

إلى أن ابتعدوا عن الملك «سيف» فوضع القلنسوة على رأسه حتى يعرف أثرها ، وإذا بواحد منهم قد عاد بالسهم في يده وإخوته يتبعونه في سرعة .. فلما وصل إلى الملك «سيف» أخذ يتلفت حوله ، وكذلك كان إخوته يتلفتون وهم يتصايحون وينادون على الفارس الغريب الذي اختفى بذخيرتهم .. فعلم الملك «سيف» أن أمر القلنسوة صحيح ، وأنها تخفيه عن أنظار الإنس .. فشاء أن يجربها في الجن ، فاتجه إلى مكان «عاقصة» وأخذ ينادي عليها ، وهي تتلفت يميناً ويساراً ولا تراه .. فلما ناداها مرة أخرى ، وقفت مكانها وقالت له :

– كأني بك قد أخذت القلنسوة التي صنعها الحكيم «أفلاطون» وتركت أولاده يتحسرون ، لقد ماتت الملوك حسرة عليها . وكل من سعى ليحصل عليها بذل المجهود دون جدوى .. ولكنني يا ملك لا أستطيع أن أحملك وأنت تلبسها ..

فخلع الملك «سيف» القلنسوة وأعطاها لـ «عاقصة» تحفظها له ، ثم حملته وطارت به في الجو مدة ساعة ، ثم نزلت به إلى الأرض وقالت له :

ـ أمامك الآن المدينة الثانية فامض إليها وحدك ، أما أنا فلا أستطيع أن أتقدم أكثر من هذا ..

واخترق الملك «سيف» الوادي ووصل إلى نهايته ، فرأى مدينة كاملة البنيان .. وعلى باب تلك المدينة شخص من النحاس الأصفر راكب على حصان من الحديد ، وفي فمه بوق من الفضة البيضاء ، ولا تنقصه إلا الروح ليتحرك ويسير .. وإلى جوار هذا الشخص النحاسي ألف فارس مدرعين يركبون الخيول ويمسكون الرماح ويتقلدون بالسيوف ..

وما أن اقترب من باب المدينة حتى تحرك التمثال النحاسي وزعق في البوق ، فأسرع إليه الفرسان يحيطون به ويمسكونه ويوثقون يديه وقدميه ، وحملوه إلى حيث ملكهم ورموا به أمامه ، وصاح فيه الملك :

ـ أنت صاحب العلامة ، على خدك خال وفي وسطه شامة .. أنت الذي تجري النيل من الحبشة وتقضي على عبادة النجوم والنيران أنت غريمنا ولا غريم لنا غيرك ..

وأمر ملك المدينة – وهو أعجمي اسمه «عبود خان» – بإحضار القبطان ، فحضر رجل ضخم الجثة بادي القوة ، عليه ملامح الشجاعة والقدرة ، وأمره الملك أن يضع «سيف» في زكيبة ، وأن يعلق في الزكيبة حجراً كبيراً ، وأن يأخذه في قارب حتى يصل إلى القناطر التي أقيمت تحت القصر .. فإذا ما أطل عليهم الملك وأشار له بيده ، ينقله إلى جانب القارب .. فإذا أشار إليه في المرة الثانية رماه في البحر .

وأمسك القبطان بـ «سيف» وحمله ورجاله إلى مكانه ، وما أن وصل إلى داخل القصر حتى أحضر تنور النار وسجد لها ، وأمره أن يدخل معه في عبادة النار ، ولما قال الملك «سيف» أنه لا يعبد إلا الله ، أخذ القبطان يتفنن في تعذيب الملك «سيف» وهو يشرب الخمر ، ويضربه ضرباً شديداً إلى أن أخذ منه التعب مأخذه فتركه مشدوداً إلى أعمدة من حديد وقد امتلأ جسده بآثار الضرب ، واختلطت فيه الدماء بالعرق وذهب لينام .

وامتلأ قلب « سيف » بالأسى والحزن ، وأخذ يذكر الملكة « شامة » وهي عنه بعيدة ، وقد فقد الأمل في أن يراها مرة أخرى ، ثم أخذ يتضرع إلى الله ويستغيث برحمته .. وإذ به يرى القبطان يعود إليه

مهرولاً وهو يبكي بكاء شديداً ، وقبل رأس الملك « سيف » وحل وثاقه ، وصار يقبله وهو يبكي ويعتذر إليه ويقول :

ـ يا سيدي أنا أقول على يديك حقاً وصدقاً وعدلاً ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن إبراهيم خليل الله ، وأن محمداً خاتم رسله .. لقد آمنت من اليوم ، وإني بريء من أي عبادة تشرك بالله .

دهش الملك « سيف » واحتار ، وأخذ بيد القبطان وقال له :

ـ لا عليك يا سيدي القبطان .. أخبرني ما الذي حدث ؟

ـ لقد كنت متجهاً إلى محل نومي ، بعد أن فرغت من تعذيبك وعبادة النار ، وإذا بشيخ جليل يعترضني ، ويقبض على خناقي ، ويصرخ في وجهي – وقد أصابت هيبته شغاف قلبي – ويأمرني بالإيمان ، وأن أعبد الملك الواحد القهار ، وأراد الله لي الخير فآمنت على يديه وأخبرني أنه الخضر عليه السلام : وأمرني أن أفك وثاقك وأن أكون في خدمتك ..

وما أن سمع الملك « سيف » هذا الكلام حتى خر ساجداً وقال له :

ـ الحمد لله على هدايتك أيها القبطان .. ومن الآن سنغير اسمك من عبد النار إلى عبد الصمد ، ولكن إحك لي سر ما حدث معي .. وهل من عادة مدينتكم أن تقابل الأغراب بمثل هذه الإساءة والتعذيب ؟

ـ لا يا مولاي .. ولكن هذا الرصد الذي كان على الباب كان بانتظارك أنت ، وكذلك هؤلاء الفرسان الألف ، فإن الملك « عبود خان » له ذخيرة عظيمة ورثها عن أبيه وهي خاتم مطلسم كل من لبسه يملك قوة الموت بلا سيف ولا سنان – فكل من أشار إليه بإصبعه الذي يحمل الخاتم سقطت رأسه عن جسده ، وقد خاف « عبود خان » على ذخيرته تلك ، فجمع الحكماء وطلب منهم أن يبحثوا في علومهم

ويخبروه هل سيتمكن أحد من أخذ هذه الذخيرة منه .. فقالوا له إن الذي يأخذها شاب صغير أمرد على خده اليمين خال أخضر ، وفي وسط الخال شامة ؛ واسمه الملك «سيف بن ذي يزن» وهو مبيد أهل الكفر وناشر راية الإسلام .. فأمرهم الملك أن يصنعوا ذلك الشخص النحاسي ويرصدوه حتى يدل عليك حين اقترابك من المدينة ، وخصص ألفاً من جنده ليمسكوك لحظة أن يدل عليك هذا التمثال المرصود .

فعجب الملك «سيف» من تصاريف القدر ، وأمر القبطان «عبد الصمد» أن يعرض الإسلام على أهل بيته ، فأسلموا جميعاً إلا جارية بيضاء أبت أن ترجع عن عبادة النار ، فقتلها القبطان بعد أن عرض عليها الإيمان ثلاث مرات .. ثم وضعها في الزكيبة وترك قدميها ظاهرتين حتى يخدع الملك «عبود خان» وسار بها في قاربه حتى القناطر ، وكان الملك «عبود خان» ينظر من نافذة قصره .. فأشار له بيده فرفع الزكيبة إلى حافة القارب . وعندما أشار له للمرة الثانية قذف بها إلى البحر .. واستخف الفرح بالملك «عبود خان» فظل يصفق بيديه ، وكان الملك «سيف» يقف من بعيد يرقبه ، فرأى شيئاً يلمع يسقط من إصبعه في الماء .

ولما عاد القبطان «عبد الصمد» حكى له الملك «سيف» ما رأى فأسرع القبطان بقاربه ورمى بشبكته في الماء .. وحين رفعها رأى فيها سمكة جميلة الشكل فحملها إلى الملك «سيف» .. وحين فتح الملك «سيف» بطن السمكة ، وجد فيها الخاتم فوضعه في إصبعه ، وحمد ربه وشكره ودبر بينه وبين القبطان «عبد الصمد» أمراً .. فلما كان الصباح اتجه الملك «سيف» إلى ديوان الملك «عبود خان» الذي ذهل

عندما رآه ، وهب واقفاً وهو يصيح حتى اجتمعت رجاله والتف به أهل المدينة ، ولكن الملك «سيف» رفع يده وقال :

ـ لقد أتيت لك لأطلب منك أن تدخل في عبادة الرحمن الرحيم وإلا أطحت رأسك بهذا الخاتم ..

وما أن رأى الملك «عبود خان» ورجاله الخاتم في يد «سيف» حتى اشتد اضطرابهم ، وتصايح الرجال بأن يخلصهم من ظلم «عبود خان» وجوره وعسفه .. فأشار الملك «سيف» بإصبعه إلى «عبود خان» وإذا برأسه تسقط عن كتفيه ! ..

وظل «سيف» في المدينة فترة يعلم الناس الإسلام والإيمان حتى أسلموا جميعاً ، وأمرهم أن يبايعوا القبطان «عبد الصمد» ملكاً عليهم ، ثم أوصاه بهم وأمره أن يعدل في حكمه وألا يحيد عن دينه . وودع أهل المدينة وأخذ الخاتم واتجه إلى حيث كانت «عاقصة» تنتظره ، وقد بدأ الخوف عليه يشغل بالها ويحير أفكارها .

١٢

الشيخ جياد

ما أن رأت «عاقصة» الملك «سيف» مقبلاً عليها حتى ملأها الفرح ، وأقبلت تسأله عما حدث .. فأخبرها بحكايته وأراها الخاتم فقالت له :

ـ لقد أنقذك الله بفضله ، لكني ما عدت أذهب بك إلى أي مدينة من المدن الباقية .. فقد حان الحين لتسترد كتاب النيل بلا مزيد من التسويف والتأجيل .

وحملته «عاقصة» وطارت به إلى مدينة قيمر ، وأنزلته إلى جوار الجب وأعطته القلنسوة ، وتركته وانصرفت ..

• • •

طال انشغال «طامة» بأمر الملك «سيف» بعد أن عرفت أن الملك «قمرون» قد رماه في الجب .. وكانت أمها تراها وهي باكية ، فكانت تطمئنها وتقول لها ان الملك «سيف» لا بد أن يعود لأخذ كتاب النيل ، فهو به موعود وبنصر من عند الله منصور . وفي ذات يوم طال بـ «طامة» البكاء ، فضربت لها الحكيمة «عاقلة» تحت الرمل ، وحكت لها ما حل به ، ثم قالت :

ـ أبشري بأن الملك سوف يعود بل هو في طريقه الآن إلينا ..

وما أتمت كلامها حتى كان الملك «سيف» يطرق الباب ففتحت

له «طامة» وقلبها قد استثاره الفرح ، وذهبت عنه الأحزان ، ورحبت هي وأمها به .. وجلستا معه تحادثانه ويحادثهما فترة من الزمان ، وختم الملك «سيف» حديثه بأن سأل الحكيمة «عاقلة» عما يفعل ليحصل على كتاب النيل ، فقالت له :

ـ في الغد يذهب الملك وحاشيته لأداء فروض العبادة للكتاب ، فتعال معي والبس القلنسوة المسحورة ، فلن يراك أحد إذا ما أخذت كتاب النيل ، ووافق الملك «سيف» على هذا التدبير ، وقام ينام ليستريح من عناء رحلته وقد أحس بالأمل يملؤه ببلوغ أمنيته ..

وفي الصباح سار مع الحكيمة «عاقلة» حتى الديوان ، وقد لبس القلنسوة فاختفى عن الأنظار ، وما أن اكتمل الديوان حتى قام الملك ومن معه إلى حيث القبة ، ودخلوا إليها ثم سجدوا أمامها عندما فتح الملك صندوق الكتاب .. وأخذ الملك «سيف» يتخطى رؤوس الساجدين دون أن يراه أحد حتى وصل إلى القبة ، فدار الصندوق ثلاث دورات ووقع الكتاب عند قدميه ، فأخذه «سيف» وأسرع إلى بيت الحكيمة «عاقلة» .. أما الملك «قمرون» فقد طار عقله ، وصار يصرخ كالمجنون ، وأخذت الحكيمة «عاقلة» تطيب من خاطره وتعده بإمساك الغريم وإعادة الكتاب .. ثم تركته وعادت إلى البيت فهنأت «سيفاً» بحصوله على ما يريد ، وطلبت منه أن يتزوج ابنتها «طامة» جزاء مساعدتها له فقال لها :

ـ إن «طامة» هي ست البنات .. ولكني لا أتزوج بأحد إلا بعد أن أتزوج «شامة» بنت الملك «أفراح» ..

وحاولت الحكيمة «عاقلة» أن تثنيه عن هذا العزم الذي انتواه وهي تلين له في الكلام مرة وتقسو عليه بالتهديد مرات ، وهو لا يسمع

منها ولا يرد عليها .. وتركها وذهب إلى حيث ينام ، وجعل الكتاب والقلنسوة تحت رأسه ، فلما أصبح الصباح وأفاق من نومه لم يجد القلنسوة في المكان الذي وضعها فيه ، فسأل عنها الحكيمة «عاقلة» فنفت معرفتها بمكانها وقالت «طامة» :

ـ إن القلنسوة عندي ولا أعطيها لك حتى تتزوج بي ..

قال لها «سيف» :

ـ خذيها .. بارك الله لك فيها ، أنا لست أتوكل على القلنسوة وإنما أنا أتوكل على الله .

وأخذ الكتاب وسار قاصداً مدينة الدور ليعطي الكتاب للملك «أفراح» حلواناً لـ «شامة» .. أما الحكيمة «عاقلة» فقد أحزنها بكاء ابنتها «طامة» فركبت بغلتها وسارت إلى الديوان ، ودخلت على الملك «قمرون» وقالت له :

ـ لقد ضربت الرمل ، وعرفت أن الغريم الذي أخذ الكتاب يسير الآن في البر الطويل متجهاً إلى البحر الذي تقف فيه الدابة الكبيرة .. فإن أردت أن تقبض عليه فهذا وقت العمل وإلا أفلت من يدك .. ؟

وسرعان ما أمر «قمرون» الفرسان بالخروج والبحث عن الملك «سيف» وأخرج كل جيشه وكل رجاله .. وما مر اليوم والثاني حتى أدرك الفرسان «سيفاً» فأحاطوا به من كل جانب ، وهم يصيحون به ويسرعون إليه .. وما أن نظرهم «سيف» حتى أطلق ساقيه للريح إلى أن مالت الشمس للغروب .. فاختفى بين الصخور والأحجار ، وقد ستره الظلام عن أعين أعدائه ولم يقعوا له على أثر .

وأمر الملك «قمرون» رجاله فسدوا المنافذ والمسالك حتى لا يتسلل من بين أيديهم في الظلام .. وظل «سيف» ينتظر حتى مر من الليل

ثلثاه وران الكرى على أعين الجنود ، فتسلل من مكمنه قاصداً مكان الدابة ليلحق بها قبل الصباح ، وأحس به الحراس فأيقظوا المعسكر كله .. وداروا يبحثون عنه ويفتشون عليه ، ولمحه أحدهم وهو يتسلل بين الصخور فصاح منبهاً رفاقه .. وما أن أحس «سيف» أن الجنود قد عرفوا مكانه ، حتى أسرع يجري بكل قوته وهم يتابعونه ويجرون وراءه والليل يوشك أن ينقضي ، وقد قرب موعد ظهور الشمس .

* * *

ووصل «سيف» وهو يلهث إلى مكان الدابة البحرية الكبيرة ، وقد بدأت طلائع الفجر تظهر .. وأوشك الرجال أن يلحقوا به ، فقفز الملك «سيف» على ظهر الدابة ، وكانت قد أفاقت من غفوتها ونظرت إلى الشمس .. فرأتها قد ارتفعت عن الأرض فصاحت بصوت كالرعد ، وبدأت تتحرك متجهة إليها لتخطفها و «سيف» مستقر على ظهرها .. وأخاف صوت الدابة فرسان الملك «قمرون» وأرعبهم شكلها ، فأسرعوا هاربين وإلى ملكهم عائدين ، وقالوا له :

ـ إن الغريم عندما وصل إلى الدابة ، ظنها أرضاً أو جبلاً فطلع عليها ، وها هي قد صارت في البحر وهو على ظهرها .

فكاد «قمرون» يجن ، وأمر بإحضار الحكيمة «عاقلة» التي قالت له :

ـ لقد أخبرتك بمكانه وأنت الذي قصرت في الإمساك به ، ولكني سأذهب إلى محل حكمتي لأعرف مكانه ، إن لم تكن قد أكلته الدابة واسترحنا منه ..

وظل «سيف» على ظهر الدابة حتى وصلت إلى البر الثاني ، فنزل عن ظهرها وذهب إلى مكان الشيخ «جياد» فقابله بالترحاب

وقص «سيف» عليه ما حدث له حتى حصل على الكتاب ، فقال له الشيخ «جياد» :

ـ ها أنت قد حصلت على ما تريد ، وها هوذا جوادك أمامك ، فخذه في الغد واذهب إلى بلادك .. أما أنا فسافر السفر البعيد ، فانتظر لتفعل معي كما فعلت بأخي «عبد السلام» .

في الصباح مات الشيخ «جياد» فكفنه الملك «سيف» وصلى عليه ودفنه ، ثم ركب حصانه وحمل الكتاب واتجه إلى مدينة الملك «أفراح» .

١٣

مناطح البغال

اشتد القلق بالمقدم « سعدون » عندما طال غياب « وحش الفلا » ، فأسرع ذات يوم يقتحم ديوان الملك « أفراح » ويدخل عليه بلا استئذان ، وهو يهدد ويتوعد ، ويقول :

– أين « وحش الفلا » .. ؟ لقد مضت مدة ولم نسمع عنه شيئاً .. ؟

فقام الملك « أفراح » يطيب خاطره ، ويلين له في الكلام ، ويقول :

– يا مقدم « سعدون » إن « وحش الفلا » قد قطع على نفسه عهداً أن يعود بحلوان « شامة » وهو سيعود بحق زحل بالحلوان كما عاد بك في المهر ، فنقيم الأفراح ونزوجه من الأميرة « شامة » ..

ـ ما هذه الحكاية الطويلة يا ملك « أفراح » ؟ .. إن هذا كله من تدبير « سقرديون » هذا الذي يدس عليك الفسق والخداع ويكره أستاذي « وحش الفلا » .. ولكني أنذرك أنني لن أرحل عن هذه المدينة حتى يظهر خبر أستاذي ، فإن أتى سالماً سلمتم ، وإن مات قتلتكم عن آخركم وأولكم « سقرديون » .

وتركهم المقدم « سعدون » وقد ظهر الشر في عينيه ، وبان الغضب عليه .. وراح إلى خيامه ورجاله ..

والتفت الملك « أفراح » إلى « سقرديون » وقال له :

ـ ماذا تقول الآن يا حكيم الزمان ، لقد أتى «سعدون» هنا بتدبيرك .. وغاب « وحش الفلا » بنصيحتك ..

قال «سقرديون» :

ـ سأريك يا «أفراح» ماذا أفعل ..

° ° °

استدعى «سقرديون» عبداً من عبيده ، وأسلمه رسالة إلى أخيه «سقرديوس» حكيم الملك «سيف أرعد» ، وقص في الرسالة حكاية « وحش الفلا » منذ البداية إلى أن أرسله ليأتي بكتاب النيل وكيف حط «سعدون» على مدينة الدور يهدد بالويل والثبور .. وذكر لأخيه أن «وحش الفلا» له شامة خضراء ، وأن «شامة» بنت الملك «أفراح» لها شامة أخرى ، وبأن اجتماع الشامتين يعني نهاية عبادة النجوم وانتهاء حكم الأحباش ، وأغرى «سقرديوس» أن يزين للملك «سيف أرعد» حسن «شامة» وجمالها ، وأن يغريه بزواجها ..

وحمل العبد الرسالة إلى الحكيم «سقرديوس» الذي قرأها وفهم معناها ، وقام في الحال إلى ديوان الملك «سيف أرعد» فقبل الأرض بين يديه واستأذن في الكلام .. وأذن له الملك «سيف أرعد» فمضى يحكي له حكاية « وحش الفلا » ويقص خبرها ، وأنهى حديثه قائلاً :

ـ وإني يا ملك لأنصح لك بحق زحل في علاه أن تتزوج «شامة» فليس مثلها بين النساء حسناً وجمالاً .. فإن عاد هذا الغلام ورأى أن مثلك هو الذي تزوجها لم يجد أمامه إلا الحسرة والكمد ، وقد أخبرني أخي أن «شامة» على خدها شامة ، وأن الغلام على خده مثلها وقد أجمع الحكماء على أن في اجتماع الشامتين خراباً لملك الحبشة ونهاية لعبادة النجوم ..

وأعجب هذا الحديث الملك «سيف أرعد» ، وأطمعته أوصاف «سقرديوس» في الملكة «شامة» .. فأمر بإحضار هدية عظيمة من العقود والجواهر وملابس الحرير والخيول المطهمة والجواري والنوق ، ثم استدعى حاجبه الجبار «دربال» مناطح البغال – وهو من أقوى الفرسان وأشهر المقاتلين – وقال له :

ـ لقد جعلتك نائبي ، لتخطب لي بنت الملك «أفراح» .. فعندما تصل إليه سلمه هذه الهدية ، وأخبره أنني سأرفع عنه الخراج سبع سنين كمهر لابنته .. فإن تمنع واغتر ، فقاتله وهاته لي موثقاً بالحبال ، والحديد ، وإن تدخل العبد «سعدون» فاقض عليه هو وعبيده وخلصنا من غروره وشروره ..

وانتخب له ألف فارس شديد يسيرون تحت قيادته وكلهم مزودون بالعتاد والعدة .. وأمره أن يشرف على إعدادهم واختيار كل ما يلزم رحلته .. فانصرف «دربال» مناطح البغال يعد للأمر عدته ، بينما التفت «سقرديوس» للملك «سيف أرعد» وقال :

ـ الآن يطمئن زحل في علاه إلى أن حامي دينه يعمل على نصرته ، ولا يبخل على تأييد دينه ورفعته ..

وكان «دربال» من أقوى من ركب على فرس في كل بلاد الحبشة ، وكان وهو صبي يصارع البغال ويغلبهم .. وسمع به الملك «سيف أرعد» فأرسل في طلبه ، وقد توسم فيه القوة والبأس ، ودربه على ركوب الخيل وحمل السلاح إلى أن أصبح فارساً لا يشق له غبار .. فجعله من حجابه يكل إليه أصعب المهام وأخطرها ..

وعندما انتهى مناطح البغال من إعداد رجاله ، وتزويدهم بالعدة والعتاد ، سار على رأسهم إلى قصر الملك «سيف أرعد» الذي خرج

إليهم وأمر بضم الهدية إلى صفوفهم ، والتفت إلى مناطح البغال يعيد عليه وصيته ، فقال «دربال» مناطح البغال :

ـ إنني يا مولاي قد فهمت ما تريد .. فإما القبول وأما أن أسوقهم مقيدين بالحديد ..

وخرج «سقرديوس» اللعين يبرطم بكلام لا يبين ، ويبارك الحملة ويدعو لهم بالتوفيق ..

° ° °

بلغت أخبار الهدية والجيش المصاحب لها أسماع الملك «أفراح» فخرج من مدينته ومعه رجال حاشيته وأولهم الحكيم «سقرديون» يلقون مناطح البغال ويرحبون به .. ثم صحب الملك «أفراح» حاجب الملك «سيف أرعد» إلى داخل الديوان ، وأنزله في أعلى مكان وأمر بإقامة الولائم وتقديم أفخر الطعام وأحسن الشراب ..

ولما استقر المقام بـ «دربال» مناطح البغال قدم كتاب الملك «سيف أرعد» للملك «أفراح» فسلمه هذا للحكيم سقرديون ليقرأه وسط الديوان .. وفتح الحكيم «سقرديون» الكتاب ، وقرأ فيه :

ـ اعلم أيها الملك «أفراح» أنني قد اخترتك من بين الملوك لتكون صهري ، وقد رأيت أن يكون مهر زوجتي رفع الخراج عن مدينتك سبع سنوات كاملة .. وقد كلفت حاجبي مناطح البغال أن يكون نائبي في إنهاء الموضوع ..

وهمس الملك «أفراح» للحكيم «سقرديون» :

ـ لم يكن ينقصنا إلا هذا .. أخبرني يا حكيم كيف التدبير في هذا الأمر ..

قال «سقرديون» :

ـ لا بد أن تقبل هذا العرض يا ملك «أفراح» .. إنه تشريف لك وتكريم ..

ـ وإن عاد «وحش الفلا» ماذا نقول له وقد وعدناه بالزواج من «شامة» ؟

ـ «وحش الفلا» مات وانقضى .. وإن عاد نخبره أن ملك الأحباش قد تزوجها ، فإن أراد استرجاعها فليأخذها منه إن استطاع ..

وضحك الحكيم «سقرديون» وأخذ يرحب بمناطح البغال ، ويملأ له كأس الخمر بيده ، ويبدي سروره من تشريف فارس كبير مثله وسعادته برؤيته .. وبينما هم في ضحك وسرور إذ بجلبة تملأ الديوان ، وإذ بالحراس يهرعون في فزع .. وقبل أن يسأل الملك «أفراح» عن سبب هذه الضجة إذ بالمقدم «سعدون» يقتحم الديوان على رأس رجاله الثمانين ، وقد ظهر الشر في عينيه ولاح الغضب عليه .. فهب الملك «أفراح» واقفاً ووقف «سقرديون» ، ووقف لوقوف الملك كل الرجال .. إلا أن مناطح البغال أدخل السكر في قلبه الغرور ، فلم يتحرك من مكانه ، ولم يقم لتحيته ..

فالتفت المقدم «سعدون» إلى الملك «أفراح» وقال له :

ـ من هذا الكلب الذي لم يقم لتحيتي .. ؟

فرد عليه مناطح البغال ، وهو يضع الكأس الذي في يده ، ويعتدل في جلسته :

ـ اعلم يا هذا أنني حاجب الملك «سيف أرعد» وقد أرسلني إلى هذه المدينة لأخطب له «شامة» بنت الملك «أفراح» .. فالزم أدبك ولا ترفع صوتك ..

ـ تقول إنك جئت تخطب زوجة أستاذي «وحش الفلا» ..

والله إن لم تقم من هذا المكان لسقيت سنان سيفي من دمك أنت ومن أرسلك يا كلب الرجال .. !

فغضب مناطح البغال ، وأزاح بيده ما أمامه من طعام وشراب ، وهب واقفاً كالبعير الهائج ، وجذب حسامه وهجم على المقدم «سعدون» .. فجرد «سعدون» حسامه وأسرع إلى لقائه وهو كالليث الغاضب .. وتقابل السيفان في صليل يصم الآذان .

وأخذ الاثنان يصولان ويجولان ، وهما يحطمان كل ما يقع تحت أقدامهما من أثاث ، والجنود قد تراجعت ترقب القتال .. وكان «سعدون» قد اشتد به الغضب وملأه الغيظ من خيانة «أفراح» وغدره ، فأراد أن ينتهي بسرعة من غريمه ليفرغ للانتقام من الملك وحكيمه .. فدار حول غريمه دورات وأشعره بالانهزام ، ومناطح البغال يتعقبه حتى حانت الفرصة لـ «سعدون» فطعنه طعنة نافذة دخلت في صدره ونفذت من ظهره ، فسقط مضرجاً بدمائه وقد هاج الرجال وماج الحجاب وتصايح الحاضرون .. وصاح الحكيم بالملك «أفراح» :

ـ يا ويلك يا ملك «أفراح» إذا علم الملك «سيف أرعد» أن حاجبه قد قتل في ديوانك .. قم وأمسك بـ «سعدون» واقبض عليه ، وأرسله إلى الملك «سيف أرعد» في دية حاجبه ورسوله ..

فجرد الملك «أفراح» حسامه وصاح برجاله وفرسانه .. وحمل الجميع على «سعدون» الذي أمر رجاله بامتشاق الحسام والدفاع عن أنفسهم والهجوم على أعدائهم .

ودارت رحى الحرب الضروس ، وطارت من فوق الأعناق رؤوس ، والمقدم «سعدون» يضرب الفرسان العبوس ، وهو يمزق أعداءه ويفرق

مهاجميه ، حتى استطاع أن يشق مع رجاله طريقهم إلى خارج القصر والمدينة ..

° ° °

حاصر «سعدون» المدينة من الخارج ، وأمسك على من بها الطريق .. وكان الملك «أفراح» يرسل فرق الفرسان ، فيعيدها مهزومة مدحورة إلى أن طال الأمر .. فذهب الحكيم «سقرديون» إلى الملك «أفراح» وحذره من غضب الملك «سيف أرعد» وأغراه بالهجوم بكل عسكره على «سعدون» لإفنائه .. فجمع الملك «أفراح» عسكره وأعد فرسانه ، وخرج بجميع جيوشه يلقى «سعدون» ورجاله ..

ووقف «سعدون» ورجاله الثمانون يلقون في شجاعة وصبر جيوش الملك «أفراح» .. وكان رجال «سعدون» مثله قد تمرسوا على الأهوال ، وخبروا الموت في كل صورة وحال ، فخاضوا المعركة في بأس وإصرار وشجاعة تضرب بها الأمثال .. إلى أن أقبل الظلام ، فتنادى العسكر بالانفصال ، فعاد «سعدون» إلى خيمته وقد اختلط الدم على درعه بالعرق ، وقال لرجاله :

ـ ما عليكم من ترك القتال بأس .. من أراد منكم ان يذهب إلى حاله فليترك الخيام في الليل ..

وتصايح الرجال من حوله ، وهم يقولون :

ـ نحن معك على الخير والشر ، وليس فينا جبان يخاف الموت .

فسر خاطره واستراح باله ، وأمرهم أن يقيموا الحراس ، ويأخذوا قسطهم من الراحة ليواجهوا القتال في صباح اليوم التالي وهم على استعداد ..

وأتى الصباح فصف المقدم «سعدون» جنوده ، واستعد لملاقاة

الأعداء .. وإذ بجنود الملك «أفراح» يهجمون كالسيل العارم فتلقاهم سعدون ورجاله في استبسال وحمية وصاح سعدون وهجم وتبعه رجاله يضربون بالسيوف الهامات والرؤوس . ونفذ سعدون ورجاله وسط جنود الملك «أفراح» إلى أن أصبحوا في الخلاء ، فصاح سعدون ودار بفرسه ثم أكب برأسه على سرجه وهمز جواده بقدمه وعاد يهجم على جيوش الملك أفراح الذين أذهلتهم المفاجأة ، وأصبحوا لا يعرفون من أين يأتيهم الأعداء .. وأحس الملك أفراح أن سعدون يحارب حرب اليائس فطلب من سقرديون أن يأمـر رجال مناطح البغال ليدخلوا المعركة .. وسرعان ما ذهب سقرديون إليهم وطلب منهم أن يأخذوا بثأر رئيسهم وحاجب ملكهم ..

فنزلوا إلى المعركة وقد استراحوا وزال عنهم تعب السفر .. واشتد على «سعدون» الأمر ، وتساقط رجاله من حوله وهو يضرب ويضرب .. وأخذ يحس في نفسه التقصير ويشعر أن الكلال قد حل بجسده وساعديه .. وصاح الملك «أفراح» :

ـ ويلكم ، ما هؤلاء إلا حفنة من الأوغاد ، وأنتم فوارس أشداء ، اهجموا عليهم وخذوا بثأركم منهم ..

وأخذ «سعدون» ورجاله يحاربون حرب الموت ، وقد عقدوا العزم على أن يموتوا في أماكنهم ولا يهربوا أمام أعدائهم وإن كانوا أكثر في العدد والعدة .. وتلفت «سعدون» حوله وقد اشتد كربه ، وإذ به يسمع صوتاً يدوي من بعيد .. وإذ بغبرة تثور وفارس من تحتها يطير به فرسه على عجل ، وهو متجه إليه يصيح فيه :

ـ لا بأس عليك يا فارس الفرسان ..

وسرعان ما اقترب الفارس ، فإذ به قد جذب على وجهه اللثام

وعيناه تلمعان كأنهما عينا الصقر ، وهو يضرب بحسامه في رجال الملك «أفراح» وفرسان «دربال» .. وما تصيب ضربته فارساً إلا جندلته .. فصاح «سعدون» برجاله وقد انتعش فيه الأمل . وعاد إليه عزمه واشتدت قوته ، وانضم إلى جوار هذا الفارس البطل الذي أخذ يصول بين الرجال كأنه الذئب وسط الأغنام .. فلما اقترب «سعدون» منه بجواده ، قال له الفارس الغريب :

ـ أخبرني أيها الفارس المهيب ، على أي شيء تدور هذه المعركة الطاحنة اليائسة .. ؟!

فقال له «سعدون» وهو يرفع صوته فوق ضجة المعركة :

ـ من تكون أنت أيها الفارس النبيل ؟

فضرب الفارس برمحه جندياً كان يرفع سيفه من خلف «سعدون» وقال له :

ـ ألا تعرفني يا مقدم «سعدون» أنا صديقك « وحش الفلا » ..

وأزاح «سعدون» فارسين من طريقه ، وتراجع بجواده ليصد ضربة نافذة ، وقال وهو يغوص بسيفه في قلب أحد أعدائه :

ـ ساعدني على هؤلاء الكلاب فليس هذا وقت الكلام ..

وما أن سمع الملك «سيف» هذا الكلام حتى صرخ في الرجال صرخة مرعبة ومضى يضرب بحسامه فيقطع الرؤوس ، ويشير بخاتمه فتطير الجماجم من على الأجساد دون أن يمسها حسام .. وتراجع الرجال من أمامه ، وقد أخذهم الخوف ، وهو يصيح فيهم :

ـ أنا فارس الأقطار والدمن ومبيد أهل الشر والفسق ، أنا الملك التبعي الحميري «سيف بن ذي يزن» ..

فلما سمع الملك «أفراح» هذا الصوت التفت إلى الحكيم «سقرديون» وقال له :

ـ أما تسمع هذا الصوت ؟ .. كأنه صوت «وحش الفلا» ..

فقال «سقرديون» :

ـ ما هذا يا ملك «أفراح» .. إن «وحش الفلا» مات وراح ..

فما أتم كلامه حتى أقبلت عليهم العساكر والجنود ، وهي تصيح من هول ما رأت ، وتحكي عن حرب الملك «سيف» وخاتمه الذي يبيد الفرسان دون حسام ، وكيف أنه إن استمر الحال على هذا المنوال هلك الجيش بأجمعه ، وقالوا له :

ـ ووالله أيها الملك ما أبادنا إلا الفارس النبيل «وحش الفلا» الذي سافر إلى مدينة قيمر طالباً كتاب النيل ..

فما أن سمع الملك «أفراح» هذا الكلام حتى أمر عساكره بالكف عن القتال ، وسار بفرسه إلى حيث وقف «سعدون» ورجاله .. فرأى وسطهم فارساً قد ملأت الدماء دروعه وسيفه ، ووجهه ينير بإشراق ، فعرف فيه «وحش الفلا» فنزل من فوق جواده وأراد أن يقبل قدم الملك «سيف» في الركاب . فترجل الملك «سيف» وعانقه وقبله وقال له :

ـ يا ملك «أفراح» . ما ذنب المقدم «سعدون» لتحاربه .. ؟

فقال «أفراح» :

ـ لقد قتل مناطح البغال حاجب الملك «سيف أرعد» حين جاء يطلب خطبة الملكة «شامة» ..

ـ والله إنه لنعم الصاحب والرفيق ..

ـ وأنا منذ اليوم سأكون له نعم الصديق ..

ونادى الملك «أفراح» بإقامة الزينات وتقديم الطعام والشراب وإعلان الأفراح بعودة «وحش الفلا» ومعه حلوان «شامة» ..

• • •

وبينما كان «وحش الفلا» يقص على الملك «أفراح» قصته وقد استقر به المقام في أعز مكان من ديوان الملك وإلى يمينه المقدم «سعدون» ، كان «سقرديون» ينفخ في نار حقده وغيظه ، ويهمس لنفسه :

ـ لقد راح وهو «وحش الفلا» وعاد واسمه «سيف» ، وما هو إلا السيف الموعود بالقضاء على ملك الأحباش وإنهاء عبادة النجوم .. وحتى زحل لا بد من إحكام التدبير ، وسنرى ماذا يقول الملك «سيف أرعد» عندما يعلم ما حل بحاجبه ، وكيف طارت منه خطيبته ..

• • •

وظلت المدينة في أفراح وسعود .. والملك «سيف» يحكي لـ «سعدون» والملك «أفراح» قصة مغامرته في مدينة قمرون ، وكيف سجن في الجب ، وكيف عرف اسمه ، وحصوله على القلنسوة والخاتم إلى أن أوشك الصباح على هزيمة الليل فقام كل منهم إلى مرقده وقد امتلأ قلب «سعدون» فرحاً بعودة أستاذه وفارسه ، وامتلأ قلب الملك «سيف» بأعذب الأحلام حول زواجه من أميرة أحلامه وعروس أيامه الملكة «شامة» بنت الملك «أفراح» ..

١٤

الأم والابن

اقترب الحاجب من الملك «سيف أرعد» وقال بصوت هامس :

ـ الجند يا مولاي بالباب يستأذنون في المثول بين أيديكم ..

وقطب «سيف أرعد» ما بين حاجبيه ، وهو يسأل :

ـ أي جند ؟ ..

وعاد الحاجب يقول هامساً محاذراً :

ـ جند مناطح البغال .. ومعهم رسالة من الحكيم «سقرديون» حكيم الملك أفراح ..

وقفز الملك من مجلسه ، وشرار الغضب يلمع في عينيه ، وصاح :

ـ يأتون هكذا بلا أبواق ، ولا دق كاسات ، ولا صيحات انتصار .. وأين مناطح البغال ؟ ..

وصمت كل من في الديوان ، ووقف الحكيم «سقرديوس» وهو يقول :

ـ مولاي ائذن لهم بالدخول ، لعل في خطاب أخي «سقرديون» الجواب ..

وجلس الملك «سيف أرعد» وهو يتمالك نفسه بصعوبة ، وجلس لجلوسه الناس .. ثم دخل الجند يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى ،

وقد ملأهم من عار الهزيمة هوان ملموس .. وقدموا بين أيديهم رسالة «سقرديون» ، وتناولها الحكيم «سقرديوس» منهم ومضى يقرؤها على الملك ، والملك ينصت وغضبه يتزايد ، فقد كان الحكيم «سقرديون» يقص في رسالته ما حدث لـ «مناطح البغال» على يد «سعدون» الزنجي ، وما حدث لجنده وجند الملك «أفراح» على يد «وحش الفلا» الذي غادر مدينة الحديد ليأتي بحلوان «شامة» وأتى واسمه «سيف بن ذي يزن» ومعه الحلوان كتاب النيل ..

وما أتم «سقرديوس» قراءة الرسالة حتى دخل الحاجب إلى الديوان وهو يقول :

ـ مولاي ، بالباب وزير من وزراء المدينة الحمراء يريد المثول بين يديك .

أمر الملك «سيف أرعد» جنود مناطح البغال أن ينصرفوا ، ثم أشار بيده للحاجب ليأذن لوزير المدينة الحمراء بالدخول ، بينما طوى «سقرديوس» الرسالة وسلمها للوزير «بحر قفقان الريف» وزير الملك «سيف أرعد» للاحتفاظ بها .

وقبل وزير مدينة الحمراء الأرض بين يدي الملك «سيف أرعد» وقال :

ـ إني مستجير بك يا ملك من شر «قمرية» الباغية ..

فالتفت إليه الملك «سيف أرعد» وقال :

ـ ماذا حدث من «قمرية» ؟

ـ أنت تعلم يا مولاي أنها أنجبت ابناً من ملكنا «ذي يزن» اسمه «سيف» ، وقد أرتنا إياه بعد ولادته ، ومن يومها ونحن لا نراه .. وقد مرت عشرون عاماً وهي تسومنا الخسف والذل ، وتنهب أموالنا ،

وتكون جيشاً من العبيد والغلمان يضربون أهل المدينة ويحكمون في وجهائها وسراتها .. وكلما طلبنا منها أن ترينا ملكنا «سيف» وابن ملكنا « ذي يزن » رفضت بحجة او بأخرى ، حتى لنخشى أن يكـون قد أصابه مكروه ، وتنفرد هي بالحكم فينا بمثل ما تحكمنا به الآن من ظلم وعدوان ..

فالتفت الملك إلى الحكيم «سقرديوس» وقال له :

ـ لقد أرسلت «قمرية» إلى «ذي يزن» هدية ودسيسة .. وها هي تحكم الآن المدينة الحمراء منذ عشرين عاماً ولا تورد الخراج ، فلا بد أن نطلب منها المال المتجمع عندها كله .. فإن فعلت فلا بأس ، وإن لم تفعل فلنا حديث آخر ..

وكان الوزير «بحر قفقان الريف» يسمع الحديث ساكتاً ، فلما انتهى الملك من كلامه قال له :

ـ يا ملك الزمان ، هذه «قمرية» قد طمعت فيك ، وكبرت نفسها عليك .. فإن رفضت إرسال الخراج وأرسلت لها جنداً ربما كسرتهم بما حشدت من جند وعبيد ، فتنال بذلك من هيبتك وتنقص من قدرك ، وكفى ما حدث من الملك «أفراح» الذي اتحد هو و «سعدون» الزنجي وذلك الغلام «وحش الفلا» وقتلوا حاجبك مناطح البغال .. فقال الحكيم «سقرديوس» :

ـ لا بد أن يقتل «أفراح» و «سعدون» ، والغلام المسمى بـ «وحش الفلا» صاحب الشامة والذي تقول الكتب إنه يقضي على ملك الأحباش .

فقال الوزير «بحر قفقان الريف» :

ـ هذا رجم بالغيب لا يعلمه إلا زحل .. والغلام ذنبه ليس أعظم من ذنب «أفراح» و «سعدون» ولسنا نستطيع أن نحارب الملك «أفراح»

والملكة «قمرية» في وقت واحد ..

فقال الملك «سيف أرعد» :

ـ وبماذا تشير يا وزير «بحر قفقان الريف» .. ؟

فقال الوزير :

ـ أرى يا مولاي أن ترسل للملك «أفراح» بالأمان والعفو ، ثم تأمره بالهجوم على «قمرية» هو و «سعدون» الزنجي و «وحش الفلا» لتأديبها ، وكذلك أن ترسل للملكة «قمرية» وتأمرها بالاستعداد لحربهم .. فكل من هلك من الفريقين استرحنا منه ومن شره ، والمنتصر منهما ستضعف شوكته وتقل قوته ويسهل القضاء عليه ..

فأعجب هذا الاقتراح الملك «سيف أرعد» .. وأمر بإحضار الهدايا في الحال وإرسالها إلى الملك «أفراح» مع رسالة بالصفح عن ذنبه في قتل «مناطح البغال» ، والأمر له بأن يتأهب هو و «سعدون» الزنجي و «وحش الفلا» للهجوم على مدينة الملكة «قمرية» وإهلاك عساكرها وهدم قلاعها وحصونها ..

١٥

مفاجأة !

سلم حـاجب الملك « سيف أرعـد » الرسالة والهـدية إلى الملـك « أفراح » .. فلما قرأ الملك « أفراح » الرسالة فرح لخلاصه من غضب « سيف أرعد » ، واطلع عليها « سقرديون » و« سعدون » و« وحش الفلا » .. فقال « سقرديون » :

ـ أرى أيها الملك «أفراح» أن تحشد جيشك كله في خدمة الملك «سيف أرعد» وأن تأخذ معك «سعدون» و « وحش الفلا » كما طلب ، ثم تسير إليه قبل المسير إلى الملكة «قمرية» ليعلم طاعتك ويغفر زلتك ..

فقال الملك «أفراح» :

ـ أما جيشي فأنا أملك أمره ، ومن الغد سأحشده للهجوم على «قمرية» . وأما «سعدون» وابني «وحش الفلا» فالأمر في المسير يرجع لهما ..

فقال « وحش الفلا » :

ـ بل نحن نسير معك ، فليس منا من يقعد وأنت خارج للحرب والجلاد ..

فقال الملك «أفراح» :

ـ إذن فلنعد أنفسنا من الصباح ، وسنسير أول الأمر إلى الملك «سيف أرعد» حتى يعلم صادق إخلاصنا له ، ونأخذ منه الإذن بالهجوم على «قمرية» .

* * *

أمر الملك «سيف أرعد» حجابه أن يستقبلوا جيش الملك «أفراح» من خارج المدينة ، ويصحبوهم إلى الديوان .. فلما وصل الملك «أفراح» أجلسه الملك «سيف أرعد» في أعز مكان ، وأجلس «سعدون» و «وحش الفلا» إلى جواره ، وأمر بالطعام والمدام .. وهدأ بال الملك «أفراح» واستقرت نفسه ، وعلم أن الملك «سيف أرعد» قد صفا له ، ونسي قتل حاجبه «مناطح البغال» واستمرت الجلسة والمنادمة فترة طويلة ، والملك «سيف أرعد» يتأمل في «وحش الفلا» ثم قال له :

ـ أتعلم يا فتى إلى أين تسير أنت والملك «أفراح» و «سعدون» الزنجي ؟

فقال «وحش الفلا» :

ـ نسير يا مولاي إلى الملكة «قمرية» .

فابتسم «سيف أرعد» وهو يقول :

ـ وهل تقدرون على هزيمتها ودك مدينتها .. ؟

فقال «وحش الفلا» :

ـ لك عليّ يا ملك الزمان فتح مدينة الحمراء وإهلاك أهلها وقتل ملكتها ..

فقال «سيف أرعد» :

ـ هكذا يكون الكلام وسنرى منذ الغد فعالكم .. فعند الصباح تسيرون إلى مدينة الحمراء ..

وقال « سقرديون » لـ « سقرديوس » همساً :

ـ لماذا لم تعمل على قتل هذا الغلام ذي الشامة .. ؟

فهمس « سقرديوس » :

ـ إن لم تقتله « قمرية » فسيقتله « سيف أرعد » ! ..

° ° °

وفي الصباح سار جيش الملك « أفراح » وعلى رأسه « وحش الفلا » و « سعدون » الزنجي والملك « أفراح » وهم لابسون الحديد ، متقلدون بالسيوف والرماح ، والأرض ترتج تحت سنابك خيولهم ، والناس يتعجبون من جمال وحش الفلا وفروسيته البادية ، وقوته الظاهرة .. إلى أن وصلوا إلى مدينة الحمراء آخر بلاد اليمن ، فوقفوا أمام أسوارها العالية المحصنة ، وأمر الملك « أفراح » بضرب الحصار على المدينة ، بينما التفت « سعدون » إلى « وحش الفلا » وقال له :

ـ هيا بنا إلى الملك « أفراح » لنكتب لقمرية رسالة نرسل بها الرعب في قلبها ونتحداها للقتال ..

وسار الفارسان الصديقان إلى خيمة الملك « أفراح » التي أقيمت وسط خيام الجنود ، وأخبراه بما أسفر عليه عزمهما .. فأمر بالحاجب ليكتب الرسالة ، وأملاه الملك رسالة إلى « قمرية » يقول لها فيها :

أما بعد ، فاعلمي أن الملك « سيف أرعد » غضبان عليك لأنه يعلم ما فعلت بأهل الحمراء من ظلم وطغيان ، كما أنه يريد منك تقديم الخراج على أموالك وأموال المدينة منذ وفاة الملك « ذي يزن » صاحب المدينة إلى اليوم .. فإن جئت طائعة مختارة ، ودفعت كل الأموال المطلوبة نجوت أنت وبلادك ، وإلا فسنهدم مدينتك فوق رأسك هدماً ، وندك أسوارك والحصون دكاً .. »

وسلم الملك «أفراح» الرسالة إلى الحاجب ، وأمره أن يحملها إلى الملكة «قمرية» وأن يأتي برد الجواب ..

وحين وصل الحاجب إلى أسوار المدينة صاح على الحراس ، ففتحوا له الباب وقادوه إلى الملكة «قمرية» التي أخذت منه الخطاب وقرأته وأعادته إليه وهي تقول :

ـ عد إلى صاحبك معززاً مكرماً ، وقل له نحن لا نهدد بقتال ولا نخاف من الأهوال .. !

وعاد الحاجب إلى معسكر الملك «أفراح» وقصد إلى خيمة الملك حيث كان الملك «أفراح» يجلس مع «سعدون» و «وحش الفلا» فقال له :

ـ ما عندك من رد الخطاب .. ؟!

فقبل الحاجب الأرض ، وقال :

ـ إنها يا مولاي تقول انها لا تهدد بقتال ولا تخاف من الأهوال ..

فقال «وحش الفلا» :

ـ الغد موعدنا إذن .. وسأريها في الميدان ما يجعلها تندم على يوم ولادتها ..

وقام الملك «أفراح» يطلب النوم ، فانصرف «سعدون» و «وحش الفلا» وقصد كل إلى خيمته ..

° ° °

وما كاد المجلس يستقر بـ «وحشُ الفلا» في خيمته حتى دخل الخادم عليه قائلاً :

ـ يقف بباب الخيمة رجل جليل القدر يريد المثول بين يديك ..

فقال له «وحش الفلا» :

ـ أما ترى أنني متعب من جهد هذا النهار في إعداد العسكر وترتيب أمر معركة الغد ؟ .. أخبره أن يأتي في الصباح ..

فخرج الخادم ، ولكنه ما لبث أن عاد يقول :

ـ يا سيدي هذا الذي بالباب يقول انه الملكة « قمرية » ..

فقال له « سيف » :

ـ عليّ بها .. أدخلها ..

وعاد الخادم ومعه الملكة « قمرية » التي قبلت الأرض وسلمت ، فلما رد « وحش الفلا » سلامها ، قالت له :

ـ لقد سألت عن أمر جيشكم هذا ، فعلمت أنك قائده الحقيقي ، وأن الملك « أفراح » والمقدم « سعدون » لا يأتمرون إلا بأمرك ، كما علمت أنك فارس الفرسان ، ماهر في الحرب والصدام ، ولهذا جئت إليك لنحقن دماء الجنود ..

فقال لها الملك « سيف » :

ـ وماذا تريدين .. ؟

قالت الملكة « قمرية » بصوت متكسر ناعم :

ـ أريد أن تصارعني وأصارعك ، وكل من قهر صاحبه يحكم فيه بما يرى ..

وجعلت « قمرية » تخلع ثيابها قطعة قطعة ، فتظهر مفاتن جسدها ، وهي تتأود وتتثنى واثقة من سحر جمالها ، وروعة حسنها .. وقد عزمت على أن تقهره بسلاح الجسد وفتنة الحسن .. إلى أن وقفت أمامه في غلالة رقيقة شفافة لا تستر شيئاً من جسدها العاري الجميل ، وقالت له في صوت متكسر :

ـ والآن أيها الفارس الجميل دونك والصراع ..

فقال « وحش الفلا » وهو يتعلثم في حديثه :
ـ معاذالله أن أصارعك وأنت عريانة البدن ..
فضحكت « قمرية » في مجون ، وهمست بصوت كله إغراء وفتنة :
ـ هل تجبن أيها الفارس الجميل عن مصارعة امرأة .. ؟!
فقال « وحش الفلا » وقد احمر وجهه :
ـ إنني لا أصارع النساء .. !
فعادت « قمرية » تضحك متأودة وتقول :
ـ أتحسب أنك تقوى عليّ ، أنظر ذراعي وقوته ...
ومضت تفرد ذراعها البض أمامه وهي تتأود ، ثم تهمس :
ـ أنظر ساقي وفتوته ..
وينحسر الثوب الشفاف عن ساقها المرمرية .. ويجف حلق « وحش الفلا » وتندلع في رأسه نار ، وينسى نفسه ، ويمضي يخلع ثيابه وهو يأكلها بعينيه ، وما أن خلع ملابسه حتى وقف أمامها عارياً وقال :
ـ دونك إذن والصراع .. !
فأقبلت عليه وقد أحست بالنار التي أوقدتها في صدره ، وعرفت أنه أصبح طوع بنانها وملك إشارتها .. ولكنها ما كادت تقترب منه حتى وقفت ذاهلة ، وكأنما لدغها ثعبان وقالت :
ـ ما هذا الذي في رقبتك ، ومن أين حصلت عليه ..
ووقف « وحش الفلا » مذهولاً من تحولها المفاجئ ، ولمس بيده العقد الجوهر في رقبته وهو يقول :
ـ إن هذا العقد كان في رقبتي منذ ولادتي ولا أعلم من وضعه ، ولكن أبي الملك « أفراح » أمرني ألا أخلعه أبداً .. !
فهتفت « قمرية » :

ـ ليس الملك «أفراح» بأبيك ، بل إن أباك زوجي الملك «ذو يزن» ، وأنت ابني «سيف» وفي خدك العلامة ، هذه الشامة ..

وقال «سيف» كالمسلوب :

ـ أمي .. أنت أمي .. كيف هذا ؟

فمضت «قمرية» تحكي له قصة قدومها على أبيه «ذي يزن» وكيف أحبها وجعلها الملكة ثم كيف مات وهو يوصي به ، ثم كيف ولدته وسجد له أهل المملكة جميعاً .. ثم قالت مخادعة :

ـ وقد وضعت لك هذا العقد في رقبتك وهو عقدي ، وانتابني الجنون فرميتك في الخلاء كما زين لي شيطان الجنون .. ومن يومها وأنا حزينة نادمة ، أنا على استعداد أن أدفع عمري كي أسترجعك . وها هو زحل قد أراد بي الخير فردك لي فارساً ملء العين ..

وكان «وحش الفلا» يقف ذاهلاً ، وهي تقبله بين عينيه ، وتبكي متظاهرة بالفرح وهي تقول :

ـ نعم ، أنت ابني وقرة عيني «سيف بن ذي يزن» .. وهذه المدينة الحمراء مدينتك بناها أبوك ، وأنت وحدك حاكمها ومالكها ، ولا بد من عودتك إلى ملكك وتوليتك كل أمرك ..

فقال «سيف بن ذي يزن» :

ـ هذا كلام أغرب من الخيال ، وأعجب من المحال .. وكيف تريدين مني أن أصدقه .. ؟

فقالت «قمرية» وهي ترتدي ثيابها :

ـ إن حجاب أبيك موجودون وهم يعرفون فيك علامات ، وأنت تشبه أباك كل الشبه – وسأتركك الآن لأحضرهم لك يتحققون منك

ويتعرفون عليك .. ألا يرضيك هذا الدليل .. ؟ .

قال «سيف» :

ـ بل يرضيني ، فاذهي وأحضريهم ..

وعادت «قمرية» تقبله وتبكي وتظهر الفرح ، ثم غادرته لتحضر الحجاب والشهود .. بينما وقف «سيف» حائراً وسط خيمته ، وقد تبلبلت أفكاره واضطرب ذهنه .. وتذكر كيف كاد يهم بأمه فخجل وبكى ، ومضى يدور حائراً ، وقد تنازعت نفسه عوامل الخجل والحنان إلى لقاء أمه التي لم يرها قط ، ومضى يسائل نفسه :

ـ أحقاً لست ابن الملك «أفراح» وليست «الغزالة» أمي ؟ .. إن ما تقوله «قمرية» ينطبق على ما قاله الشيخ «عبد السلام» .. نعم أنا «سيف بن ذي يزن» وهذه أمي التي رمتني كما تقول لأموت ، ولكنها أمي .. وكدت أهم بها ، ما أبشع هذا .. !

ومضى يبكي حائراً قلقاً دون أن يجرؤ على النوم في انتظار عودة «قمرية» بشهودها الحجاب الذين يعرفون فيه العلامة ليتحقق من صدق كلامها وصحة دعواها ..

١٦

مؤامرة !

ما أن وصلت الملكة «قمرية» إلى قصرها حتى أمرت باستدعاء الحجاب الأربعة الذين كانوا يخدمون الملك «ذا يزن» .. وظلت تسير في ديوانها لا يستقر لها قرار حتى أعلن الحجاب حضورهم ، وأنهم ينتظرون في القاعة خارج الديوان ..

وكان هؤلاء الأربعة هم حجاب «ذي يزن» الخواص ، يكل إليهم مهام الأمور ، ويعتمد عليهم في جليل الأعمال ، لما كان يعلم من محبتهم له وإخلاصهم لملكه ، وكانوا قد انعزلوا بأنفسهم عن قصر «قمرية» منذ أحسوا أنها تخفي ابن ملكهم وصاحب الحق الشرعي في حكمهم ، وبعد أن ترك الوزير «يثرب» المدينة يأساً منه في عدل «قمرية» وسافر إلى مدينته التي بناها في عهد الملك «ذي يزن» ؛ مدينة يثرب .. وقد أدهشتهم الدعوة المفاجئة في الليل ، إلا أنهم كانوا يعلمون أن المدينة محاصرة فظنوا أن «قمرية» تريد أن تستعين بهم في حث أهل المدينة على الوقوف معها ومع جنودها المرتزقة .. إلا أن «قمرية» لم تتح لهم الفرصة ليتشاوروا فيما يفعلون ، بل أمرت بإدخالهم في الحال ..

ودخل الحجاب الأربعة تسبقهم ملامح الهيبة والوقار ، وحيوا «قمرية» في ادب ، ثم وقفوا في انتظار أن تبدأ الكلام ..

وجلست «قمرية» وسط الديوان ، وأمرتهم بالجلوس كلاً في مكانه المعتاد أيام الملك «ذي يزن» ونظر الحجاب إلى بعضهم في دهشة ، ولكنهم جلسوا ممتثلين ولحديثها منتظرين ..

وقالت «قمرية» :

ـ لقد طلبتم مني كثيراً أن أريكم ابني الملك «سيف» .. ولكني لم أكن أريه لكم لأنني لم أكن أعرف مكانه .. فقد اختطفته جارية – بعد مرور أربعين يوماً على ولادته – ولم أعثر له على أثر ..

فقال أكبرهم سناً :

ـ ولماذا يا ملكة لم تخبرينا لنبحث عنه في كل مكان ..

فقالت «قمرية» :

ـ لقد ظللت أبحث عنه طوال هذه السنين ، وقد عثرت عليه أخيراً ولهذا جمعتكم ...

فهبوا جميعاً واقفين ، وقد انطلقت في أساريرهم معالم البشر وأمارات السرور ، وقال أكبرهم سناً :

ـ وأين هو يا مولاتي ؟ .. أرينا إياه لنقبل الأرض بين يديه ونسلم الأمانة إليه .. فما نحن إلا بعض عبيد أبيه ، وما هذه المدينة وما فيها إلا ملك يمينه .

فقالت «قمرية» :

ـ ولهذا الأمر طلبتكم ، فقد عزمت على إعادة ملك أبيه له ، وتسليمه أمواله ومدينته ، ولكنه لا يصدق كلامي .. فأريد منكم أن تأتوا الآن لنذهب إليه ولتتعرفوا عليه ..

فقال أحدهم :

ـ نعرفه بالشامة على خده ..

وقال الآخر :

ـ وبالشبه يجمع بينه وبين أبيه ..

فقالت « قمرية » :

ـ إذن هيا بنا إليه ..

فقال أكبرهم سناً :

ـ ولكنك لم تخبرينا يا ملكة أين هو .. أين الملك « سيف بن ذي يزن » ..

قالت « قمرية » وهي تتأهب للقيام من مجلسها :

ـ إنه قائد الجيش الذي يحاصر المدينة ..

٠ ٠ ٠

كان « سيف » ما يزال يسير في خيمته ، والقلق والحيرة تعصفان بقلبه ونفسه ، والفرحة والخجل يملآن صدره ، حين أخبره الحارس أن « قمرية » ومعها أربعة من الفرسان قد طلبوا مقابلته ، فأمره بإدخالهم ، واستعد للقائهم ..

وحين دخلت « قمرية » إلى الخيمة ، أسرعت إلى الملك « سيف » تقبله وتحتضنه وهي تشهق بالبكاء ، وتقول وسط الدموع الزائفة .

ـ ولدي وقرة عيني .. أهذا أنت ، أراك أمامي حقيقة وألمسك بيدي لمس اليقين .. ما أسعد ليلتي ، لقد ردّ الله غربتك ؛ كم تعذبت كم بكيت ، كم شقيت لبعدك يا ولدي الحبيب .

فرد الملك « سيف » ذراعيها وهو يقول :

ـ أين يا ملكة ما وعدتني به من دليل .. ؟!

فأشارت « قمرية » بيدها إلى الحجاب الأربعة وقالت :

ـ ها هم حجاب أبيك العظيم «ذي يزن» ملك اليمن ، وأخلص رجاله وأعز أحبائه ..

فالتفت إليهم ، وما كادوا يتحققون من شكله ، حتى خروا أمامه ساجدين وللأرض مقبلين ، وقال أكبرهم سناً :

ـ مرحباً بك يا مولاي ، كأني بالملك «ذي يزن» بلحمه وشحمه وهو في أوج شبابه .

وقال أحدهم :

ـ والشامة على خدك نعرفها منذ ولادتك ..

وقال الثاني :

ـ وملامح الشهامة التبعية تبدو في عينيك ، وتلوح في وجهك ...

وقال الثالث :

ـ أنت يا مولاي بلا جدال الملك «سيف بن ذي يزن» التبعي اليماني ..

وعاد أكبرهم سناً يقول :

ـ وهذه المدينة مدينتك والملكة «قمرية» والدتك .. فقم وادخل المدينة بعسكرك وجندك فلن يقف أمامك أحد ، واحكم فينا بعدل التابعة الصناديد ..

وبلغ ذهول الملك «سيف» مبلغه ، وعادت «قمرية» تعانقه وتقول له :

ـ يا ولدي وفلذة كبدي ، لقد أراد زحل أن يرد غيبتك ويعيدك لأمك ومدينتك فقم إلى بلدك وتول أمور ملكك ..

فقال الملك «سيف» :

ـ سبحان الذي يفعل ما يريد ، ويسبب لكل شيء سبباً ..

وهب الحجاب يستأذنون في الذهاب إلى المدينة لإعلان الخبر العظيم إلى أهلها ، ففي يوم واحد يعود لهم ملكهم ويرفع الحصار عن مدينتهم ، فقالت «قمرية» :

ـ انتظروني بالخارج فسأعود معكم لأخبر الناس بنفسي ..

وخرج الحجاب الأربعة ينتظرون عند باب الخيمة ، وهم يهنئون أنفسهم ويتبادلون عبارات الفرح والاستبشار ، بينما التفتت «قمرية» إلى الملك «سيف» وقالت له :

ـ يا بني إنني نادمة على ما فعلت معك ، وأريدك أن تنسى وسوسة الشيطان لي .. وأنا أمك قبل كل شيء ، فما فعلت بك ما فعلت إلا خوفاً من وزراء أبيك أن يبعدوني عن المدينة وأنا في نظرهم غريبة .. ثم لقد وسوس لي الشيطان وأنساني نفسي ، ومن يومها يا بني وأنا نادمة باكية ..

وأخذت «قمرية» تبكي بين يديه ، وهو قد أحس بالحنان في قلبه لها ، ونسي من رقته وسلامة طويته ما فعلته به ، وقال لها :

ـ لقد سامحتك في كل ما فعلت معي ، وإن كان مرادك ملك أبي فخذيه فأنا في غنى عنه .

فقالت «قمرية» :

ـ وكيف هذا يا بني ، إن كل مرادي أن أكون إلى جوارك وأن تصفح عني ويصفو قلبك لي ، وإن أردت أن تقتلني على ما فعلت بك .. فها أنا ذا أمامك افعل بي ما تشاء ..

فصفا قلب «سيف» واطمأن لها ، وقال :

ـ بل مكانك في قلبي ، فأنت أمي ...

وأحست «قمرية» أنها خدعته وتمكنت حيلتها منه ، فقالت له :

ـ سأذهب الآن يا ولدي إلى المدينة لأبلغ أهلها بخبر العثور عليك ،

ثم أعود لأقودك إلى حيث مال أبيك حتى تعطي وتبذل لكل الناس في هذا اليوم ليصبح لهم يوم عيد !

فقال «سيف» :

ـ وأين مال أبي .. ؟

قالت «قمرية» :

ـ لقد خبأته في مكان أمين ، وسأحكي لك قصته حين أعود لأقودك إليه ..

° ° °

صحبت الملكة «قمرية» الحجاب الأربعة في طريقهم إلى مدينة الحمراء ، وكان الحجاب يتبادلون الأحاديث في فرح وبهجة .. بينما كانت «قمرية» تركب فرسها في صمت وتفكير .. وما قاربوا سور المدينة حتى قالت الملكة :

ـ أخفوا وجوهكم عن الحرس ، فكما خرجنا خفية ينبغي ألا ندخل إلا خفية ..

فقال أكبر الحجاب سناً :

ـ ولكن لماذا الخفية ونحن نحمل للمدينة أحسن الأخبار .. ؟!

فردت عليه «قمرية» قائلة :

ـ أنسيت أننا نعادي الآن الملك «سيف أرعد» ، ولو عرف بأن «سيف بن ذي يزن» قد ظهر أنه ابني ، وأننا اتفقنا وسلمنا له المدينة لخاف على خراجه وأرسل يحاربنا ويقاتلنا ، ولسنا مهما قويت شوكتنا من أنداده ..

فقال الحاجب :

ـ لقد أصبت الحقيقة أيتها الملكة الرشيدة ، فلنخف إذن وجوهنا حتى لا يعلم أحد بخروجنا .. !

وابتسمت «قمرية» لنفسها في الظلام وهم يخفون وجوههم وراء اللثام ، وصاحت هي بالحراس ليفتحوا لها الباب ، ثم سارت أمامهم إلى قصرها ، وأدخلتهم إيوانها .. وما أن استقر بهم المجلس في الإيوان حتى قال أكبر الحجاب :

ـ والآن يا ملكة ألا ننصرف لنزف البشرى إلى الناس ؟

فقالت «قمرية» في خبث ودهاء :

ـ لن تنصرفوا قبل أن تأخذوا الحلوان على هذه البشرى !

ودخلت «قمرية» فاستدعت جاريتها ، وأمرتها أن تحضر لهم الشراب والطعام وأن تدس السم المهلك فيه ، ثم عادت إليهم وهي تقول :

ـ إن أقل ما أستطيع أن أعبر به عن فرحتي بعودة ابني سالماً ، أن تأكلوا وتشربوا على مائدتي .. !

وبلغ السرور بالحجاب منتهاه ، وصفت نفوسهم ، وانطلقوا يتبادلون الحديث في صفاء وود مع الملكة إلى أن دخلت الجارية بالطعام والشراب . فأتوا عليه ، وأقبلوا يأكلون ويشربون وهم عن غدر الدهر غافلون ، وما أن انتهى طعامهم حتى رقدوا على جنوبهم مصروعين .. فصفقت «قمرية» بيديها والشر يلمع في عينيها .. وحين أقبلت الجارية قالت لها :

ـ أعينيني على رميهم في الجب دون أن يرانا أحد في القصر ولك عندي بدرة مال ..

وتعاونت «قمرية» مع الجارية في نقل الحجاب واحداً إثر الآخر ورميهم في الجب .. وما ان استقر جسد الأخير في قاع الجب حتى استلت «قمرية» خنجرها وغرسته في ظهر الجارية ، وهي تكتم

فيها بيدها تحبس صرخة الموت وحشرجة الفناء .. ثم قذفت بها وراءهم ، وعادت تبتسم لنفسها وهي تقول :

ـ والآن جاء دورك يا ابن «ذي يزن» ، أتريد ملكي ومالي ؟ .. والله إن لم أهلكك لملكت مدينتي ، وجعلتني أعيش عمري حزينة متحسرة .. !

ثم ركبت فرسها وتقلدت بعدة جلادها ، وعادت تغادر المدينة قاصدة خيمة الملك «سيف» ..

• • •

قال الملك «سيف» :

ـ لقد أسرعت في العودة يا ملكة ..

فقالت «قمرية» ..

ـ بل قل يا أمي ، فأنت فلذة كبدي وقطعة من قلبي . أنا ما عدت سريعاً إلا لأسير بك حيث مال أبيك ، حتى ألزم أنا يا بني مكاني في الحريم مع جواري ..

فقال الملك «سيف» :

ـ وأين هو هذا المال ؟

قالت «قمرية» :

ـ لقد دفنته في أرض بعيدة .. وهو خمسون صندوقاً من الذهب الأحمر وبعد أن دفنته وضعت للرجال الأربعين الذين اشتركوا في دفنه السم في الطعام ، فما أكلوا حتى هلكوا عن آخرهم .. ؟

فقال الملك «سيف» :

ـ وكيف يا ملكة تقتلين الرجال دون جريرة ولا إثم .. ؟

فقالت «قمرية» :

ـ ما فعلت هذا إلا خوفاً من ملك الحبشة ، يعرف بخبر المال منهم فيطمع فيه ، ويغزو مدينتي ويقتلني .. أما وقد ظهرت أنت ، فالمال الآن مـالك .. فهيا اركـب معي ادلك عليه .. حتى تغـدق على أهل المدينة في الصباح فيظل ذكرك على لسانهم ، وتظل سيرتك في قلوبهم ..

قال الملك «سيف»

ـ إذن هيا بنا قبل أن يطلع الصباح ..

فقالت الملكة «قمرية» .

ـ لي شرط واحد يا بني ..

قال «سيف» .

ـ وما هو ..

قالت «قمرية» .

ـ ألا يعلم أحد بخروجنا .. فنحن لا نأمن من جواسيس الملك «سيف أرعد» ..

فقال لها الملك «سيف» وهو يتقلد بحسامه استعداداً للخروج معها .

ـ لن يعلم أحد بخروجنا ..

• • •

أخذ الجوادان يشقان طريقهما وسط الظلام في حذر ، حتى غادرت «قمرية» ومعها الملك «سيف» معسكر الملك «أفراح» دون أن يلحظهما أحد من الجند أو الحراس ..

وحين أوغل الملك «سيف» و «قمرية» في السير في الصحراء ، خشي «سيف» أن يفقدا الطريق ويتوها في الصحراء فقال :

ـ لقد طال بنا السير ولم نصل .. فهل المكان قريب ؟

فقالت «قمرية» :

ـ لقد أوشكنا يا بني أن نصل ..

ثم أخذت تسليه بالكلام ، وتلهيه بزخارف الحديث ، حتى وصلا إلى شجرة ضخمة مهولة .. وقد أوشك الصباح أن يطلع وأخذ نور الفجر يظهر في الكون ، وقالت «قمرية» .

ـ لننزل هنا يا بني لنستريح فقد أمضني التعب ، وأنا على كل حال امرأة لا جلد لي على طول السير ومشقة الرحلة ..

فأطاعها الملك «سيف» ووقف بفرسه عند الشجرة حيث وجد ماء ، وترجل عن جواده وأخذ يشرب من الماء وقد انحنى على حافة الغدير . أما «قمرية» فتقدمت منه على حذر ، وقد جردت حسامها من غمده ، ونزع الله الرحمة من قلبها ، وضربته بالسيف على رأسه فانشقت رأسه .. وأراد أن يتحول إليها فضربته ضربة ثانية وقعت بين أكتافه فقطعت في لحمه وشقت عظمه .. ثم ضربته الضربة الثالثة ، فصاح الملك «سيف» صيحة كالرعد ، إلا أنها عاجلته بالضربة الرابعة على صدره فوقع على الأرض غائباً عن الصواب فاقداً للوعي مضرجاً بدمائه فعادت تضربه بسيفها وقد ملأ الشر قلبها ، فجاءت الضربة على ظهره وانكسر الحسام من يدها ..

ووقفت «قمرية» ترقبه وهو مضرج بدمائه ، غارق في لجة من الدم الأحمر القاني ، وقد سكن جسده فظنت أنه مات .. واعتدلت على حصانها وهي تبتسم كالشيطانة وتقول في حقد :

ـ لقد أفلت مني مرة ، أما هذه المرة فقد ألحقتك بأبيك ..

واستدارت بحصانها متجهة إلى المدينة ، وما وصلتها إلا والشمس قد طلعت وملأت الدنيا بالنور ..

فتح الملك «سيف» عينيه على ألم فظيع يحس به في كل جزء من جسده ، وحاول أن يحرك قدميه فلم يستطع ، وحاول أن يرفع ذراعه فلم يستطع .. فالتفت حوله ، فإذا بالأرض كلها غارقة في بركة من دمائه فتأوه الملك سيف من الألم ، ورفع عينيه إلى السماء يدعو الله ألا يطيل عذابه ، وأن يسرع بموته إن كان قد كتب عليه الموت في هذا المكان ، أو أن يمن عليه بوسيلة للشفاء .. وبينما هو في تضرعه ودعواه ، إذ بطائرين قد أقبلا من البراري المقفرة وحطا على غصن في الشجرة التي يرقد تحتها .. وقالا في صوت واحد وهما يستقران على الغصن :

ـ لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإبراهيم نبيه ..

فانتبه الملك «سيف» وقد أخذه العجب من الطائرين العجيبين اللذين يتحدثان كالناس ، وإذا بأحدهما يقول للآخر :

ـ أرأيت يا أخي ما فعلته هذه الملعونة «قمرية» بابنها وكيف ضربته بالسيف حتى أثخنته بالجراح .. ؟

فقال الطير الآخر :

ـ لا تعترض على حكم الله ، واعلم أن أمه «قمرية» تدبر له سبع مهالك ، أولها وهو طفل صغير حين رمته في الصحراء فأرسل الله الغزالة أرضعته والجنية ربته والملك «أفراح» احتضنه وأنشأه ، والثانية هي هذه ، قادته إلى هذا المكان ، وضربته بالسيف البتار حتى ظنت أنه مات فتركته في بركة من دمه ..

° ° °

وكان الملك «سيف» يسمع حديث الطائرين وهو يعجب في نفسه كيف تتحادث الطيور حديث الآدميين ، وقد دخله شك كبير في أنه

يعرف الصوتين ، وأنه سمعهما من قبل ، وما لبث أن سمع الطائر الأول يقول :

ـ صدقت يا شيخ «جياد» وهذا فعل أهل الكفر والعناد ..

فقال الطائر الآخر :

ـ هنا يا شيخ «عبد السلام» دواؤه .. فورق هذه الشجرة لو مضغه بأسنانه ثم وضعه على الجرح لشفي بأمر الله القدير ..

وتذكر الملك «سيف» الصوتين .. كانا للشيخين «جياد» و «عبد السلام» وقد قابلهما في رحلته إلى مدينة قيمر وقام بدفنهما بعد أن ماتا ، فتعجب من قدرة الله ، وشكر للمولى أن حفظه ورعاه ، وأرسل له من يدله ويرشده ..

وحين التفت الملك «سيف» إلى الشجرة كان الطائران قد غادرا الغصن ، وهبت ريح عاتية هزت الشجرة كلها هزاً ، وتساقطت أوراقها من حوله بكثرة .. فأخذ الملك «سيف» من الأوراق ومضغها في فمه ، ومضى يضعها على الجروح فتطيب في الحال ويختفي أثرها ..

وجعل الملك «سيف» يداوي جراحه بورق الشجر واحداً إثر الآخر وهو يحمد الله ويشكره ، حتى استطاع أن يجلس ويتفقد المكان حوله وإذا به يلمح فرسه يرعى الحشائش عن بعد .. إذ تركته «قمرية» خوفاً من أن يعرف رجاله أن مكروهاً وقع به عندما يعثرون على الفرس دون الفارس .. فأسرع إليه ، وأصلح عدته ، ثم ركبه وسار يضرب في الأرض وهو لا يعلم أين هو ولا إلى أية وجهة يتجه ..

° ° °

ومضى الملك «سيف» يسير وهو يقتات من نبات الأرض ويشرب من عيون الماء مدة ستين يوماً حتى ضاق بالأمر ، وتولاه اليأس ،

وملأته الحيرة .. وإذ به يرى جبلين عاليين ، أحدهما أبيض عن يمين ، والثاني أسمر عن يسار .. وبين الجبلين بحر متلاطم الأمواج .. وكان سيره يؤدي إلى الجبل الأحمر ، فسار إليه ومضى يصعد عليه وقد لمح في قمته بيتاً من الحجر وفي وسطه عامودِ طوله عشرون ذراعاً ، وكان كلما ارتفع في صعوده ظهر البيت والعامود واشتد وضوحهما .. ونظر «سيف» إلى الجبل الآخر فإذا على قمته قصر عجيب غريب ، وفي وسطه عامود كذلك الذي يتوسط البيت الحجري .. فتعجب الملك «سيف» واندهش ، إلا أنه واصل صعوده حتى وصل إلى ذلك البيت ووقف ببابه وهو يصيح :

ـ يا من تسكنون هذا البيت عليكم السلام ..

فسمع صوتاً يرد عليه :

ـ أهلاً وسهلاً بالملك «سيف بن ذي يزن» ..

وبينا «سيف» في دهشته فتح الباب ، وخرج منه شخص طويل القامة ، على وجهه آثار العبادة ، فقال له :

ـ كيف عرفت اسمي حتى قبل أن تراني .. ؟

فرد عليه قائلاً :

ـ إن لي عشرين عاماً هنا أنتظرك حتى أساعدك في قضاء حاجتك ، ومن قبلي كان ينتظرك أبي ومن قبله جدي .. والآن أدخل لتستريح من عناء السفر وتأكل من الزاد ما يسد رمقك ..

وقاده إلى داخل الدار حيث وجدها مفروشة أحسن الفرش ، وحيث وجد الطعام معداً ، فجلس إليه وأقبل عليه إقبال الجائع الذي لم يأكل طعاماً ستين يوماً كاملة .. بينا كان رفيقه يحادثه أثناء الطعام ويقول له :

ـ لقد كان أبي وكيلاً على هذه الذخائر التي هي باسمك في هذا المكان ، وأنا ورثت هذا التوكيل من بعده ..

فقال الملك «سيف» :

ـ ومن صاحب هذه الذخائر التي تتحدث عنها .. ؟

فرد عليه قائلاً :

ـ إنها ذخائر جدك الأعلى سام ابن نبي الله نوح عليه السلام : وقد أوصى بها لك بعد مماته ..

فقال الملك «سيف» :

ـ وتريد أن تقول ان جدك عاصر الملك سام ..

فقال له :

ـ بل ورثها عن أبيه عن جده جيلاً بعد جيل ..

فقال «سيف» وهو يأكل :

ـ وما اسمك بين الحكماء ؟

فقال الرجل :

ـ اسمي «إخميم الطالب» .. وبعد أن تستريح الليلة سأقودك في الصباح إلى الذخائر المرصودة باسمك بإذن الله ..

• • •

وما أن أشرق الصباح حتى قاد «إخميم الطالب» الملك «سيف» إلى العامود في وسط البيت ، فرآه مليئاً بكتابة غامضة كالطلاسم ..

فالتفت إلى «إخميم» وقال له ..

ـ ماذا تريدني أن أفعل أيها الحكيم ؟

فقال له «إخميم» :

ـ أنظر إلى هذا العامود إن كنت تستطيع أن ترقاه ..

فقال «سيف» :

ـ هذا سهل فإني أرى درجات خارجية منه ، كما أرى حلقات أستطيع أن أعتمد عليها في صعودي ..

فقال له «إخميم» :

ـ هذه أولى العلامات لأن غيرك لا يرى هذه الدرجات والحلقات فاصعد باسم الله .. وظل الملك «سيف» يصعد حتى وصل إلى قمة العامود ، فقال له «اخميم الطالب» :

ـ ماذا ترى في آخر العامود ؟

قال الملك «سيف» :

ـ أرى نقشاً في الحجر كأثر قدمين في الرمال ..

فقال له «إخميم» :

ـ إذن ضع قدميك فوق الأثر ..

ففعل الملك «سيف» هذا ، وإذ بقدميه تقعان فوق الأثر تماماً ، فأخبر بهذا الحكيم «إخميم» الذي قال له :

ـ أنظر أمامك ، ماذا ترى على الجبل الآخر ؟

قال «سيف» :

ـ أرى أمامي عاموداً كهذا العامود ، كما أرى عليه نقشاً لقدمين كالنقش الذي أقف عليه ..

قال «إخميم» ..

ـ إذن اقفز هذه المسافة ..

ـ وتحتي هذا البحر المتلاطم .. ؟!

فقال «إخميم» :

ـ توكل على الله واقفز ، فما أنشئ كل هذا إلا من أجلك ..

ونظر الملك «سيف» إلى السماء ، وأسلم أمره إلى خالقه ثم قفز بكل قوته .. وإذ به يجد نفسه واقفاً فوق القدمين المنقوشتين على أعلى العامود الآخر وامامه القصر العجيب الغريب ، فحمد الله وشكره والتفت عن يمينه ، فإذا به يجد «إخميم الطالب» إلى جواره كأنه قرينه ، فقال له :

ـ ماذا ترى يا «إخميم» ؟

فقال «إخميم الطالب» :

ـ يا ولدي أنت الذي دلت عليك العلوم والأفلاك ، فانزل يا سيدي إلى القصر واطرق بابه ، فإذا سمعت القائل يقول : من بالباب ؟ .. فأخبرهم باسمك وحسبك يفتحونه لك ، فادخل ولا تخف .. والتفت إلى يمينك تجد سريراً مقاماً ، فاقصد إليه وارفع الستائر عنه ، وقف إلى يمينه ، وقل له : يا ملك أنا الذي تجاوزت له عن ذخيرتك بعد انتقالك من دار الفناء إلى دار البقاء ، فإن سمحت نفسك فاعطني ما وعدتني من الذخيرة .. فيحرك يده الشمال ثم يده اليمين ، فانظر إلى صدره تجد لوحاً من الذهب الأحمر وله سلسلة من الفضة .. فأخرج السلسلة وفكها من رقبته ، وخذ اللوح وقل له . جزاك الله الجنة .. واخرج في الحال ولا تلتفت إلى اليمين أو اليسار ..

فنزل الملك «سيف» من فوق العامود ، وسار إلى القصر ودخله ، فوجد ما أخبره به «إخميم» .. فأخذ اللوح من عنق الملك المسجى على السرير وعاد به إلى «إخميم» الذي قال له :

ـ ضع اللوح هنا أمامي .. وعد ثانية إلى القصر ، فستجد إلى جوار السرير سيفاً في قرابه ، فقل للملك : يا ملك اسمح لي أن آخذ السيف وأجاهد به في سبيل الله ، فيحرك ذراعه ، فامض وخذه وتقلد

به ، وعد في الحال ، وإياك أن تفعل خلاف هذا ، وحذار أن تجرد السيف من غمده ..

فمضى الملك «سيف» إلى داخل القصر كما أمره «إخميم الطالب» وأخذ السيف كما علمه ، إلا أن شكل الغمد لم يعجبه ، فقد بدا وكأنه قد أكله الصدأ ، فأراد أن يرمي بالغمد ، وإذا بالصدأ الذي عليه يقع عندما حاول تجريد السيف ، وامتلأ المكان بصرخات كالرعد فأسرع يعيد السيف إلى غمده وقد تكشف له الصدأ عن ذهب خالص فرح به ، وسمع صوتاً يقول :

ـ يا ملك «سيف» لا تجرد الحسام هنا مرة أخرى ، واخرج قبل أن يصيبك مكروه ..

فاتجه «سيف» إلى باب الخروج ، ولكنه قبل أن يخرج عاد ينظر إلى السرير وقد ملأه الفضول وتملكته غريزة حب الاستطلاع ، وتردد لحظات ثم ما لبث أن غلبه الضعف الإنساني فعاد إلى السرير وقد قرر أن يرى وجه هذا الملك الذي يحرك يده وهو ميت ، ليعرف هل هو حقاً ميت أم حي ؟ ..

اقترب الملك «سيف» من السرير ورفع اللثام الأول عن وجه الملك ، ثم أخذ يرفع اللثام الثاني ويده ترتجف ، ومد يده إلى اللثام الثالث فامتلأ قلبه بالرعب وحاول أن يرفعه لينظر في وجه سام بن نوح ، فإذا به يحس بالسرير يرتج ، والقصر كله يهتز ، وسمع صوتاً يصرخ فيه :

ـ يا قليل الأدب ، هل بلغت بك الجرأة أن تكشف عن وجوه أولاد الأنبياء بعدما أولوك الجميل والإحسان .

وأحس الملك «سيف» أن الأرض قد خسفت به ، وأنه يطير في الهواء تتقاذفه أيد جبارة لا يراها ، وقد امتلأ المكان بالصرخات

والزعقات واهتزت جنبات القصر كله كأن شيئاً يهزه ويهدمه .. وسرعان ما رأى نفسه مرمياً خارج باب القصر ، وغاب عن الوعي ..

وعندما فتح الملك «سيف» عينيه ، رأى «إخميم الطالب» جالساً عند رأسه يرقبه ، فلما رآه «إخميم الطالب» قال له :

ـ ألم أحذرك يا ملك ؟! والآن هذا فراق بيننا ..

فقال «سيف» :

ـ كيف تتركني يا حكيم هنا ، وأنا لا أعرف كيف أعود .. !

فقال «إخميم» :

ـ هذا قدرك تتحمله وحدك ، ولولا أنك تتقلد بهذا السيف لكنت مت من زمن ..

واعتدل «سيف» في مكانه ليرد على «إخميم» فلم يجده ، فقام يبحث عنه . ولكن «إخميم» كان قد اختفى ، وأحس «سيف» بالوحدة والوحشة . وجعل يتجول حول العامود وهو لا يستطيع الاقتراب من القصر . وعندما يئس من وجود منفذ تحول إلى العامود وصعد عليه ، وامتلأ قلبه بالرعب وأحس بأقدامه ترتجف من تحته وأيقن أنه لن يستطيع الوثوب ، وإن وثب فلن يصل إلى العامود الآخر كالمرة الأولى ، فنزل يائساً وارتمى إلى جوار العامود وهو يبكي كمداً وقهراً ..

وظل في مكانه إلى أن ادركه الليل ، فنام نوماً متقطعاً قلقاً وصوت البحر من حوله يتعالى وصورة ما حدث له في القصر تبدو لعينيه ، وتلك الأصوات والصرخات العالية تصك أذنيه .. وما أن طلع الصباح حتى قام يتجول من جديد ، ودار حول القصر ليجد لنفسه مخرجاً ، فإذا به يتأكد أن الجبل الذي يقف عليه تحيطه المياه من كل جانب وأن لا سبيل إلى الهرب .. وعند الغروب كان التجول قد أنهكه والجوع

قد هد قواه ، فارتمى يبكي إلى جوار العامود إلى أن راح في نوم متقطع قلق ..

وعندما استيقظ في الصباح كان الجوع قد اشتد به ، ومضى يجوب المكان بحثاً عن أي شيء يؤكل فلم يجد . وعندما عاد إلى جوار العامود تأكد أنه إن مكث في مكانه مات جوعاً ..

ولم يجد الملك «سيف» أمامه إلا أن يخاطر بمحاولة القفز من العامود مؤملاً أن يصل إلى العامود الآخر ، فتحامل على نفسه وصعد إلى أعلى العامود ووقف على القدمين المنحوتتين في الصخر ، وأسلم أمره إلى الله وأغمض عينيه وقفز بكل قوته ..

ولم يشعر الملك «سيف» إلا وهو في قلب الماء وقد أحاطته الظلمة ومضى يغوص إلى القاع ، فضرب الماء بقدميه بشدة فارتفع إلى السطح ، وحاول أن يعوم ولكن ملابسه كانت تعوقه ، فأخذ يتخفف منها إلا من سيفه وقميصه وعمامته .. والماء المتلاطم يتقاذفه كالكرة العاجزة ذات اليمين وذات اليسار ، وهو يحاول أن يعوم مرة على ظهره ومرة على صدره والتيار يجرفه بشدة ..

ولمح الملك «سيف» وهو وسط الماء صخرة الجبل الأحمر ، فأخذ يتجه إليها .. واستجمع كل ما بقي من قوته وهو يشد من عزيمته ويضرب الماء بذراعيه في عنف وقوة ، وأخذ يقترب من الصخرة تدريجياً ، وكلما ازداد اقترابه ازدادت ضرباته قوة ، ومقاومته للأمواج العنيفة شدة ، حتى أصبحت الصخرة أمامه لا يفصله عنها إلا مسافة قليلة . وأحس في نفسه العجز والقصور ، وأحس أن قواه تخور ، فجمع ما تبقى من إرادته وقوته وضرب في الماء ضربات متتالية فإذ به يلمس الحجر .. واشتد به الفرح وملأ قلبه الأمل ، ولكنه ما كاد يمد

يده إلى الحجر ليمسك به ، حتى انزلقت يده على الحجر الأملس وأبعده الماء قليلاً عنه .. فعاد يحاول من جديد وقد أشرف على اليأس ، فإذا بيده تلامس الحجر مرة ثانية وتنزلق عليه .. وأحس بالماء يجذبه بعيداً عن الحجر فعاد يستجمع ما تبقى له من قوة ، وأخذ يضرب الماء ضربات اليأس حتى لمست يداه الحجر مرة ثالثة ولكنها عادت تنزلق عليه ، وتهاوت نفسه وارتخت يداه وإذا به يحس بنفسه كالقشة وسط الماء ، تعود به الأمواج بعيداً عن الصخرة ..

وما كاد يفيق إلى نفسه حتى وجد الماء يجذبه بشدة إلى دوامة هائلة ، وحاول المقاومة ولكن الوقت كان قد فات ، وإذ بالماء يلفه ويطويه ثم يدفع به في سرعة هائلة إلى فوهة ضخمة في وسط الجبل .. وحاول أن يبتعد عن الفوهة المظلمة السوداء ، ولكن الأمواج ظلت تحمله حملاً وتسير به حثيثاً إلى هذه الفوهة التي تمتص الماء في هدير مخيف وصوت كالرعد القاصف ..

وما هي إلا لحظات حتى أحس بنفسه يتخبط في صخر أملس ، والظلام يطبق عليه والفوهة السوداء تبتلعه مع ما تبتلع من ماء .

١٧

اللوح السحري

كان صوت الماء المندفع مخيفاً ومرعباً ، وأحس الملك «سيف» بنفسه يتزلق على الماء إلى داخل نفق مظلم قاتم والماء يسرع به إسراعاً مذهلاً .. وحاول أن يرفع يده إلى أعلى فاصطدمت بسقف أملس لا يبعد عن رأسه إلا بمسافة بسيطة ، فامتلأ قلبه خوفاً من أن يسحقه التيار المندفع في السقف القريب ، وظل يدفع بيديه في الماء في حذر وقد أحس بالعجز الكامل عن المقاومة المجدية .. ورفع يده مرة ثانية فلمست أطراف أصابعه السقف الأملس ، وفهم أن الماء يبتعد تدريجياً عن السقف فاطمأنت نفسه إلى أن النهاية المرعبة التي قدرها قد ابتعد خطرها ، واستسلم للتيار العنيف يسوقه معه في ظلمة كاملة خلال هذا النفق وقد فقد الإحساس بالزمن ، لا يدري أهو في نهار أم في ليل ..

وكان الملك «سيف» يبذل جهده الأكبر في أن تظل رأسه طافية فوق الماء حتى يستطيع أن يتنفس هذا الهواء الثقيل المشبع بالرطوبة والذي يملأ النفق ، إلا أنه بعد فترة طويلة أحس بشيء يصطدم برأسه في عنف ، ولم يشعر إلا وهو يغوص إلى أعماق الماء ، وأخذ يضرب الماء بقدميه فاصطدم رأسه بشيء صلب . وسرعان ما كان يغوص مرة أخرى .. وعرف وهو يغوص من جديد في أعماق الماء أن سقف

المكان قد عاد إلى الاقتراب من سطح الماء مرة أخرى ، وتمثلت لناظريه فكرة الموت مضغوطاً بين السقف والماء ، أو الموت غرقاً ، وهو يحاول في استماتة أن يعود إلى السطح في حذر حتى لا يضرب السقف رأسه تلك الضربات المؤلمة التي توشك أن تفقده رشده فيضيع بلا أمل ..

ورفع يده فوق الماء إلى أن لمست السقف ، ثم رفع رأسه في حذر وملأ صدره من الهواء ، ثم لمحت عيناه وهو يندفع مع تيار الماء بصيصاً من نور يبدو في فتحة يتجه إليها الماء فإذا برأسه يصطدم مرة ثالثة بالسقف صدمة قوية وأحس بالدوار يملأ رأسه ، وحاول أن يقاوم وأن يظل على وعي بما يحدث له ، ولكن الماء ابتلعه في جوفه ونفذ إلى صدره . وأخذ يخبط في شدة بيديه إلى أن غاب عن وعيه تماماً ، وكان آخر ما أحس به أن الماء يضطرب في اندفاع عنيف إلى الأمام ، وهو يمسك بقطعة من خشب لمستها يداه في صراعهما مع الماء ..

° ° °

قذف الماء بالملك «سيف» من الفوهة الأخرى للنفق . وطفا إلى سطح الماء بفضل قطعة الخشب التي يمسك بها ثم دفعه ضغط الماء إلى ناحية الشاطئ المليء بالصخور والأشجار ، واشتبكت قطعة الخشب التي يمسك بها بفرع شجرة ضخمة فتعلق بها ، وظل الملك «سيف» في غيبوبته وقد استماتت يداه على قطعة الخشب المشتبكة بفرع الشجرة والماء يدور من حوله ، ويسير في تيار قوي يهز جسده هزاً ..

° ° °

وأفاق الملك «سيف» فرأى نصفه في الماء ونصفه مشبوكاً بالشجرة عن طريق قطعة الخشب التي يمسك بها ، فزحف ببطء شديد حتى

أمسك الغصن بيده ، ثم جمع كل قواه ورفع نفسه تدريجياً وهو يترك الماء ويتحرك إلى أعلى ، ويداه تتبادلان على الغصن حتى خرج جسده تماماً من الماء ، وظل يرتفع إلى أن وصل إلى أصل غصن الشجرة فتمدد عليه وهو يحمد الله ويشكره وينظر إلى الماء يجري من تحته ولا يكاد يصدق بالخلاص .. ثم خلع ملابسه وعلقها في غصن الشجرة وعرض جسده للشمس الساطعة ، وسرعان ما جفت ملابسه وأحس بالدفء يملأ أعطافه ، فارتدى عمامته وقميصه ونزل من فوق الشجرة وقد بدأ يحس بالجوع . وتذكر أنه لم يأكل منذ أيام عديدة أي شيء ، فمضى يمشي واهناً ضعيفاً وهو يؤمل أن يجد أثراً للعمار يلجأ إليه ويطلب فيه الأمان والشبع ..

وما زال الملك «سيف» سائراً حتى قطع الوادي كله ، وما كاد يصل إلى نهايته حتى لمح على البعد مدينة بيضاء تبدو وكأنها تناديه وتقدم له الأمل في الدفء والطعام والراحة ، فملأ قلبه الأمل ، وعمرت نفسه بأعذب الأحلام ، وأسرع في مشيه قاصداً باب المدينة ..

وما كاد الملك «سيف» يقترب من الباب المغلق وقد أوشك أن ينادي حارس الباب ليفتح له حتى سمع صوتاً يقول :

ـ افتحوا الباب ، واطلعوا إليه ، ولا تعودا إلا به ، فهو غريمنا جاءت به المياه إلى أرضنا .. ؟

فدار الملك «سيف» على عقبيه وأسرع يجري بكل قوته وقد ملأ الخوف قلبه من جديد ، وأحس أن سوء طالعه ما زال يسير في ركابه إلى أن وصل إلى شجرة عالية فأسرع يرتقيها بسرعة وهو لا يحس بيديه ولا قدميه وهو يتسلقها .. وما أن استقر بين أغصانها حتى عاد ينظر في اتجاه المدينة ، فإذ به يرى الباب مفتوحاً وقد خرج منه أربعمائة

فارس متقلدين بالحديد ومتدرعين بالدروع وأمامهم فارس طويل يصيح فيهم قائلاً :

ـ فتشوا عليه الوادي كله ، وسأنتظركم تحت هذه الشجرة ..

وأشار الفارس إلى الشجرة التي جلس فوقها الملك «سيف» ، ثم قصد بحصانه إليها ، ونزل من فوق حصانه وجلس تحت الشجرة وحوله الحرس والغلمان .. ثم صفق بيديه طالباً الطعام ..

وكان الملك «سيف» يختفي خلف الأغصان ، وهو يرقب الحراس والفرسان يفتشون عليه في كل أرجاء الوادي .. وتحته تماماً جلس رئيسهم يأكل ، وتصاعدت رائحة الطعام إلى أنفه فاشتد إحساسه بالجوع ، وطلبت نفسه الطعام ، والطعام على مسافة قريبة منه وهو لا يستطيع إليه وصولاً ..

وما أن انتهى قائد الجند من الطعام حتى استلقى تحت الشجرة ونام وحوله الحراس والغلمان ، و «سيف» من شدة جوعه وإعيائه وخوفه لا يستطيع النوم ، ولا يستطيع الحركة ، ولا يستطيع الراحة ..

وقبيل الغروب عاد الجنود من بحثهم ، وأفاق رئيسهم من نومه ، وسألهم عن نتيجة مسعاهم في العثور على بغيتهم ، فأخبروه بأنهم لم يروا غريمهم في أي مكان ، فأمرهم بالراحة إلى الصباح ، ثم أمر بطعام العشاء .. وما لبث الطعام أن أحضر ، وما لبثت الموائد أن مدت ، و «سيف» يرقب الطعام في قلق ورغبة وخوف ، وأمعاؤه تضرب والجوع يشتد عليه .. وقد غدا يتمنى الموت نظير أن يحظى بكسرة من خبز جاف ..

وما لبث الجند أن أكلوا وأوقدوا النيران وأقاموا الحراس ، ثم هدأت الحركة ونام الجميع و «سيف» رابض فوق الشجرة لا يستطيع

أن يتحرك ولا يستطيع أن ينام .. وظل في قلق تراوده الأفكار المزعجة ، ويضنيه التعب والجوع ، إلى أن أدركه النوم فراح في سبات عميق إلى الصباح ..

وأفاق الملك «سيف» على جلبة تملأ الوادي ، وما كاد يفتح عينيه حتى تذكر أحداث أمسه ، ونظر إلى أسفل فرأى قائد الجند واقفاً وقد أقبل إليه الجنود من كل جانب يعلنون إخفاقهم في العثور على الغريم ، فأمرهم بإعداد الطعام ، ثم استئناف البحث بعد تناول الفطور .. وتذكر «سيف» جوعه الشديد ، فما أن وضع الطعام وفاحت رائحته الذكية حتى سمع نفسه يصيح دون وعي :

ـ غريب يا قوم وجوعان !

وما كاد الجند يسمعون نداءه حتى هرعوا إلى الشجرة ، وأحس «سيف» بالندم والحسرة ، ولكن المحظور وقع .. ولا بد من مواجهة ما يأتي به القدر .. وسمع أحدهم يقول له :

ـ انزل وسلم نفسك إلينا ، وإلا قطعنا الشجرة من جذورها ثم نقطعك بسيوفنا ..

فقال «سيف» :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ، قفوا يا قوم مكانكم وأنا أنزل إليكم ..

وما أن نزل الملك «سيف» من فوق الشجرة حتى أحاط الجند به وساقوه إلى قائدهم ، فجعل هذا ينظر فيه ويتأمل في وجهه و «سيف» ساكت صابر ، ثم قال القائد :

ـ من أنت ؟ .. وكيف جئت إلى هنا ؟ ..

فقال «سيف» :

ـ كيف تسألني وأنا جوعان والزاد بين يديك موضوع ، اتركني آكل أولاً ثم اسأل ما تشاء ..

فضحك القائد وقال له :

ـ هذا الطعام بين يديك ، فكل ما شئت ..

فاندفع «سيف» إلى الطعام يقبل عليه إقبال من كاد يموت من الجوع ، والقائد يرقبه صامتاً ، وينظر إلى فراغه من الطعام صابراً ..

وعندما انتهى الملك «سيف» من تناول الطعام حمد الله وشكر نعمته ، ثم استعد لملاقاة مصيره بثبات ورباطة جأش ، وقال لقائد الجند :

ـ والآن أيها الفارس أنا طوع أمرك ، افعل بي ما تشاء ..

فقال القائد :

ـ أريد أن أسمع قصتك ..

فأراد الملك «سيف» أن يضلله عن نفسه ، فأنشأ يقول :

ـ إنني تاجر كنت في مركب هاج عليها البحر فانكسرت ، وتعلقت بقطعة من خشب إلى أن دفعني الماء إلى جزيرة ليس عليها أحد .. فظللت بها فترة أخاف على نفسي وحوش البر والبحر ، فطلعت إلى شجرة فإذا بطير ضخم يجلس فوق الشجرة ، فجلست أرقبه إلى أن أوشك على الطيران فأمسكت برجليه وتعلقت به ، فطار بي ، إلا أنه أحس بثقلي فجعل يهجم عليّ بمنقاره المهول يريد أن يفترسني ، فتركت رجليه متوكلاً على الله ، فإذا بي في البحر ثانية ، وظللت أعوم حتى وصلت إلى هذه الجزيرة ..

وما أن انتهى الملك «سيف» من قصته الملفقة حتى أخذ قائد الجند يضحك ويقول :

ـ ما هذه الحكاية الطويلة .. أنا ما أظنك إلا كاذباً . ولست أحسب إلا أنك الغريب الذي يطلبه أبي ..

° ° °

واستطاع الملك «سيف» أن يميز صوت القائد ، فإذا به صوت أنثى لا صوت رجل .. فجعل ينظر إليها مندهشاً ، وهي ترسل رسولاً إلى المدينة ليخبر أباها بالأمر ، وتعلقت عيناه بباب المدينة وقد ازدادت دهشته واشتد ذهوله عندما رأى رجلاً مهيباً يخرج من باب المدينة يسعى إليه ، وأسرعت الفتاة المتنكرة في ثياب الفرسان إليه وقالت :

ـ هذا غريمنا يا أبي ..

فقاطعها الرجل قائلاً :

ـ نعم ، يا ابنتي هذا هو الملك «سيف بن ذي يزن» .. سبحان من جاء به إلى هذا المكان ..

فقال الملك «سيف» :

ـ ألست أنت «إخميم الطالب» .. ؟

قال «أخميم» ضاحكاً :

ـ نعم أيها الملك ..

فاطمأنت نفس «سيف» وانشرح باله ، وأحس أن نهاية تعبه وعنائه قد دنت ، فقال له :

ـ الحمد لله أن وجدت أرضاً أقف عليها وصديقاً أتحدث إليه ، وطعاماً أسد به رمقي ، فقد كفاني ما عانيت حتى الآن ..

فقال «إخميم» :

ـ إذن هيا بنا إلى المدينة على الرحب والسعة .. وحمداً لله على سلامتك .. أيها الملك ..

قال الملك «سيف» وقد استقر به المكان ، وأحس بالأمان بعد طول خوف :

ـ أهكذا يا «إخميم» تفعل الأخوان ؟ .. تأكل معي الزاد ثم تخون الأمانة .. أين اللوح الذي أخذته مني ؟

قال «إخميم» :

ـ إنما أنت الذي تسببت في شقائك بيديك حين كشفت عن وجه الملك «سام» ناسياً أنني نهيتك وحذرتك ، ولم أكن أستطيع لك شيئاً .. فجئت إلى هذا المكان ورتبت ابنتي ومعها الفرسان ليرقبوا قدومك إلى هنا لتخبرني بانتهاء شقائك وعذابك ..

فقال الملك «سيف» وقد أيقن أن «إخميم الطالب» لم يكذبه :

ـ لقد صدقتك أيها الصديق ، ولكن أين اللوح ؟

قال «إخميم» مبتسماً :

ـ إنه مع زوجتك أيها الملك ..

فصاح «سيف» مندهشاً :

ـ زوجتي .. ؟ .

فقال «إخميم» :

ـ نعم ، وستراها حالاً ..

ثم التفت «إخميم» إلى قائد الجند وقال :

ـ تعالي يا «جيزة» .. هات الذي معك ..

فكشف الفارس عن وجه كالبدر ، وإذا هو فتاة جميلة ، أذهل جمالها الملك «سيف» عن نفسه ، ولم يفطن إلى ما يدور حوله إلا حين سمع «إخميم» يقول :

ـ هذا هو اللوح الذي أخرجته من عند الملك « سام » وسأريــك فائدته ..

ثم دلك « إخميم » اللوح بين يديه ، وإذ بصوت يصيح :

ـ لبيك يا حكيم الزمان ..

وظهر خادم اللوح في المكان ، واستعاذ الملك « سيف » بالله من خلقته المهولة ، و « إخميم » يقول له :

ـ ما اسمك ؟

فقال الخادم :

ـ أنا « عيروض » ابن الملك الأحمر ، خادم هذا اللوح من عهد سيدي « سام بن نوح » ..

فقال « سيف » :

ـ أتعرفني يا « عيروض » ؟

فالتفت الخادم إليه وقال :

ـ نعم ، أنت سيدي الملك « سيف » الذي رصد هذا اللوح باسمه من قديم الزمان ..

فقال « إخميم » :

ـ والآن انصرف يا « عيروض » ؟

فانصرف الخادم في الحال ، وتقدمت الملكة « جيزة » فأخذت اللوح من أبيها وهي تقول :

ـ سأحتفظ لضيفنا الملك « سيف » بهذا اللوح حتى يطلبه ..

فقال « إخميم » :

ـ والآن قم يا ملك « سيف » إلى حجرتك لتستريح بعد العناء .. ونلتقي في الصباح ..

حين وصلت الملكة «جيزة» إلى حجرتها ، خلعت ملابس الفرسان ، وعادت في رداء النساء غادة ذات دلال وجمال .. وكانت الملكة «جيزة» تحس في نفسها شيئاً غريباً منذ التقت بالملك «سيف» ، وأسرتها ملامح البطولة والفروسية تبين من وجهه .. ودلكت الملكة «جيزة» اللوح فظهر «عيروض» أمامها ، فقالت له :

ـ أخبرني يا «عيروض» ، هل الملك «سيف» متزوج ..

ـ إلى الآن هو لم يتزوج ، ولكنه سيتزوج الملكة «شامة» بنت الملك «أفراح» ، كما يتزوج من «ناهد» بنت ملك الصين ، و «طامة» بنت الحكيمة عاقلة ، كما يتزوجك أنت يا ملكة «جيزة» ، وكذلك «منية النفوس» ..

فاغتاظت «جيزة» وملكها الغضب وصاحت في حنق :

ـ أأكون أنا واحدة من نسائه ، وخادمة من خدامه ، اسمع يا «عيروض» .. اذهب فاقتله .. !

فقال «عيروض» :

ـ وكيف لي أن أقتله وهو يحمل سيف «سام بن نوح» .. !؟

فنظرت إليه «جيزة» فترة طويلة وهي صامتة ، ثم قالت :

ـ انصرف أنت يا «عيروض» .. وسأدبر أنا أمري ..

وحين انصرف «عيروض» صفقت «جيزة» بيدها فدخلت إليها جاريتها فأمرتها أن تأمر قائد العبيد بالحضور إليها .. ولم يمض وقت طويل حتى أقبل عملاق أسود ، مفتول العضلات ، على وجهه ملامح الشر والقسوة .. وانحنى أمام الملكة «جيزة» ووقف ساكتاً ينتظر أوامرها .. فقالت له «جيزة» :

ـ أنت تعرف الغريم الذي ظللنا نبحث عنه يومين كاملين ، ثم

عثرنا عليه فوق الشجرة ، وتركه أبي «إخميم» وقد كنت أوشكت على قتله ..

فأحنى العملاق رأسه وقد امتدت يده إلى سيفه ، وقالت «جيزة» :

ــ إنه نائم الآن في خيمته وأريد منك أن تقضي عليه بضربة واحدة ..

وعاد العملاق ينحني أمامها مرة أخرى ، ثم انصرف في هدوء ، بينما استرخت «جيزة» في مقعدها الطويل وهي تبتسم لنفسها ابتسامة الرضا والراحة ..

° ° °

كان «إخميم الطالب» قد توجس خيفة من نظرات ابنته «جيزة» إلى الملك «سيف» ولهذا أمر أحد أعوانه من الجان أن يلازم الملك «سيف» في نومه وألا يغفل عن حراسته ، فلما أقبل العملاق إلى «سيف» وهو نائم ورفع حسامه يريد قتله ، أمسك الجني بيده ورد الطعنة إلى نحره فوقع مخضباً في دمه دون أن يحس الملك «سيف» الذي كان التعب قد أخذ منه مأخذه فراح في سبات عميق ..

° ° °

وظلت الملكة «جيزة» تنتظر العبد ليعود لها بخبر مصرع الملك «سيف» .. فلما طال غيابه استبد بها القلق ، حتى إذا نفد صبرها صفقت بيديها تستدعي جاريتها ، فلما جاءت سألتها عن العبد وهل عاد ، وحين أبدت الجارية جهلها بأمره أمرتها بأن تستدعي عبداً آخر من عبيدها .. فلما جاء أخبرته بالمهمة التي أرسلت فيها قائد العبيد وقالت له :

ــ اذهب وتسلل إلى حيث يرقد ذلك الغريب ، فإن وجدت أمر

صاحبك قد انكشف فعد سريعاً ، وإن وجدت الملك «سيف» نائماً فاضرب به بسيفك ، وعد لي بخبر ما فعلت ..

وحين انصرف العبد إلى مهمته ، لم تستطع الملكة «جيزة» أن تهدأ وتستريح ، بل ظلت تذرع حجرتها في قلق وصبر نافد ، في انتظار عودته ..

° ° °

كان ضوء القمر يغمر بنوره حجرة الملك «سيف» حين تسلل العبد إليها ، فدهش حين رآه نائماً لا يحس بما حوله ، وجرد حسامه وقد مَنىّ نفسه بقتل غريم سيدته والحصول على ثقتها .. ولكنه ما كاد يتقدم حتى اصطدمت قدمه بشيء في الأرض ، وما كاد ينظر إلى جثة زميله وقد قطعت رقبته حتى ارتجفت يده واهتزت .. ولكنه سرعان ما تمالك نفسه وعاد يتقدم من جديد نحو الملك «سيف» وقد صمم على الانتقام لزميله ، وما كاد يرفع سيفه ليهوي به على الملك «سيف» حتى رد الجني طعنته إلى نحره ، وسقط مضرجاً بدمه يلفظ آخر أنفاسه إلى جوار زميله ..

وأسرع الجني إلى «إخميم الطالب» يخبره بأمر العبدين المقتولين ، ويسأله عما يفعل بجثتيهما ..

وكان الملك «سيف» قد أيقظته ضجة سقوط الجسم الثاني ، ففتح عينيه ونظر حوله فلم ير شيئاً .. وحين كان يهم بالقيام من سريره ليبحث في الحجرة سمع صوت أقدام قادمة ، فعاد يغلق عينيه ويتظاهر بالنوم ..

ودخل «إخميم» ومعه الجني الذي أخبره بما حدث من أمر العبدين و «سيف» يسمع ساكتاً ، وقال «إخميم» :

ـ هذا من فعل «جيزة» .. احمل الجثتين وهيا بنا إليها .. وحذار أن توقظ الملك «سيف» ..

وما كاد «إخميم» يغادر الحجرة ومعه الجني ، حتى أسرع «سيف» يقوم من فراشه ويتعقبهما دون أن يحسا به وقد أمسك بيده مقبض سيف «سام بن نوح» ..

° ° °

فوجئت الملكة «جيزة» بأبيها يدخل إليها ، وبالجني يقذف بجثتي العبدين تحت قدميها ، فشحب لونها ووقفت ساكتة في مكانها وقد ألجمت المفاجأة لسانها ، وقال «إخميم» :

ـ أهكذا تحتفي ابنتي بضيفي ..

وحين استطاعت «جيزة» أن تجد صوتها قالت :

ـ لقد سألت «عبروض» فأخبرني أنني سأصبح زوجة من زوجاته ، ولست أقبل لنفسي أن تشاركني في زوجي امرأة أخرى ، فما بالك بعديد من النساء .. أأصبح أنا جارية لمثله .. ؟

فقال «إخميم» :

ـ وهل في يدك أن تغيري ما هو مقدر ومكتوب ..

فقالت الملكة «جيزة» :

ـ لا بد أن يموت .. وستكون نهايته على يدي ..

فقال «إخميم» :

ـ ومن أنت حتى تقولي مثل هذا الكلام ، هذا ملك سعيد محظوظ سخر له الجن والإنس فيخدموه ليؤدي دوره ويحقق رسالته وينفذ دعوة «نوح» عليه السلام ..

وقبل أن ترد «جيزة» دخل الملك «سيف» وقال :

ـ يا حكيم « إخميم » لقد سمعت ما دار بينكما من حديث ، وأنا قد سامحت الملكة « جيزة » فلا تقس عليها ..

فقال « إخميم » وقد أذهلته المفاجأة :

ـ يا سيدي الملك « سيف » .. هل تقبل ابنتي زوجة لك .. ؟

فقال « سيف » :

ـ لقد أقسمت ألا أتزوج من امرأة ، مهما بلغت من الحسن ، إلا بعد زواجي من « شامة » بنت الملك « أفراح » أولاً .. فإن كان لي نصيب في ابنتك فإنني ..

ولم تتركه الملكة « جيزة » يكمل كلامه ، بل أسرعت تقول :

ـ ومن قال إنني أقبل أن أكون زوجاً لك .. ؟

فنظر إليها الملك « سيف » طويلاً ، ثم غادر الحجرة منصرفاً وقد بدأ يفكر في ضرورة استعادة اللوح منها .. فما كان قد غامر بنفسه كل هذه المغامرة ليعطي اللوح لواحدة تضمر له كل هذه الكراهية ..

وظل « إخميم الطالب » مع ابنته بعض الوقت يحدثها ثم انصرف ، أما الملكة « جيزة » فقد عادت إلى فراشها تبكي من الحنق والغيظ إلى أن استنفدت قواها من البكاء فنامت مجهدة ..

وما كادت الملكة « جيزة » تنام حتى تسلل « سيف » إلى حجرتها وقصد إليها بحذر وفك السلسلة التي تحمل اللوح من حول رقبتها ، ثم حمل اللوح ووضعه حول رقبته .. ثم تسلل إلى حجرته وعاد ينام في سريره مطمئناً هادئاً ..

• • •

استيقظت الملكة « جيزة » من نومها ، وقد امتلأ قلبها بالغيظ والحنق من « سيف » وقررت أن تستدعي خادم اللوح لينكل لها « بسيف » ،

ولكنها ما كادت تمد يدها إلى حيث وضعت اللوح حتى عرفت أنها فقدته ، ولم تشك لحظة في أن الذي استولى على اللوح هو الملك « سيف » .
ولم تنتظر لحظة واحدة بل أسرعت تشرع خنجرها في يدها وقد عزمت على قتل « سيف » بيدها ، ومضت تجري إلى حجرة الملك « سيف » ..

° ° °

وكان الملك « سيف » قد استيقظ مبكراً وجلس على صخرة تحت شجرة عالية يعد سلاحه ويسوي من ملابسه ، وإذ به يلمح الملكة « جيزة » تسرع نحوه وشرر الغضب يتطاير من عينيها فأسرع يدلك اللوح بيده ، وصاح في « عيروض » حين أقبل إليه قائلاً :

ـ أسرع بي إلى مدينة حمراء اليمن فقد تركت هناك « سعدون » وحده ..

وسرعان ما كان الملك « سيف » يطير في الهواء وقد حمله « عيروض » .. وقد وقفت « جيزة » ذاهلة ، والخنجر مشرع في يدها والحقد يأكل قلبها .. وسمعت من ورائها صوت أبيها يقول :

ـ لا تحزني يا ابنتي فسيجمع الله شملك به ..

فقالت غاضبة :

ـ لست أريده هو ، بل إني أريد اللوح الذي سرقه مني ..

فقال « إخميم » :

ـ إن هذا اللوح ذخيرته هو يا ابنتي ، وسوف يصبح اللوح وغيره من الذخائر ملكك أنت عندما يشاء الله ..

١٨

المبارزة

نزل «عيروض» بالملك «سيف» إلى جوار حمراء اليمن ، فلم ير غير الصحراء الخالية تحيط بأسوار المدينة وقد اختفت خيام جيش الملك «أفراح» وجنود «سعدون» الزنجي .. ووقف وحيداً حائراً وهو لا يجرؤ على الدنو من المدينة خوفاً من أن تكون المعركة قد انقلبت لصالح أعدائه فيسلم لهم نفسه لقمة سائغة .. فقرر أن يختبئ خلف جبل من الجبال المحيطة بالمدينة حتى تتاح له الفرصة ويكشف لنفسه حقيقة الخبر ..

واتجه الملك «سيف» إلى جبل عال يريد أن يدور حوله بحثاً عن مخبأ أمين بين صخوره ، ولكنه لمح غباراً يثور من بعيد .. وسرعان ما انكشف الغبار عن فارسين يقبلان في سرعة وقد شرع كل منهما رمحه وحول جواده ناحيته .. ولم يكن مع الملك «سيف» سوى حسام «سام بن نوح» فشرعه في يده ووقف ينتظر ثابت القلب .. وسرعان ما أطبق عليه الفرسان وهما يصيحان ، ووجه كل منهما إليه طعنة من رمحه ، تجنبها الملك «سيف» بخفة ومهارة ثم استدار ليواجه أقرب الفارسين إليه .. وإذا بالفارس يصرخ صرخة مرتفعة ويقفز من فوق جواده ، ويسرع ساجداً عند قدمي الملك «سيف» وهو يقول :

ـ سيدي الملك «سيف» .. شلت يدي حين أرفعها عليك يا فارس الزمان ..

وكان الفارس الثاني قد توقف حين رأى ما فعله زميله ، وأطال النظر في وجه الملك «سيف» ثم أسرع يحذو حذو زميله ، فيقفز من فوق جواده ويسرع ساجداً عند قدمي الملك «سيف» وتملك العجب من نفس «سيف» فقال :

ـ من أنتما ايها الفارسان النبيلان ... وماذا جعلكما تغيران على رجل وحيد .. !

فقال أولهما :

ـ نحن يا سيدي من جند «سعدون» الزنجي ..

فصاح الملك «سيف» :

ـ سعدون الزنجي .. ؟ وأين هو الآن ؟ .. خذاني إليه ..

فقال ثانيهما :

ـ وكيف لنا هذا وهو في سجن الملك «سيف أرعد» بعد أن غدرت بك وبنا «قمرية» الملعونة ..

فقال «سيف» وقد أحس بالغضب يملأ نفسه :

ـ أخبراني حالاً بما حدث ..

فوقف الفارسان على أقدامهما .. وأسرع أولهما يقول :

ـ عندما عادت «قمرية» بعد رحلتها معك وكانت واثقة من موتك ، أسرعت إلى الملك «سيف أرعد» ودبرت مكيدة لأسر «سعدون» فأرسل «سيف أرعد» معها كتاباً إلى حاجبه ورئيس جنده واسمه «أبو الهول» ليطيعها فيما تدبر ، وينفذ لها ما تأمر .. وعادت «قمرية» إلى المدينة ، وسارت متخفية بين خيامنا إلى أن وصلت إلى «أبي الهول»

ليلاً فطلبت مقابلته ، فسمح لها بالدخول .. وما أن دخلت حتى أمر جنده باعتقالها ، ولكنها أبرزت إليه رسالة «سيف أرعد» فحل وثاقها ، وطلب منها أن تأمر ، وعليه أن يطيع ..

وسكت الفارس الأول وهو يطرق إلى الأرض في غضب وحنق ، فأخذ الفارس الثاني يكمل الحديث الذي قطعه زميله قائلاً :

ـ واتفق الخائن مع الملعونة على الغدر بـ «سعدون» .. فاستدعاه «أبو الهول» ليشاوره في أمر الهجوم على المدينة المحاصرة في الصباح .. وذهب «سعدون» خالي البال ، وظل «أبو الهول» في الحديث معه وهو يغريه بالإفراط في شرب الخمر حتى تمكنت من لبه .. وسرعان ما صفق «أبو الهول» فانقض الجند على «سعدون» وأسروه قبضاً باليد وقيدوه بالأغلال ..

وقاطعه الفارس الأول قائلاً :

ـ وقد أخبر «أبو الهول» «سعدون» بكل ما حدث ، وقال لـ «سعدون» : لا تعتب عليّ فإني عبد المأمور . وقد قال له «سعدون» : لا عتب عليك ، ولكن الملك «سيف» سيعلم بهذا الأمر ويقضي عليك وعلى «قمرية» وعلى «سيف أرعد» .. فقال له «أبو الهول» : لقد مات الملك «سيف» فقد قتلته «قمرية» .. فسكت «سعدون» مغلوباً على أمره ..

وعاد الفارس الثاني يقول :

ـ وقد جاءنا أحد جند الحاجب ، وأخبرنا بما حدث لـ «سعدون» فشكرنا له وفاءه ثم ركبنا خيولنا وأسرعنا نحاول فك أسره ، إلا أن جند «قمرية» خرجوا من المدينة وانضموا إلى جند الحاجب وتكاثروا علينا ، وظل القتال بيننا أياماً طويلة ..

وأكمل الفارس الأول قائلاً :

ـ وعندما أحسسنا بقلة عددنا وضعف حيلتنا ، أسرعنا نتراجع إلى خلف الجبل ، نغير بين الحين والحين على كل من يخرج من المدينة أو يدخل إليها في انتظار الفرصة للانتقام من «قمرية» ..

فقال الملك «سيف» :

ـ وأين «سعدون» الآن ..

فقال الفارس الثاني :

ـ إنه في أسر الملك «سيف أرعد» في مدينة الدور ..

فقال «سيف» :

ـ إذن عودوا إلى زملائكم وانتظروا عودتي مع «سعدون» لنخرب هذه المدينة وننتقم من ملكتها الغادرة ..

ودلك الملك «سيف» اللوح ، فظهر «عيروض» فأمره أن يحمله إلى مدينة الدور ، وسرعان ما طار به «عيروض» بين ذهول الفارسين ودهشتهما ..

وما كاد الملك «سيف» يقترب من مدينة الدور حتى سمع صوت طبول ومزاهر ، وأصوات فرح واحتفال ، فقال لـ «عيروض» :

ـ أنزلني يا «عيروض» على جبل من الجبال القريبة من المدينة ، واذهب لتعرف لنا ما الذي يدور في هذه المدينة ، وما حكاية هذه الطبول والأفراح ..

فأنزله «عيروض» على جبل عال . ثم اختفى .. وسرعان ما عاد ليقول للملك «سيف» :

ـ هذا عرس الملك «سيف أرعد» .. وعروسه هي الملكة «شامة» بنت الملك «أفراح» ..

فصاح «سيف» قائلاً :

ـ ماذا تقول ، هل تزوجت «شامة» من الملك «سيف أرعد»

فقال «عيروض» :

ـ إن الزفاف لم يتم بعد ، وقد خصصوا خيمة للعروس خارج المدينة ..

فصاح «سيف» :

ـ خذني إلى هذه الخيمة يا «عيروض» ولاحظني من بعيد ، فإن وقعت في مكروه فاحملني أنا والعروس إلى هذا الجبل ..

وسرعان ما طار به «عيروض» وأنزله عند خيمة العروس ثم اختفى ..

وحين اقترب الملك «سيف» على حذر من خيمة الملكة «شامة» سمعها تبكي بكاء مراً وهي تردد اسمه في لوعة ، وتهمس من بين دموعها بعزمها على الموت قبل أن يتم هذا الزواج .. فدخل الملك «سيف» الخيمة وهي لا تحس به وقال لها :

ـ يا «شامة» .. إنك والله زينة النساء ورمز الوفاء ..

وما أن سمعت صوته حتى هبت واقفة على قدميها ، وجعلت تحدق فيه غير مصدقة ما ترى .. ثم تهاوت عند قدميه باكية من الفرح والسرور ..

وجعل الملك «سيف» يطيب خاطرها ويهدئها حتى تمالكت نفسها ، وحكت له قصتها قائلة :

ـ لقد عادت «قمرية» ذات صباح ، وأخبرت «سيف أرعد» أنها قتلتك ، فأمر بأسر «سعدون» وتآمر «أبو الهول» على أسره ، ثم أرسله إلى الملك «سيف أرعد» الذي وضعه في السجن ، ثم أمر أبي أن يعود بجنوده إلى مدينة الدور .. وهناك أغرى اللعينان «سقرديون»

و «سقرديوس» الملك «سيف أرعد» أن يتزوجني ، وهدد الملك «سيف أرعد» أبي الملك «أفراح» حتى خضع ووافق على أن يزوجني إياه .. ولكن أخبرني أنت بما حدث لك وكيف نجوت من مكائد «قمرية» ؟

فمضى الملك «سيف» يحكي لها ، وطال بينهما الحديث .. وإذ بالملك «أفراح» يدخل خيمة ابنته الملكة «شامة» ليصحبها إلى الزفاف .. وما أن رأى الملك «سيف بن ذي يزن» حتى وقف ذاهلاً وكأنما رأى شبح أحد الأموات ، وصاح به الملك «سيف» قائلاً :

ـ أهذا أنت أيها الخائن الغدار ، أتزوج زوجتي بغيري وقد جئتك بمهرها «سعدون» الزنجي وحلوانها كتاب النيل .. !

ثم رفع حسامه وهجم عليه ، فأسرع الملك «أفراح» هارباً من وجهه ، قاصداً مقر الملك «سيف أرعد» حيث دخل عليه دون استئذان صارخاً :

ـ أغثني يا ملك .. لقد ظهر «سيف بن ذي يزن» وهو في خيمة العروس ، وكاد يقتلني حين دخلت عليه ..

وكان الملك «سيف أرعد» في قمة السعادة والهناء .. فلما سمع صياح الملك «أفراح» استبد به الغضب ، وخرج قاصداً خيمة العروس وحسامه في يده ، وقد صرخ في جنده وعساكره .. وسرعان ما أحاطوا بالخيمة ثم أسرعوا يهجمون عليها ، وإذ بالدنيا قد أظلمت وبعد قليل انجلت السماء وهدأ الغبار .. فأسرع الملك «سيف أرعد» إلى الخيمة واقتحمها ، ولكنه لم يجد بها أحداً .. وعاد حانقاً إلى قصره وهو لا يكاد يفهم مما جرى شيئاً ، وطلب «سقرديوس» و «سقرديون» ليدلاه على سر هذا الأمر الخطير . وكيف اختفت العروس من خيمتها ، وما الذي أثار هذا الغبار والشرار ..

أما الملك «سيف» والملكة «شامة» ، فإن «عيروض» حين رأى هجوم الأحباش عليهما ، أسرع واختطفهما إلى قمة الجبل كما أخبره الملك «سيف» بعد أن أثار هذا الغبار على جند «سيف أرعد» ..

وقال الملك «سيف بن ذي يزن» لـ «عيروض» :

ـ هات لنا خيمة انصبها في هذا المكان ، وهات لنا طعاماً من مال الملك «سيف أرعد» حتى نزيد في عنده وغضبه .. وسننتظر هنا لنرى آخرة هذا الأمر بيني وبينهم .. !

* * *

قصد «سقرديون» و «سقرديوس» إلى الجبل واقتربا من الخيمة ، ثم صاحا بالملك «سيف بن ذي يزن» أن يخرج ليكلمهما ، فخرج إليهما الملك «سيف» قائلاً :

ـ ماذا تريدان يا حكيما السوء .. ؟!

فقال «سقرديوس» :

ـ إن ما تفعله لا يليق ، فأنت تخطف زوجات الملوك وتستعين بالجان في حربنا ، وإلا فكيف أمكنك أن تفلت من بين الجنود ، ومن أين أتت تلك الغبرة وصيحات الرعد ..

فقال الملك «سيف» :

ـ أتتحدث عن الذي يليق والذي لا يليق ، إن هذه زوجتي جئت لها بالحلوان والمهر ، وحينما أعود أجد هذا الباغي الذي يريد أن يتزوجها ..

فقال «سقرديون» :

ـ حين يختلف الفرسان يحتكمون إلى السيوف ، ولا يلجأون إلى حيل الجان ..

فقال «سيف» :

ـ وهل تحسب أنني أخاف منه ومن فرسانه ، سأنزل إليه فارساً لفارس ، وأحاربه هو ومن شاء من جنده ، على أن يكون القتال عادلاً .. أما إذا هاجمني بجيشه فهذا غدر أقابله بالاستعانة بالجان يسوون بلده ورجاله بالأرض ..

فقال «سقرديوس» :

ـ هذا ما نريد يا فارس الزمان ، ومنذ الغد تبدأ المبارزة ..

وأسرع الحكيمان إلى الملك «سيف أرعد» يخبرانه بما اتفقا عليه مع الملك «سيف بن ذي يزن» .. أما «سيف» فقد طلب من «عيروض» أن يأتي له بجواد وعدة جلاد ، ومضى يستعد للحرب في الغد ..

* * *

وعند الصباح ، اصطف جند الأحباش أمام المدينة .. وأمامهم وقف الملك «سيف بن ذي يزن» على حصانه وقد أمسك بيده سيفه وهو يصيح :

ـ أنا «سيف بن ذي يزن» ، فارس الميدان ومبيد الأبطال .. من خرج إليّ شهد منيته على يديّ ..

فصاح الملك «سيف أرعد» في جنوده :

ـ من جاءني برأسه له عندي مائة دينار ذهباً ..

وأجرى الأحباش القرعة بينهم ليختاروا من يلقى الملك «سيف» وقد استهتروا به وبقدرته .. ووقعت القرعة على فارس شديد ، فبرز إلى الملك «سيف» ودار بينهما القتال ، ولكن الملك «سيف» لم يمهله فسرعان ما راغ من ضربته ورفع سيفه في قوة ونزل به على هامته فقتله في الحال .. ووقف أمامهم يصول بفرسه ويصيح فيهم :

ـ من الذي حلت منيته وطلبه الموت لتحظى الوحوش بجثته .. ؟

وسرعان ما خرج إليه فارس آخر ، إلا أنه لم يبق أمام الملك «سيف» سوى جولتين ثم لحق بزميله مجندلاً فوق الأرض ..

وظلت الحرب دائرة ، وفرسان الحبش تخرج واحداً إثر الآخر ، والملك «سيف» يتلقى كلاً منهم بضرب يهد الجبال وموت مؤكد على حد سيفه الذي لا ترد له ضربة ولا تخيب له طعنة ، والملك «سيف أرعد» يشجع فرسانه ورجاله ويمنيهم بالمال والعطاء والغيظ يملأ قلبه ، والغضب يشتد عليه ، حتى أقبل الليل وقد قتل الملك «سيف» عدداً كبيراً من فرسانه الأبطال .. فنادى بالانفصال وعاد مع جنده مخذولاً إلى المدينة .. أما الملك «سيف» فقد عاد إلى خيمته حيث تلقته شامة مهنئة إياه بفوزه فخورة ببطولته وجلده ، وخلعت عنه درعه وأعدت له طعامه ثم قضت ليلها ساهرة إلى جواره تحرسه في نومه ..

° ° °

وفي الصباح عاد الجنود إلى الاصطفاف ، ودار «سقرديوس» و«سقرديون» يرطمان بكلام الكهان ويقولان :

ـ إن زحل سينصر الأحباش اليوم على عدوهم ، ومن قتله منكم فله الرضى من زحل والمال من سيف أرعد ..

وكان الملك سيف قد وقف قبالتهم يسخر منهم ويهزأ من فرسانهم .. وسرعان ما خرج إليه فارس حبشي مشهود له بالبراعة والقدرة فلم يستمر معه جولة إلا وقد خر صريعاً إثر ضربة بارعة من رمح «سيف بن ذي يزن» ، وخرج فارس آخر لحق بزميله ، ودام الأمر على هذا الحال وكأن «سيفاً» جزار يذبح ماشية لا حول لها ولا قوة .. وعند

الليل كان الأمر قد اشتد على الملك « سيف ارعد » ، فما أن نادى المنـادي بالانفصال حتى عاد إلى قصره وأمر باستدعاء الحكماء والوزراء للتشاور في هذا الأمر .. وما أن اكتمل الديوان حتى قال «سيف أرعد» :

ـ إن هذا الذي يحدث عار عظيم ، فارس واحد يقف وحده بلا معين ولا يستطيع فارس آخر أن يتغلب عليه رغم أنه يظل يحارب وحده منذ الصباح إلى الليل ، إن هذا عار كبير ...

عند ذلك قال الوزير «بحر قفقان الريف» :

ـ أيها الملك العظيم ، إن الملك سيف لا يهزمه إلا فارس من نوعه ؛ ورجالنا جنود حرب لا فرسان مبارزة .

فقال «سيف أرعد» :

ـ ومن هو ذلك الفارس الذي تقترحه يا وزير ..

فقال «بحر قفقان الريف» :

ـ إني أرى يا مولاي .. أن ينزل إليه سعدون الزنجي فهو أعرفَ بمبارزته وقتاله ..

فقال سقرديوس :

ـ إن «سعدون» يسير في ركاب «سيف» ، فكيف تريده أن يقاتله .. ؟

قال «بحر قفقان الريف» :

ـ لقد أسرنا «سعدون» وهو بين أيدينا وسنمن عليه بالحرية والمنح الجزيلة إن قتل «سيفاً» ، ولن يجد «سعدون» فرصة كهذه فإن رفض قتلناه ..

قال «سيف أرعد» لحاجبه :

ـ أحضر «سعدون» ..

وجاء « سعدون » مكبلاً بالحديد ، فأمر الملك « سيف أرعد » بفك قيوده ثم قال له :

ـ لقد كنت أريد أن آمر بقطع رقبتك لما سبق لك من تمرد وعدم ولاء لي ، ولكني سأمنحك فرصة واحدة لإثبات ولائك فإن لم تفعل قتلتك .. وأنت تعرف أن سيفي يصل إلى أعدائي في أي مكان فليس هناك من الملوك من يستطيع أن يحميك مني ومن بطشي ..

فقال « سعدون » وهو يحس ببارقة أمل :

ـ أصدر أمرك يا مولاي وأنا أفعل ما تأمر ..

فقال « سيف أرعد » :

ـ هناك فارس يقف عند باب مدينتنا أريد منك أن تقتله ..

فضحك « سعدون » وقال :

ـ اعتبره مقتولاً من الآن ، ومن هو هذا المشؤوم الذي أغضبك .. ؟

فقال سيف أرعد :

ـ إنه صديقك « سيف بن ذي يزن » ...

فصاح سعدون .

ـ « سيف » ، إنه لم يمت إذن ..

ثم أسرع يقول مستدركاً وقد خاف أن يكشف عما في قلبه من فرح غامر :

ـ لقد عاد لهلاكه ، وبيني وبينه ثأر قديم حان الوقت اليوم لتسويته ..

فقال « سيف أرعد » :

ـ إن هذه فرصتك الوحيدة يا « سعدون » ، فإن قتلته سأجعل منك حاجبي ، أما إن غدرت فهذه نهايتك ..

فأسرع «سعدون» يقول :
- إنني مشتاق للقاء هذا الفتى المغرور في ميدان الطعان لأثبت له حقيقة قدره بين الفرسان ..
فاستراح قلب «سيف أرعد» وأمر بإعطاء «سعدون» عدته وحصانه وإعداد مكان له ليبيت فيه حتى الغد ..

• • •

وفي الصباح خرج «سعدون» على حصانه وقد وضع اللثام على وجهه وجعل يصول ويجول ثم هجم على الملك «سيف» وظل القتال دائراً بينهما حتى تحطم الرمحان في يديهما وكلت منهما الأبدان وامتشقا السيوف ، ومضى كل منهما يظهر من فنون القتال والحرب ما أذهل جند الأحباش وحير ألبابهم .. وأحس «سعدون» بالتعب يحل في جسده كله ، فرفع اللثام عن وجهه ، وقفز من فوق حصانه يقبل قدم الملك «سيف» وهو يقول :
- لا شلت يداك يا ملك «سيف» أنا «سعدون» عبدك ..
فصاح «سيف» :
- أهذا أنت يا «سعدون» ؟ .. لقد كنت أقول انني أعرف هذه الطعنات والضربات ، اركب حصانك وقف إلى جواري لنعلم هؤلاء الأحباش درساً لا ينسونه ..
وما أن رأى «سيف أرعد» «سعدون» يقفز من حصانه ويقبل قدم «سيف» حتى صاح :
- لقد غدر «سعدون» .. اهجموا عليهما وائتوني بهما جثتين ..
وسرعان ما اندفع الجند كالسيل الزاخر .. فتلقاهم «سيف» و «سعدون» بجنان ثابت ومضيا يصولان ويجولان بين الفرسان إلى أن

أحس «سيف» أن العدد قد كثر عليهما فصاح :

– عيروض ..

وإذا بالسماء قد اغبرت والدنيا قد اسودت والبرق قد لمع في السماء ، ثم اختطف عيروض الملك «سيف» و «سعدون» وأنزلهما عند الملكة «شامة» .

١٩

ليلة الزواج

كانت «شامة» قد استبد بها القلق وهي ترقب القتال من فوق الجبل ، وملأها الخوف حين رأت جنود الحبشة يهجمون بجمعهم كله على الملك «سيف» والفارس الأسود الذي كان يحاربه .. ولكنها سرعان ما رأت «سيف» أمامها ، وإلى جواره «سعدون» فأسرعت إليهما تهنئ الملك سيف بسلامته ، وتهنئ سعدون بنجاته .. قال «سيف» :

ـ لا بد أن نسرع إلى مدينة حمراء اليمن للانتقام من «قمرية» ..

فقال «سعدون» :

ـ ولكننا وحدنا ، و «قمرية» في جيشها ووراء أسوار مدينتها ..

فقال «سيف» :

ـ إن رجالك يقفون إلى جوار المدينة وقد التقيت بفارسين منهم ..

ودلك الملك «سيف» اللوح ، فظهر «عيروض» فأمره أن يحملهم جميعاً إلى مدينة الحمراء .. وسرعان ما وجد الجميع أنفسهم أمام أسوار المدينة ، فاتجه «سيف» ومعه «سعدون» و «شامة» إلى خلف الجبل حيث وقف رجال «سعدون» .. واستقبل الفرسان «سعدون» بالفرح والابتهاج ، ثم اتجهوا إلى الملك «سيف» يشكرون له أن خلص قائدهم «سعدون» من السجن ، فقال «سعدون» :

ـ ليس هذا وقت الكلام ، ولكن هيا بنا نستولي على مدينة حمراء اليمن وننتقم من «قمرية» على ما فعلت بنا ..

فركب الرجال خيولهم وصاحوا صيحات الحرب ، وهم يسرعون خلف «سيف» و «سعدون» يهاجمون المدينة .. والتقى بهم جند «قمرية» ، ودار بينهم القتال واشتد الطعن والنزال ..

وسمعت «قمرية» الصيحات ، فأرسلت حاجبها يكشف الخبر . وعاد إليها مسرعاً وهو يقول :

ـ إنه الملك «سيف» قد عاد على رأس رجال «سعدون» يحيطون برجالنا ويقاتلون في وحشية ...

فركب الهم «قمرية» وأسرعت تطل من قصرها على ميدان القتال ، فرأت رجالها أمام فرسان «سيف» منهزمين ، وليست لهم قوة على صده ولا صد جند «سعدون» فتمالكت نفسها وقررت أن تلجأ إلى الحيلة والغدر ، وأمرت الحاجب فجاء لها بالقيود ، وحلت شعرها ووضعت القيود في يديها وخرجت حافية تبكي وقد أمرت رجالها أن يكفوا عن القتال وصاحت :

ـ يا ملك «سيف» إن أحداً لم يؤذك إلا أنا ، فاسحب حسامك يا ولدي واضرب رقبتي وأنت بريء من دمي .. أما هؤلاء الرجال فلا ذنب لهم ..

ثم مضت تبكي والملك «سيف» قد وقف في ذهول ، وقد أخذت دموعها تستل الحقد من قلبه وتطفئ نار الغضب الذي كان يملأ صدره ، ومضت تتقدم منه وهي تبكي وتقول :

ـ هلم يا بني ، اقتلني لتقتل الشيطان الذي يوسوس في صدري ، وسأكون سعيدة أن أموت بسيفك وألا يسفك دمي إلا حسامك ..

فرق لها قلب «سيف» وقال وهو يترجل عن حصانه ويتقدم منها :

ـ هذا يا أماه شيء مقدور والحمد لله الذي جعل نهايته سليمة ...

فقالت «قمرية» :

ـ الحمد لله على سلامتك يا ولدي فمثلك من تفخر به الأمهات .. ادخل بلدك واجلس على عرش أبيك في مملكتك ، وما أنا إلا واحدة من عبيدك ومن جواريك .. في يدك حياتي إن شئت أبقيتها وإن شئت ذهبت بها ..

حل الملك «سيف» قيودها ، ثم اتجه مع «شامة» و «سعدون» وجنوده إلى القصر ، وأمر بإطلاق السجناء وإعلان الأفراح وتوزيع الهبات وإعداد العدة لإقامة حفل زواجه من الملكة «شامة» بنت الملك «أفراح» ..

° ° °

ملأ الغضب قلب الملك «سيف أرعد» إثر فرار «سيف» و «سعدون» من جنده ، فأمر بعقد الديوان .. فلما اكتمل الديوان صاح في «سقرديوس» و «سقرديون» غاضباً :

ـ ماذا رأيتما في هذا الحال ، وقد انتصر علينا «سيف بن ذي يزن» وخطف زوجتي «شامة» وألحق بنا الخزي والعار ..

فقال «سقرديون» :

ـ وحق زحل يا مولاي ما هذا إلا من تدبير الملك «أفراح» ولا بد لك من الانتقام منه ..

وكان «سيف أرعد» يريد أن يصب غضبه على أي إنسان ، فأمر بإحضار الملك «أفراح» مكبلاً في الحديد والقيود .. ثم أمر بإحضار السياف ، وقال للملك «أفراح» :

ـ الآن أيها الغادر حان وقت القصاص منك ، ولا بد أن تدفع رأسك ثمناً لغدرك بي ورعايتك لعدوي .

ثم التفت للسياف ، وقال له :

ـ اقطع رقبته ..

وأخذ الملك «أفراح» يصيح ويحتج دون جدوى ، والسياف يجذبه إلى النطع وقد كبلت قدماه ورجلاه بالحديد ، ورفع السياف سيفه ليجتث رقبته ..

* * *

وما أن استراح الملك «سيف بن ذي يزن» في قصر أبيه وحوله «سعدون» ورجاله حتى قال للملكة «شامة» :

ـ الآن ستنتهي متاعبنا وتبدأ أيام سعادتنا ، وقد أمرت بإقامة الأفراح لزفافنا ..

فقالت «شامة» :

ـ وكيف تريد يا ملك «سيف» أن تتزوجني وأبي بعيد عني ..

فقال «سيف» :

ـ هذا أمر سهل ..

ودلك «سيف» اللوح فحضر «عيروض» فأمره بإحضار الملك «أفراح» في الحال ..

فغاب «عيروض» لحظة وأتى به من أمام الجلاد ، وقد أوشك السيف أن ينزل على رقبته ، ووضعه أمام الملك «سيف» والقيود في يديه ..

فقال له الملك «سيف» :

ـ هذا نتيجة غدرك بي ، والمكر السيىء لا يحيق إلا بأهله ..

فقال الملك «أفراح» وهو لا يكاد يصدق بنجاته من سيف الجلاد :

ـ إن «شامة» ليست لأحد سواك ، وأنا يا ولدي وبلادي وجنودي ملك يمينك ، وإن أردت أن أزوجها إليك الآن فعلت ..

فقال الملك «سيف» .

ـ الليلة يكون فرحنا ، وينتهي هذا العناء ..

ثم أمر بخلع القيود من يديه وإحضار الطعام والشراب وإعلان الفرح والابتهاج ..

* * *

وكانت الملكة «قمرية» ترقب كل هذا والحسرة تملأ قلبها ، وعندما دلك الملك «سيف» اللوح فحضر «عيروض» .. اشتعلت نفسها غيظاً بهذه الذخيرة التي تسهل الأمور على الملك «سيف» وقررت بينها وبين نفسها أن تحصل عليها ، ولكنها أخفت ما بقلبها وابتسمت معلنة الفرح والابتهاج ، وقالت :

ـ سأعد أنا للفرح عدته ، فهذا يوم المنى والسرور يعود فيه ولدي بعد الغياب ، ثم نحتفل بزواجه من الأميرة «شامة» صاحبة الجمال والدلال ، والعريقة في الحسب والنسب .

وذهبت «قمرية» إلى حجرتها ، وأحضرت عشرة عقود من الجواهر وقدمتها إلى الملك «أفراح» كمقدم صداق لـ «شامة» وأعطت «شامة» فصوصاً من الجوهر ، وخلعت على الوزراء والحجاب الخلع السنية .. وهي تتظاهر بأن الفرح قد ملأ قلبها وأن الدنيا لا تتسع لسرورها ..

وكان الملك «سيف» يرى منها هذا فيرق قلبه لها ، وقد آمن بصدق توبتها ، وصدق أن عطف الأمومة فيها قد غلب شرها وحقدها ..

وما أن أتى العصر حتى أمرت الملكة «قمرية» بذبح الأغنام وتوزيع الأموال على الأرامل والأيتام ، وقضى الجميع الليلة في حبور

وسرور والأفراح في البلد كلها قائمة .. وعقد العقد لـ «سيف» على «شامة» وظلوا يسهرون في طعام وشراب وغناء ورقص حتى أوشك الليل أن ينقضي ، وذهبت العروس إلى حجرتها ، ثم قام الملك «سيف» قاصداً عروسه وأمه تسير معه حتى اقترب من باب «شامة» فقالت له «قمرية» :

ـ يا ولدي إن هذه أبرك ليالي الزمان التي تغيظ العدو وتفرح الأحباب ، وأنا أدعو لك بالسعادة والتوفيق .

ثم قبلته في جبينه ، فقبل يدها وهو يقول لها :

ـ اغفري لي يا أمي ما كان يملأ قلبي الأسود من غيظ منك وبغض لك ، وما كنت أعلم أنك بهذه الطيبة والحنان ..

فقالت «قمرية» .

ـ إن قلبي يا بني يخاف عليك من هذا اللوح المرصود الذي تحمله في صدرك ، فمثل هذه الليلة ينبغي أن تكون طاهرة ، ولا يحضرها إلا أنت وزوجتك .. ووجود اللوح معك معناه وجود خادمة ..

فقال «سيف» .

ـ لك الحق يا أمي فخذيه احفظيه معك حتى آخذه منك في الصباح ..

ثم خلع سلسلة اللوح ، وأعطاه لها وهي تزخرف له القول وتزيف عليه الكلام ، وقبلته مرة أخرى في جبينه ثم عادت إلى حجرتها .

° ° °

قضى الملك «سيف» مع زوجته ليلته الأولى في سعادة حقيقية بعد طول شقاء ، وقد نسي إلى جوارها كل ما ألم به من أحزان وتعب . ولم يعد هناك مجال إلا للحب والود والهناء ، وقد غفل عما يخبئه الزمان ..

حتى أخذ الكرى بمعاقد الأجفان فنام هو والملكة «شامة» .

أما «قمرية» فقد عادت إلى حجرتها واستدعت جاريتها ، وأمرتها أن ترقب خارج حجرة «شامة» حتى تعرف أنهما قد ناما ، فتعود وتنبئها بالأمر ..

وظلت مستيقظة حتى عادت الجارية قائلة : إن «سيف» و«شامة» قد ناما . فدلكت اللوح وحضر «عيروض» فأمرته أن يصف لها وديان المهالك وأراضي الهلاك ، فجعل يصف لها ما يعرفه من وديان وأراض حتى حدثها عن أراضي الغيلان ووادي الطودان ..

فقالت له :

ــ يا «عيروض» خذ الملك «سيف» وارمه في أراضي الغيلان .. أما «شامة» فارمها في وادي الطودان ..

فصدع «عيروض» بما أمر به ، وحمل الملك «سيف» ورماه في أراضي الغيلان ، ثم عاد وحمل الملكة «شامة» وهي نائمة ورماها في وادي الطودان ، وعاد يخبر «قمرية» بما فعل ..

فقالت قمرية :

ــ الآن هدأ سري وارتاح بالي ونلت من هذا الملعون مرادي ..

٢٠

وادي الغيلان

فتحت الملكة «شامة» عينيها ، فرأت نفسها وحيدة وسط البراري والجبال .. فقامت مذعورة ، وأخذت تجري هنا وهناك حتى تأكدت أنه لا مهرب لها من هذه الصحراء ، وفهمت أن هذه مكيدة من مكائد «قمرية» .. وما أن أتى الظهر حتى كانت قواها قد انهدت ويأسها قد زاد ، فجلست تبكي سعادتها التي لم تتم وفرحتها التي لم تكتمل .. إلا أنها سمعت وسط بكائها أصواتاً مهولة فرفعت رأسها ... فإذ بها تشاهد عشرة رجال طوال كأنهم الأشجار السامقة ، فعرفت أنها في وادي الطودان ، ومد أحدهم يده فخطفها من فوق الأرض وهو يقول لرفقائه :

ـ انظروا هذه المخلوقة العجيبة كأنها مسخ أو مخلوق مسخوط ..
فقال آخرهم :

ـ هيا بنا نحملها إلى ملكنا ليتفرج عليها ..

وما أقبلوا إلى الملك إلا وقد ازداد عدد المتفرجين على «شامة» من الرجال الأطواد ، وهم يتلاغطون ويتكلمون بأصوات كالرعد .. وقف الجميع أمام الملك ساكتين وأخبروه بكيفية العثور عليها ، وكل منهم يتقدم من عنده بتفسير لصغر حجمها .. وقاطعهم الملك قائلاً :

ـ لماذا جئتم بها إلى هنا . اذبحوها وادفنوها ..

فصاحت «شامة» قائلة :

ـ ما هذا الكلام ! .. أتكون لكم مثل هذه الأجسام وتصدر عنكم هذه التصرفات العجيبة ، لماذا تريدون قتلي ؟!

قال الملك :

ـ إنك لست في حجم أي واحد منا ، وهذا دليل على أن إلهنا قد مسخك جزاء لك على عصيانك عبادته وطاعته ..

فقالت «شامة» :

ـ إن إلهكم خلقني صغيرة كما خلقكم كبارا ..

فصاح الملك :

ـ إن إلهنا لا يخلق مخلوقات صغيرة أبداً .. هيا خذوها واقتلوها

وهنا قالت «صادقة» بنت ملك الأطواد :

ـ اتركها لي يا أبت تساعدني في خدمة الإله ، فربما عفا عنها وأعادها إلى الخلقة السوية ..

وكان الملك يحب ابنته حباً جما ولا يرفض لها طلباً ، فأجابها إلى ما طلبت ، وأمر الرجال أن يتركوا «شامة» معها ..

وقادت «صادقة» «شامة» إلى معبد الطودان ، وفتحت باب المعبد إلى الهيكل ، وهناك رأت «شامة» خروفاً كبيراً سميناً ، وإذ بـ «صادقة» تجثو أمامه ، ثم ترفع رأسها وتقول لـ «شامة» .

ـ هذا هو الإله .. عليك أن تخدميه وتقدمي له الطعام والشراب وسنرتب لك أنت من يخدمك من العبيد .. إن جاع الإله قال ماء فأطعميه ، وإن عطش قال ماء فاسقيه ..

ورأت «شامة» أن خدمة الخروف أفضل من الموت على يد هؤلاء

القوم الكبار الأجسام الصغار العقول .. فاستسلمت لحكم القدر وقامت تخدم الخروف ..

• • •

أما الملك «سيف» فقد فتح عينيه في الصباح على واد كثير الطيور والأشجار ، مليء بالزرع والأنهار .. فمضى فيه متعجباً وقد ملأت الحسرة قلبه لأنه علم أن الذي فعل فيه هذا هو من ملك زمام عيروض ، وهو أمه التي توقعه في المهالك دون رحمة أو شفقة .. وظل «سيف» يسير بحثاً عن مخرج دون جدوى ، حتى أقبل عليه الليل وهو يدعو الله من قلبه ألا يمس انتقام «قمرية» منه زوجته «شامة» بالأذى ثم صعد على شجرة عالية خوفاً من الوحوش ونام إلى الصباح وقد أسلم أمره لربه يحفظه ويرعاه ..

وفتح الملك «سيف» عينيه في الصباح على صوت مهول يأتي من بعيد ويقترب من مكانه ، فأطل برأسه من بين غصون الشجرة التي ينام عليها .. فإذا به يلمح شخصاً مقبلاً عليه له وجه شنيع الخلقة ، أنفه طويل كالمنقار وأنيابه بارزة من شفتيه وأذناه كبيرتان وتتدليان إلى جوار رقبته ، وعيناه تلمعان ببريق كالنار .. وما أن وصل هذا الشخص إلى الشجرة حتى وقف تحتها وجعل يهزها هزاً وهو يزوم .. و «سيف» قد بلغ منه الخوف كل مبلغ وتشبث بغصن الشجرة .. ولما يئس هذا الشخص من وقوع «سيف» بين مخالبه ، زام وصاح ثم أسرع يجري ويتركه .. وما كاد « سيف » يلتقط أنفــاسه ويعتدل في جلسته حتى رآه من بعيد يعود ومعه عشرة مثله ، وكلهم يزومون ويصرخون ، فعرف «سيف» أنه وقع في وادي الغيلان ، وأن لا مهرب له من الموت بين أنيابهم .. فأسلم أمره لله وتشبث بالغصن في إصرار ..

واقترب الغيلان من الشجرة ، وقد علا صراخهم واشتدت صيحاتهم ، ثم التفوا بالشجرة .. وما كادوا يقتربون ليهزوها حتى ارتفع من بعيد صوت حاد مهول ، ونظروا جميعاً وراءهم ، ونظر «سيف» كذلك .. وإذ به يرى عجوزاً لها شعر أبيض كاللبن تتقدم منهم على مهل وهي تصيح في لغة غير مفهومة ، إلا أن الغيلان ما أن سمعوها حتى تراجعوا عن الشجرة وتأخروا إلى الوراء .. وما أن اقتربت العجوز من الشجرة حتى أشارت للملك «سيف» أن ينزل فنظر إليها وقد انتابته الحيرة ، فهو إن نزل افترسه الغيلان .. وهو إن بقي في مكانه أمكنهم ان يقتلعوا الشجرة كلها إن أرادوا ، إلا أن حيرته لم تطل لأنه سمع العجوز تخاطبه بالعربية قائلة :

ـ انزل يا ملك «سيف» ولا تخف ، فأنا كبيرة هؤلاء الغيلان وعهد عليّ أن أحميك منهم ..

ولم يجد الملك «سيف» أمامه إلا أن ينزل عن الشجرة ، ويقصد إلى حيث تقف العجوز .. وقد أدهشه أن تخاطبه باللغة العربية ، وأن تعرف اسمه فقال لها .

ـ ولكن كيف تعرفين اسمي .

فقالت له العجوز .

ـ هذه حكاية طويلة ، أما الآن فاتبعني ..

فتبعها الملك «سيف» وهو ينظر محاذراً إلى حيث وقف الغيلان من بعيد .. وما لبثت العجوز أن وصلت إلى مغارة كبيرة فدخلت ووراءها الملك «سيف» وأشارت له ليجلس في ركن المكان ، ثم أتت له بطعام من الفاكهة وهي تقول .

ـ أنت لا شك جوعان ، فكل من هذه الفاكهة ، وسأحكي لك وأنت تأكل كل ما غمض عليك من حالي ..

وبينما كان الملك «سيف» يأكل ، قالت له العجوز .

ـ لقد كان أبي حكيماً وملكاً لبلدة الصخر الأسود ، وكان يحكم بين رعاياه بالعدل .. ولكن أهل المدينة كانوا أهل سوء وغدر ، فلما رأوه يمنـع السرقـة والرشوة ثاروا عليه وأرادوا ان يهلكوه فهرب منهـم هو وزوجته ، وظل يقطع الفيافي والصحارى حتى جاء إلى هذا المكان ، وأراد أن يستقر فيه .. إلا أن زوجته كانت امرأة سيئة لا تعرف الإخلاص لزوجها وكان هذا الوادي بعيداً عن العمران فلم تجد أمامها إلا الوحوش .. فجاءت بولد وبنت من المسخ المشوه على مثل الخلقة التي ترى ، واستعاذ أبي من هذا الخلف المشؤوم ، فضرب تحت الرمل يكشف الخبر .. فرأى أن هذا الوادي موعود بهم ، وأنهم سيصبحون سلالة من الغيلان إلى أن يتم هلاكهم على يد ملك يمني عربي هو الملك «سيف بن ذي يزن» . فأعد بنفسه أدوات هلاكهم ورصدها باسمك وجعلني وكيلـة عليها ، وأمرني أن أنتظر مجيئك لأدلك وأساعدك ليتوب الله عليّ وينجيني من العذاب الذي أعده لهم .. وكان من عادتي أن أضرب الرمل كل يوم لأعرف إذا كنت قد جئت ، فلما ضربت الرمل اليوم رأيتك على الشجرة والغيلان حولك ... فأسرعت لأنقذك من بين أيديهم لتؤدي رسالتك ..

فقال «سيف» :

ـ وكيف أحصل على هذه الأدوات ؟

فقالت العجوز :

ـ في نهاية هذه المغارة سلم يصعد إلى أعلى ، فاصعد عليه تجد صالة طويلة فسر فيها ولا تخف إلى أن تصل إلى حجرة مدورة لها قبة ،

فقف تحت القبة تماماً .. ثم سر واحداً وستين قدماً ، ثم احفر في الأرض حتى لا تجد ما تحفره ، فانزل إلى الحجرة السفلى تجد قبراً من الرخام ، فاتل حسبك ونسبك ، وأدر لولب باب القبر ينفتح لك وتجد فيه تابوتاً ، فارفع غطاء التابوت تجد أبي نائماً ، فمد يدك تحت رأسه تجد وعاء صغيراً عليه نقوش كثيرة .. فخذه دون أن تنظر إلى وجه النائم في التابوت وإياك أن تفعل كما فعلت مع الملك سام ، ثم أغلق التابوت وأدر لولب القبر لينقفل ، ثم اردم ما حفرت وعد إليّ بهذا الوعاء ..

وما أن انتهى الملك «سيف» من طعامه حتى أسرع ينفذ ما أمرته العجوز بصنعه ، وعاد بالوعاء .. فقالت له العجوز :

ـ والآن افتح هذا الوعاء تجد فيه حباً فسر به إلى الناحية الأخرى من المغارة تجد قفصاً فيه ديك مصنوع بالحكمة ، ورأسه ملتو تحت جناحه .. فاتل حسبك ونسبك على القفص ينفتح لك الباب ، فاعدل رأس الديك يتحرك في يدك فارم له الحب الذي في الوعاء يتبعك حتى تأتي إلى هنا ..

فسار «سيف» ينفذ ما أخبرته به العجوز حتى عاد بالديك المرصود فقالت العجوز :

ـ لم يعد لنا الآن بقاء هنا ، فهيا بنا نخرج من الوادي وسيتبعنا الغيلان منجذبين بالديك ، فإذا ما تبعونا أهلكناهم ..

فقال «سيف» :

ـ وكيف نهلكهم ونحن اثنان فقط ؟!

فقالت العجوز :

ـ سوف ترى ، والآن لا داعي لإضاعة الوقت فهيا بنا ..

وسار الملك «سيف» مع العجوز وهي ترعاه وتحضر له ما يأكله ، وتسهر عليه حين ينام .. وبعد مسيرة يومين ظهرت غبرة آتية نحوهما تصدر منها الصيحات الغاضبة والدمدمات المبهمة ، فقالت العجوز :

ـ ها قد أتى الغيلان ..

فأراد الملك «سيف» أن يجرد حسامه من غمده ليلقاهم مدافعاً عن حياته وحياتها ، إلا أن العجوز ضحكت قائلة :

ـ هل تريد أن تقاتلهم وحدك .. إن هذا الأمر لا ينفع فيه الحسام يا ولدي ، وإنما هذا وقت استخدام الديك المصنوع بالحكمة .. !

وما أتمت كلامها حتى أحاط بهم الغيلان من كل جانب ، فقالت العجوز :

ـ خذ ريش الديك وارم به عليهم ..

فأخذ الملك «سيف» ينزع ريش الديك ، ويرمي به على الغيلان ، فينزل عليهم كشهب النيران تحرقهم حرقاً ، والديك يصيح مع كل ريشة تنزع من جناحيه ، حتى انتهى الريش وتم حرق كل الغيلان ، ونظر «سيف» إلى الديك فإذا هو ميت ..

وقالت العجوز :

ـ هيا بنا يا بني لقد انتهى الأمر ونفذ المقدور .. !

° ° °

ظلت الملكة «شامة» تخدم الكبش فترة من الزمن ، وظهرت عليها علامات الحمل ... فخدمها عبيد الكبش واعتنى بها الطودان حتى أكملت أشهر حملها ووضعت طفلها فأسمته «دمر» وانصرفت إليه ترعاه وهي تتحسر على نفسها ومصيرها . إلى أن كانت ليلة نسيت فيها أن تغير الشمع في المعبد فانتشر من الشمعة النار ، واستيقظ أهل المدينة

على معبدهم يحترق ، فأسرعوا يطفئون النيران .. ثم أمسكوا بالملكـة «شامة» وقد استبد بهم الغضب لإهمالها رعاية المعبد ، وقرروا صلبها على خشبة أقاموها ، ثم حرقها بعد الصلب ..

وأقاموا الخشبة خارج المدينة ، وجمعوا الأعشاب تحتها ، وخرجت المدينة كلها تتفرج على صلب «شامة» وحرقها .. وتقدم حاجبان يقودانها وهي تبكي يائسة من كل أمل في النجاة إلى أن اقتربا من مكان الصلب ..

ووقف الملك يتلو صلاة لإلههم ثم أشار بيده فتقدم الحاجبان وهما يقودان «شامة» .. وإذ بصوت يدوي من بعيد يأمرهم بالانتظار ، فنظر الجميع إلى مصدر الصوت وإذ بهم يرون اثنين يتقدمان منهما .. وصاح الملك :

ـ هذان غريبان ..

ولكن «شامة» كانت قد عرفت صوت زوجها ، فصاحت :

ـ إليّ يا ملك «سيف» .. يا مبيد أهل الكفر والضلال .. إلى زوجتك وابنك ..

وكان «سيف» والعجوز قد وصلا في سيرهما إلى المدينة في اللحظة التي أوشك الحاجبان أن يصلبا فيها «شامة» فعرفها «سيف» وصاح صيحة يحذر فيها من المساس بالأسيرة ، ولكن صوت الملك عاد يعلو قائلاً :

ـ اقبضوا عليهما لنقدمهما قرباناً للإله ..

وهجم الطودان على سيف والعجوز ، فجرد الملك «سيف» حسامه ومضى يضرب فيهم ضرب اليائس المستبسل .. بينما أخذت العجوز تقاتل قتال الجبابرة ، وهما يردان هجمات الطودان في شجاعة وقوة ..

إلا أن الطودان تكاثروا عليهما ، وسرعان ما قبضوا على الملك «سيف» .. ثم على العجوز ، وحملوهما مع الملكة «شامة» إلى المعبد بأمر ملكهم الذي قال :

ـ غداً نحتفل بصلب الثلاثة وحرقهم قرباناً للإله .. !

° ° °

قالت العجوز للملك «سيف» :

ـ اقترب مني وأعطني ظهرك لأقرض قيودك بأسناني .. ؟

فظل الملك «سيف» يزحف حتى اقترب منها ، وانقلب على ظهره مقرباً قيوده من فم العجوز التي أخذت تقرض القيود بأنيابها حتى مزقتها .. فخلص «سيف» نفسه من القيود ، وقام إلى العجوز ففك قيودها ثم فك قيود زوجته .. فأسرعت «شامة» ترتمي على صدره باكية .. وأخذ الملك «سيف» يهدئ من روعها إلى أن سكتت ، فحكت له كل ما جرى لها وعندما انتهت من حديثها قال «سيف» :

ـ وأين هذا الطفل الذي جاءني ولم أره .. ؟ .

فذهبت «شامة» إلى داخل المعبد حيث وضعت طفلها ، وعادت به إلى أبيه الذي تلقاه بفرحة غامرة ، وأخذ يقبله ويقول :

ـ من أجل هذا الوليد ينبغي أن نخرج من هنا أحياء ..

ونظر «سيف» حوله فوجد قطعاً كثيرة من الحجارة تملأ المعبد ، وتماثيل من الحجر مقامة في كل مكان ، فأخذ هو والعجوز ينقلانها خلف باب المعبد حتى أصبح من المتعذر فتح الباب ، وأخذ الملك «سيف» مطرقة كبيرة وأخذ يكسر الأحجار وينقلها إلى أعلى سور المعبد ، وما أن أتى الصباح حتى كان قد نقل كمية كبيرة من الأحجار تعاونه «شامة» والعجوز .. ثم جلس الثلاثة ينتظرون قدوم الطودان .

وأقبل الطودان في جمع كبير وقد حملوا ثلاثة صلبان لصلب الأسرى ، وما أن اقتربوا من السور حتى أخذ «سيف» والعجوز يرجمانهم بالحجارة فصاح الطودان وأسرعوا بالابتعاد عن السور ، وذهب رسول منهم إلى الملك يخبره بما حدث فأمر جنده باقتحام المعبد ، وسرعان ما أقبل الجند يحمون رؤوسهم بأبواب من الخشب ويتقدمون ناحية الباب ، وجعل « سيف » والعجوز يقذفانهم بالحجارة فتردهـا الأبواب المرفوعة فوق الرؤوس حتى وصل الجند إلى باب المعبد وحاولوا فتحه ولكنهم عجزوا لوجود الأحجار وراءه ، واشتد سقوط الحجارة فوقهم فأسرعوا يعودون متراجعين والأحجار تصيبهم من كل ناحية ..

وأقبل الملك إلى المعبد ، وصاح في «سيف» قائلاً :

ـ لماذا هذا التطويل أيها القصير ، إنك لن تستطيع أن تظل في المعبد طويلاً وإن لم تمت على خشبة الصلب فستموت من الجوع ...

فقال «سيف» :

ـ قبل أن نموت أيها الكافر سأجعلك تدفع الثمن غالياً ، وسأبدأ بالهك ..

ثم أسرع « سيف » وأحضر الخروف عند السور وذبحه أمام الطودان جميعاً الذين أخذوا يصيحون ويبكون ، وأخذ الملك يصرخ ويقول :

ـ أتذبح الإله . ستدمر المدينة وتقصف الرياح .

وأخذ يشد شعره ويبكي .. ولكن «سيفاً» مضى يقطع من لحم الخروف والعجوز تشويه ، وهم يأكلون من لحمه أمام الطودان .. وصاح الملك برجاله :

ـ لا بد من الانتقام لإلهنا .. هيا مزقوهم بالسيوف والرماح ..

واندفع الطودان كالمجانين دون أن يبالوا بالأحجار التي يقذفهم بها «سيف» وحطموا الباب لينفذوا إلى الأسرى ، وامتشق «سيف» حسامه ومضى يقاتلهم ووراءه زوجته وابنه ، وإلى جواره العجوز تقاتل في شجاعة واستبسال ..

وطال الأمر بـ «سيف» وأيقن بدنو النهاية ، فالتفت وراءه إلى «شامة» قائلاً :

ـ اقتربي يا «شامة» لأودع ابني بنظرة أخيرة ..

ولكنه ما كاد يتم حديثه حتى أحس بنفسه يرفع من وسط القتال وإلى جواره زوجته وابنه .. واندهشت العجوز ورفعت رأسها تنظر إلى «سيف» وزوجته وابنه يرتفعون في الهواء وإذ بالرماح تطعنها من كل جانب وتمزقها إرباً إرباً ..

أما «سيف» فحمد الله وقال :

ـ أهذا أنت يا عيروض .. ؟!

فرد عليه صوت يعرفه :

ـ بل هذا أنا أختك في الرضاع «عاقصة» ..

ووضعتهم «عاقصة» على جبل وهي تقول :

ـ لقد كنت عزمت على أن لا أتدخل في أمرك أبداً ، ولكني أنقذتك هذه المرة من أجل الطفل الوليد ، أين هو فإني أريد أن أراه ..

وأخذت «عاقصة» تتأمل «دمر» وهي تبتسم وتضحك ، وقال «سيف» :

ـ هيا بنا يا «عاقصة» احملينا إلى بلادنا ..

فقالت «عاقصة» :

– إن بينك وبين بلادك مسافة طويلة جداً .. ولكن هيا بنا وسنقطع الطريق إليها على مراحل ..

وحملتهم «عاقصة» ومضت بهم طائرة في الهواء ..

٢١

تجربة قاسية

أنزلت «عاقصة» الملك «سيفاً» وزوجته وابنه في واد فسيح الجنبات مليء بالأشجار والطيور ، وقالت له :

ـ هذه أرض الملك «أبي تاج» وهو أحد الملوك التابعين للملك «سيف أرعد» وبلاده تقع ضمن حدود أرضه ..

فقال «سيف» :

ـ سنكمل نحن الرحلة على ظهور الخيل ، فأحضري لنا خيلاً وسلاحاً واتركينا ..

فغابت «عاقصة» لبعض الوقت ، ثم عادت تحمل الخيل والسلاح والطعام واختفت ..

سار «سيف» وزوجته وابنه يتفقدون المكان إلى أن وجدوا مغارة تحت جبل ، فاتجهوا إليها . وسد «سيف» المغارة بحجر وناموا فيها حتى الصباح .. ثم خرج «سيف» فاصطاد غزالاً وعاد به إلى زوجته لتعده للطعام .. وكان بجوار المغارة نهر يجري بالماء ، وحول النهر أشجار الفاكهة .. فطابت الحياة لهم واستراح بالهم ، وظلوا على هذه الحياة فترة من الزمان .

وذات صباح كان الملك «سيف» يسير على قدميه بحثاً عن صيد يصطاده ، حين سمع ضجة تأتي من خلف أحد التلال فمضى يدور حوله

ليكتشف أمر هذه الأصوات ، وإذا به يرى جمهرة من الفرسان تحاور أسداً ضخماً وهو بين الحين والحين ينقض على أحدهم فيقتله ثم يعود فيصول ويجول لينقض على آخر . والفرسان لا تستطيع الاقتراب منه ولا الهرب من أمامه .. فتقدم الملك «سيف» وقد أشرع سيفه في يده ، والفرسان مشغولون عنه بأمر الأسد الذي قفز قفزة هائلة وضرب بيده حصان رئيسهم ، فوقع الحصان على الأرض محطم الجمجمة ، بينما قفز الفارس وقد رفع ترسه أمامه وأمسك سيفه بيده وأخذ يتراجع من أمام الأسد ، وقد أخذ الفرسان يتصايحون في رعب ، وضرب الأسد الأرض بذيله وتهيأ للوثوب على فريسته ، وزأر زأرة مرعبة ثم قفز ، ولكن الملك «سيفاً» كان قد وصل إليه فأزاح الفارس من أمامه بسرعة وخطفه بعيداً عن مكان الأسد منقذاً حياته من الموت ، وزام الاسد مرة أخرى وزأر والتفت إلى هذا الذي حرمه من فريسته ، وجمع جسده استعداداً لوثبة هائلة ، ووقف «سيف» أمامه وقد رفع سيفه بكل قوته .. وما أن قفز الأسد عليه حتى تلقاه بضربة قوية شقت رأس الأسد الذي وقع مضرجاً بدمائه ، بينما تصايح الفرسان مذهولين وأسرعوا إلى «سيف» يهنئونه بنجاته ، ويشكرونه على إنقاذه لملكهم ..

أما ملكهم فتقدم من «سيف» قائلاً :

ـ نحن نشكرك أيها الفارس الجليل على أفضالك وشجاعتك ، وأنا الملك «أبو تاج» أدين لك بحياتي ،. ومن اليوم أنت في موضع الشرف والعزة عندي ، فاركب معي إلى مدينتي لأظهر لك شكري وامتناني ..

فقال «سيف» :

ـ لست أستطيع الذهاب معك فإن زوجتي وابني في المغارة في الناحية

الأخرى من التل ، وقد كنت خرجت أصيد لطعامهما صيداً حين رأيتكم مع الأسد ..

فطلب منه الملك إحضارهما معه ، وأرسل بصحبته حاجبه ومعه الخيل لحمل «شامة» و «دمر» .. وسرعان ما انضم هذا الركب إلى ركب الملك وسار الجميع إلى المدينة ..

• • •

أكرم الملك «أبو تاج» الملك «سيفاً» غاية الإكرام ، وأمر بإخلاء جناح له في القصر يقيم فيه مع زوجته وولده ، وأرسل لهم الطعام والشراب والملابس الغالية من خزانته الخاصة .. وفي المساء أرسل إلى الملك «سيف» ليجلس معه ويسامره ، بينما أرسل جواريه إلى الملكة «شامة» لخدمتها والعناية بها ..

وجلس الملك «سيف» إلى يمين الملك «أبي تاج» ودار الطعام والشراب وصفت النفوس وراقت الأفئدة ، وقال الملك «أبو تاج» لضيفه :

ـ إن مخايل النبل تبدو عليك أيها الفارس ، فكيف بالله تعيش مع زوجتك في مغارة ؟!

فقال الملك «سيف» :

ـ إنما هي يا مولاي ظروف الأيام وأحكام القدر ..

ومضى الملك «سيف» يحكي له قصته مع أمه ، ومع الملك «أفراح» أبي زوجته الملكة «شامة» فقال الملك «أبو تاج» :

ـ فالملكة «شامة» زوجتك إذن هي ابنة الملك «أفراح» صاحب مدينة الحديد ، وأمك صاحبة مدينة حمراء اليمن .. نحن إذن قصرنا في تكريمك ، فاغفر لنا هذا التقصير ..

فقال الملك «سيف» :

ـ يا مولاي لقد كرمتنا غاية التكريم وأضفيت علينا من عطفك الكثير .

وهنا أقبل الحاجب ، يهمس في أذن الملك «أبي تاج» فاستأذن من جلسائه ودخل إلى حريمه حيث وقفت جاريته في انتظاره ، وقالت له :

ـ لقد رأيت اليوم يا مولاي أجمل امرأة وقعت عليها عيناي ..

فلمعت عينا الملك «أبي تاج» وكان مغرماً يتتبع النساء الجميلات وضمهن إلى حريمه إلى حد الهوس ، وقال لها :

ـ وأين هي ، ولك عندي هدية قيمة ..

فقالت الجارية في خبث ودهاء :

ـ إنها في قصر مولاي ، وتحت سلطانه ..

فقال الملك :

ـ في قصري ، أين ...

فابتسمت الجارية وهي تقول :

ـ إنها زوجة الفارس الأبيض الذي جاء معك يا مولاي من رحلة الصيد ..

ـ تعنين «شامة» بنت الملك أفراح ..؟!

فراحت الجارية تصف له حسن «شامة» وجمالها حتى سلبت لب الملك ، وأنساه وصفها الدنيا ، وأفاق عليها وهي تقول :

ـ وهي بعد يا مولاي في قصرك ، ولست أظن زوجها بقادر على ممانعتك عنها ..

فقال الملك مفكراً :

ـ إن هؤلاء العرب يحافظون على نسائهم ولا يفرطون فيهن ...

فقالت الجارية في دهاء :

ـ وهل يستطيع أن يمانعك عنها وهو في قصرك وبين جندك وحرسك ؟ .. وهل تردك يا مولاي وهي تعرف سطوتك وقوتك .. ؟

فقال لها الملك :

ـ هيا بنا إليها ، فلا بد أنها وحدها إذ إن زوجها عندي في قاعة السمر ..

وانطلق الملك من فوره تتقدمه الجارية إلى جناح الملك «سيف» ودفعت الجارية الباب دون استئذان ، ودخلت إلى حجرة الملكة «شامة» يتبعها الملك ..

وكانت الملكة «شامة» تهدهد «دمر» لينام ، ففوجئت بالباب يفتح عليها فهبت من جلستها سريعاً ، فإذا بها تفاجأ برؤية الملك «أبي تاج» أمامها .. فصاحت :

ـ كيف تدخل على النساء دون استئذان ودون وجود رجالهن . ؟!

وكان الملك «أبو تاج» يقف ساهماً ، وقد أذهله جمال «شامة» وحسنها الباهر ، فقالت الجارية :

ـ تأدبي يا فتاة ، فهذا الملك «أبو تاج» ..

فصاحت «شامة» فيها غاضبة :

ـ وهل من آداب الملوك ألا يراعوا حرمة النساء ؟!

وكان الملك «أبو تاج» قد تمالك نفسه ، فقال لها :

ـ مثل جمالك يا حسناء غير جدير إلا بالملوك ، ولا بد لي أن أضمك إلى حريمي ..

فصاحت «شامة» به :

ـ خسئت يا أقل الرجال ، أهذا كلام يصدر عن ملك من الملوك !

واندفعت إليه تريد أن تصفعه ، وإذ بالباب يصفع ويدخل الملك «سيف» الذي كان قد تعب من انتظار الملك ، وعاد ليستريح بعد تعب النهار فوقف مندهشاً وهو يقول :

ـ ما الذي أتى بك إلى هنا أيها الملك ، وما الأمر يا «شامة» ؟ .

وقبل أن تتحدث «شامة» قال الملك «أبو تاج» :

ـ ليس في الأمر شيء ، ولكن زوجتك هذه قد أعجبتني وسأعطيك ما تشاء لتتنازل لي عنها ..

فالتمع الغضب في عيني الملك «سيف» وأسرع يستل سيفه وهو يصيح :

ـ ما هذا أيها الوغد الدنيء ؟! أهذا جزائي على إنقاذ حياتك ..

فقال له الملك وهو يتراجع وقد سبقته الجارية إلى الخروج :

ـ إن هذا عرف سائد عندنا ، إذا أعجبت الملك امرأة اشتراها من زوجها ..

فصاح فيه «سيف» :

ـ خسئت وخسئ مثل هذا العرف الملعون ، سأقطع جسدك جزاء ما تقول ..

ولكن الملك «أبا تاج» كان قد وصل إلى الباب فخرج منه بسرعة وأغلقه وراءه ، ثم صاح بالحراس ليغلقوا الأبواب ويمنعوا خروج «سيف» وزوجته من الباب .. فقالت «شامة» :

ـ لقد سجننا النذل الجبان ..

وجاءهم صوت الملك وهو يقول من خارج الباب : .

ـ سأترك لك مهلة لتفكر فيها في الأمر حتى صباح غد إكراماً

لجميلك الذي قدمته حين أنقذت حياتي من الأسد ، فإن لم تغير رأيك أخذتها غصباً وقطعت رأسك ..

فصاح به «سيف» :

ـ لو كنت أعلم نذالتك لتركتك لوحش الغاب يزهق أنفاسك !

ولم تجاوبه هذه المرة سوى ضحكات الملك «أبي تاج» وهو يبتعد إلى محل سمره وسكره ..

° ° °

وجلس «سيف» حائراً لا يدري ماذا يفعل ، فهو إن انتظر إلى الصباح فلا أمل له في النجاة ، وهو إن حاول أن يقتحم الباب تجمع كل جند القصر وفتكوا به .. وأخرجته «شامة» من حيرته حين قالت :

ـ لماذا لا نهرب عن طريق النافذة ؟

وأسرع «سيف» إلى النافذة وفتحها في حذر ، فإذا هي تطل على صالة واسعة ، ولمح جندياً يقف إلى جوار الباب عن يسار النافذة . فطلب من «شامة» أن تدق الباب بعنف وتصرخ لتجذب نظر الجندي إلى الباب ، وبينما كانت «شامة» تسب الملك «أبا تاج» وتضرب الباب بقبضتيها ، كان الملك «سيف» يتسلل من النافذة ويفاجئ الحارس من الخلف ويطبق عليه بشدة يمنعه من الصياح ، ثم أخذ منه المفاتيح وفتح الباب بيد وهو يمسك برقبته باليد الأخرى والحارس في رعب وذهول لا يكاد يبدي حراكاً .. وخرجت «شامة» من الباب تحمل طفلها ، فزاد الملك «سيف» من ضغطه على رقبة الحارس وهو يقول له :

ـ إياك أن تفتح فمك بكلمة ، سر وقدني إلى خارج القصر بحيث لا يرانا أحد ..

ومضى الحارس بهما من أبواب الحريم إلى خارج القصر متسترين بالظلام .. فأمره الملك «سيف» أن يقوده إلى حيث جواده وجواد زوجته .. وعند مكان الخيل ضرب «سيف» الحارس فوق رأسه فأفقده وعيه ، وتقدم هو بحذر حتى حاذى سائس الخيل النائم ، فأطبق على رقبته وظل يعتصرها إلى أن فارق الحياة ، فقاد جواده وجواد «شامة» ، وسار وهي وراءه حتى خرجا من المدينة ، فركب فرسه وركبت حصانها ، وأسرعا يعدوان عدواً حثيثاً وهما لا يصدقان بالنجاة .

ه ه ه

وأقبل الصباح وهما لا يزالان في عدوهما إلى أن بلغا المغارة التي كانا فيها من قبل ، ولكنهما قبل أن يترجلا عن الخيل إذ بهما يسمعان صوت عدو الخيل وقعقعة السلاح ، فقال «سيف» :

ـ هذا هو الملعون قد أقبل بجنوده ، فادخلي يا «شامة» إلى المغارة ، وسألقاهم بسيفي ..

وما أن أتم كلامه ، حتى أحاط به الفرسان من كل جانب ، وبدأت معركة عنيفة ظل «سيف» يضرب فيها دون أن ينال منه التعب ، وقد أحس أنه إن وهن أو ضعف ضاعت «شامة» وابنه «دمر» وقتل هو بلا رحمة .. وظل «سيف» مسنداً ظهره إلى المغارة والسيف في يده ، وصوت «شامة» يصل إليه مشجعاً إلى أن أحس أنه لن يستطيع أن يصمد للقتال أكثر من هذا .. فالتفت بعينيه باحثاً عن الملك «أبي تاج» حتى رآه يقف على حصانه يراقب القتال عن بعد ، فغير من طريقته في القتال وأخذ يهاجم بعد أن كان مدافعاً حتى أخذ يقترب تدريجياً من مكان الملك «أبي تاج» .. حتى إذا ما قاربه قفز قفزة واسعة ، منتزعاً

إياه من على سرج حصانه ، وأطبق بيده على عنقه ، وسدد ذبابة السيف باليد الأخرى إلى رقبته وهو يصيح :

ـ لو اقترب أحدكم ذبحت ملككم في الحال ..

ووقف الجند حائرين ، وقد أخذ «سيف» يتراجع بأسيره إلى أن اقترب من باب المغارة ، فدخلها في قفزة واحدة وهو يقول :

ـ سأرد على أي هجوم من أحدكم بذبح هذا النذل في الحال وما أن دخل به «سيف» في المغارة حتى أسرع يشد وثاقه وهو يقول :

ـ لقد أنقذت حياتك مرة من مخالب الأسد ، والآن سأسترد ما أعطيتك ..

فقال «أبو تاج» :

ـ وكيف ستهرب من جنودي وفرساني ؟! ..

فقال «سيف» :

إذا كان لا بد لي أن أموت ، فسأقتلك أولاً ..

ـ فقال «أبو تاج» :

ـ حل عني وثاقي ، وسأمضي بجنودي ولن أطاردك مرة أخرى ..

فقال «سيف» :

ـ وكيف لي أن أصدق غادراً مثلك ؟! .

فقال «أبو تاج» :

ـ إن هذا الذي تحسبه غدراً أمر طبيعي في بلادنا ، ولم أكن أظن أنك ستمنع زوجتك عني ، أو أنك ستجد في هذا ما يسيء إليك ! ..

فقال «سيف» :

ـ وهل هناك إساءة أكثر من انتهاك العرض ..

فأطرق «أبو تاج» لحظة ثم قال :

ـ إنني أيها الفارس قد أعجبتني شهامتك وشجاعتك ، وقد ازددت إعجاباً بهما بعد الذي رأيت من مهارتك اليوم .. فافعل بي ما تشاء ، ولكن تأكد أن الحب الآثم الذي كان يملأ قلبي للسيدة «شامة» قد تطهر وأصبح حب إخوة ، فما أروع أن يؤاخي الإنسان مثلك في الشجاعه ومثلها في الجمال والعفاف ..

فقال «سيف» :

ـ إن كنت صادقاً في قولك ، فرحباً بك من أخ كريم ..

وحل «سيف» وثاق الملك «أبي تاج» وقد صفت منهما القلوب ، وحل الحبُ محل البغضاء والكراهية .. وخرج الملك «أبو تاج» إلى جنوده وأمرهم بإعداد الطعام ، وجلس الجميع يأكلون ويشربون حول النيران وقد أقبل الليل ، والملك «سيف» يحدث الملك «أبا تاج» عن بلاده وحنينه إليها وعزمه على البدء في رحلة العودة ..

ولكن الملك «سيف» ما كاد يتم كلامه حتى سمع الجميع قعقعة مدوية في الجو ، وإذ بيد تحمل الملك «سيف» من وسط الجميع وترفعه إلى الهواء ثم تختفي به ..

٢٢

قوة الإيمان

قال الملك «سيف» غاضباً وقد ظن من يحمله «عاقصة» :

ـ من أنت ؟ ..

فرد عليه صوت «عيروض» قائلاً :

ـ إنه أنا «عيروض» أيها الملك ، أرسلتني أمك لأرمي بك في وادي السحرة .. عندما عرفت بنجاتك من بين يدي الملك «أبي تاج» ! ..

فقال «سيف» :

ـ ومن أخبرها يا «عيروض» ؟ ..

فقال «عيروض» :

ـ أنا أيها الملك ، لقد فرطت أنت في اللوح فأصبحت أنا خادماً لها .. والآن قد وصلنا إلى وادي السحرة ، وسأضعك على الجبل ..

فنظر «سيف» فإذا به فوق جبل عال ، وأمامه فتحة يخرج منها النار والدخان ، والتفت يسأل «عيروض» عن أمر هذه الفتحة المتوهجة فلم يجده .. فسلم الملك «سيف» أمره لله ، وجلس يرقب النيران والدخان وهو يعجب من أمر النار تخرج من وسط الجبل دون سبب ظاهر .. ومضى يتفقد أرجاء المكان وهو يمشي محاذراً بين الصخور ، فإذ به يرى شيخاً مقبلاً من بعيد .. طويل القامة .. عريض الهامة وهو

يقترب رويداً رويداً من أسفل الجبل الذي يقف فوقه الملك «سيف».
فاختبأ الملك «سيف» وراء الصخور يرقب الشيخ وهو يتحرك .. وعجب «سيف» كيف يستطيع هذا الشيخ أن يرقى الجبل ، وليس هناك طريق واضح محدد إلا أنه رآه يهمهم ويشير بيده فإذ به فوق الجبل ، ثم مضى إلى حيث مكان خروج النار فرفع يديه واتجه بوجهه إليها وكأنه يصلي لها ثم سجد أمامها .. واندهش «سيف» كيف يعبد إنسان كبير الحجم كهذا الإنسان النار ويسجد لها ، ولم يشعر إلا وهو واقف وقد امتشق حسامه وامتلأت نفسه بالغضب ، فأحس به الشيخ فالتفت إليه بطرف عينه ، وهمهم بكلام غامض ثم أشار إليه بيده فأحس «سيف» وكأن الدنيا قد انطبقت عليه .. وما أفاق إلى نفسه إلا وهو مكتف اليدين والقدمين واللسان دون قيد ظاهر ، وتطلع «سيف» إلى الشيخ فإذ به يقف عند حافة الجبل ويلقي بتعاويذه .. وسرعان ما أصبح في أسفل الجبل وقد تركه وحيداً مكتفاً في مكانه .. فأخذ «سيف» يدعو الله في سره ، وقد أيقن أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ولم يمض وقت طويل حتى عاد هذا الشيخ ومعه أربعون رجلاً مثله في الشكل والملبس ، ووقفوا يهمهمون في أسفل الجبل .. فإذ بهم في أعلاه ، وتقدم كل منهم ناحية «سيف» يتأمل فيه وينظر إليه ، ثم يتجه إلى النار حيث يسجد لها والشيخ يتأخر عنهم ، حتى مر عليه آخر الأربعين .. وما أن اقترب من «سيف» حتى أحس «سيف» بدنو أجله ، فانتظره صابراً مستسلماً .. وإذ بالشيخ يقترب منه ويهمس في أذنه :

ـ لا تخف يا ملك «سيف» فقد تغير نحسك بالسعد ، وجاء لك من ينقذك .. ولكن لا تتحرك حتى أعود إليك ..

ودهش «سيف» من كلام الشيخ ، وزادت دهشته عندما أحس

أنه يستطيع أن يحرك أعضاءه .. ولكنه اتبع نصيحة الشيخ ولزم مكانه صامتاً ، وجعل ينظر إلى الأربعين رجلاً وهم يقفون حول النار يرفعون أيديهم إليها مبتهلين ، ثم يركعون أمامها وأصواتهم ترتفع وتتعالى إلى أن أخذ منهم التعب مأخذه ، وسرعان ما ارتموا على الأرض ساجدين لا حراك بهم .. ولاحظ «سيف» الشيخ وهو يتحرك من وسطهم ، ويتسلل من بينهم ، فيسير محاذراً إلى أن يصل إليه فيمسكه بيده ويهمهم ، بكلام غير مفهوم ، وإذ بهما سوياً في أسفل الجبل .. ثم تركه وغاب لحظات وعاد ومعه جوادين ركب أحدهما وأمر الملك «سيفاً» بركوب الآخر ، وظل يسير بحذر بجواده و «سيف» يتبعه حتى ابتعدا عن الجبل ، فأطلق الشيخ العنان لجواده و «سيف» يتبعه ، وهما ينطلقان بسرعة متزايدة .. وقال «سيف» للشيخ وهما يعدوان :

ـ هل شرحت لي هذه المسألة المحيرة ، فأنت بنفسك ربطتني بالجبل ، وأنت الذي جئت وخلصتني مما أنا فيه .. ثم ها أنت ذا تصحبني بعيداً عن أهلك وعشيرتك ..

فقال الشيخ :

ـ إن لقاءنا أيها الملك كان يحمل التغيير في مصير كلينا ، فقد قيدتك في الجبل حينما رأيتك تخرج لي شاهراً سيفك ، وقررت أن أقدمك قرباناً للنار التي أنا كبير سحرتها .. ولكنني عندما عدت إلى منزلي بعد أن أخبرت رجالي بأمرك ، كنت أسأل نفسي ما الذي دعاك وأنت قزم بالنسبة لي ضئيل بالنسبة لحجمي أن تخرج عليّ بسيفك وأنت الغريب الوحيد .. وظللت مشغول البال بهذا إلى أن نمت ، فجاءني شيخ مهيب يحمل في يده سيفاً كبيراً ، وقال لي : يا «برنوخ» إن هذا القزم عملاق بقوة إيمانه ، وهو قادر أن يهلكك لولا أن الله شاء لك

الهداية ، فاذهب وأسلم على يديه تفز بنعيم الدنيا ونعيم الآخرة ، وقد آن الأوان ليتطهر هذا الوادي من السحرة على يديه فكن في خدمته .. فلما أفقت من نومي وجدت نفسي مدفوعاً بقوة لا تقهر إلى الارتباط بك والسير معك ..

ولم يكد « برنوخ » ينهي حديثه ، حتى سمعا أصواتاً عالية وصيحات متداركة ، فالتفت الملك « سيف » وراءه قال :

ـ ها قد أقبل الأربعون ساحراً ، ومعهم عدد لا يحصى من الجنود ..

فالتفت « برنوخ » وراءه ، وقال :

ـ لقد أتى السحرة معهم بالملك « شمشرون » وجنده ، وأنا أخاف إن اشتغلت بمقاومة السحرة وسحرهم أن تأخذني سيوف جند الملك وهم كثيرو العدد ..

فقال « سيف » :

ـ لك أنت السحرة ولي الفرسان ..

ووقف الاثنان في مكانهما ثم استدارا بحصانيهما ، وقد امتشق « سيف » حسامه وعزم على الصبر في نزالهم حتى يقضي الله من أمره ما يشاء .. وما هي إلا لحظات حتى أقبل السحرة أولاً وجعلوا يتمتمون ويعزمون و « برنوخ » يجاوبهم ، وهم كلما رموا عليه باباً من أبواب السحر أبطله بقدرته ورمى عليهم غيره .. وما لبث الفرسان أن أطبقوا على الملك « سيف » فمضى يضرب فيهم مستعملاً كل حيله وقدرته ، وهو يردهم عن « برنوخ » ويصد هجماتهم بعزم لا يلين ..

وطال الأمر بينهم و « سيف » قد أبلى بلاء حسناً في الجنود و « برنوخ » قد حير السحرة وأذهلهم ، إلا أن التعب ما لبث أن حل بهما ، وقد

كثر عليهما العدد واشتد الطلب ، والتفت «برنوخ» إلى الملك «سيف» وقال له :

ـ والله يا مولاي ما أحسب إلا أن أجلنا قد دنا ..

ولم يتم «برنوخ» كلمته حتى سمع قعقعة عظيمة ، وانقضت عليهما يدان اختطفتهما من فوق الجوادين ، وطارت بهما من وسط الميدان ، وقال «برنوخ» للملك «سيف» .

ـ هذا باب جديد في السحر لا أعرفه ..

فقال له «سيف» ضاحكاً :

ـ بل هذه «عاقصة» ..

فقالت «عاقصة» :

ـ وإلى أين تريد الذهاب يا ملك الزمان . ؟

فقال لها «سيف» :

ـ اذهبي بنا إلى حيث تركت «شامة» ..

* * *

ظلت «شامة» تنتظر الملك «سيفاً» فترة طويلة ، وقد انقبض قلبها عندما خطف من أمامها ، وجعلت تبكي على مصيرها ومصير ابنها «دمر» فاقترب منها الملك «أبو تاج» ، وقال لها :

ـ ما الذي حدث للملك «سيف» وكيف اختفى من أمامنا وكان يجلس معنا ويخاطبنا .. ؟

فقالت «شامة» وهي تبكي :

ـ أظن أن أمه «قمرية» الملعونة قد سلطت عليه «عيروضاً» خادم اللوح ليلقي به إلى تهلكة أخرى ..

فقال الملك «أبو تاج» :

ـ ويتركك هنا وحيدة . !؟

فقالت «شامة» :

ـ هذا أمر الله ، ولا بد لأمره أن ينفذ ..

فقال الملك «أبو تاج» وهو ينظر إليها متأملاً :

ـ ومن الذي يحميك مني الآن وقد غدوت بين يدي .. ؟!

فقالت «شامة» :

ـ يحميني الذي حماني منك قبل الآن .. !

فقال الملك «أبو تاج» :

ـ وكيف يحميك وهو ليس معنا . ؟!

فقالت «شامة» .

ـ بل هو معنا .. وفي كل مكان ..

فقال الملك «أبو تاج» :

ـ ألم تقولي أن «سيفاً» قد رمت به أمه إلى تهلكة جديدة ..

فرفعت «شامة» رأسها ، وكفت عن بكائها ، وضمت طفلها إلى صدرها وهي تقول له :

ـ إن سيفاً لم يحمني .. إنما الذي حماني منك وحمى «سيفاً» أيضاً هو الله الذي نعبده ..

فقال الملك «أبو تاج» متعجباً :

ـ أتعنين زحل .. ؟

فقالت «شامة» :

ـ بل ربي هو ربك ورب زحل ؛ وما زحل إلا كوكب يدور في فلك من أفلاكه ..

فأطرق الملك «أبو تاج» مفكراً لحظات ، ثم رفع رأسه وهو يقول :

ـ وهذا هو الذي ينصر الملك «سيفاً» ويدفعك إلى أن تصوني نفسك حتى وأنت أسيرة بين يدي .. ما أجمل هذا الإيمان .. علميني كيف أعبد هذا الرب .

وأشرق الأمل في وجه «شامة» وأحست بالراحة تغزو قلبها ، ومضت تحدث الملك «أبا تاج» وتشرح له كيفية العبادة وتنير إلى قلبه الطريق للإيمان ..

وقامت به إلى المغارة تعلمه الوضوء والصلاة ..

وكان الوزير يرقب من بعيد ذلك الحديث الذي يدور بين الملك «أبي تاج» وبين الملكة «شامة» وقد داخله الطمع فيها ، إذ عوده الملك «أبو تاج» أن يترك له النساء بعد أن ينال منهن ما يشتهي ويريد فلما رآهما قد دخلا المغارة ملأ قلبه الشرير الأمل ، واقترب من المغارة يتلصص عليهما ، ولكنه فوجئ بالملك «أبي تاج» يقرأ من صحف إبراهيم ويتضرع إلى الله .. فعرف أن الملك قد صبأ عن دين زحل ، وأن «شامة» قد استطاعت أن تحوله عن الرغبة فيها ، فملأ الغيظ قلبه وأسرع متسللاً إلى خيام الجنود وصاح فيهم معلناً أن الملك «أبا تاج» قد صبأ عن دين أهله ، وأن قتله قد غدا واجباً ، إلا إذا ارتد عن هذا الدين ، فتجمع الجنود حوله وقصد بهم إلى حيث المغارة .. وصاح :

ـ أيها الملك ما هذا الذي تقرؤه ، ليس منا من صبأ ..

فخرج إليهم الملك «أبو تاج» تتبعه «شامة» تحمل ابنها «دمر» وأراد أن يتكلم مع الجنود فأسرع الوزير يمنعه صائحاً فيه :

ـ إن كنت لم تصبأ عن دين آبائنا ولم تهجر عبادة زحل ، فسلم لنا الأسيرة نفعل بها ما نفعله بالنساء الغريبات كما هو شرع في دين زحل ..

فصاح فيه الملك «أبو تاج» وهو يمتشق سيفه ويهجم عليه :
ـ خسئت أيها الكلب الخائن ..
إلا أن الوزير تراجع بسرعة ، وهو يدفع الجنود للقاء الملك ويصيح فيهم :
ـ اقتلوه يا أبناء زحل ، مزقوه بسيوفكم ..
وهجم الجنود على الملك «أبي تاج» فتلقاهم بعزم لا يلين ، يضرب فيهم بسيفه ويصد هجماتهم بترسه وقد حميت شجاعته وقويت عزيمته ، إلا أن العدد قد زاد على الملك وكثر المهاجمون ، وبدأت قواه تضعف وقد أحس باقتراب شبح الموت منه ، فالتفت برأسه إلى «شامة» وقال لها :
ـ يا ملكة «شامة» ادع لنا ربك ..
وما أتم كلمته حتى ملأ الجو غبار كثيف وأصوات كالرعد ، وقعقعت الجبال ، وأحس الجند بشواظ من لهب ترتمي عليهم ، فملأهم الرعب ومضوا هاربين ، ووقف الملك «أبو تاج» مندهشاً وسيفه وملابسه تقطر دماً ، وقال لـ «شامة» :
ـ ما هذا أيتها الملكة .. ؟
فضحكت «شامة» وهي تقول له :
ـ أنظر خلفك .
فلفت الملك «أبو تاج» رأسه ، فإذا به يرى الملك «سيفاً» يقبل إليه وإلى جواره عملاق كبير هو «برنوخ» ، وقال «سيف» :
ـ مرحباً بنجاتك أيها الأخ الصادق ..
فقال الملك «أبو تاج» مندهشاً :
ـ كيف ذهبت يا أخي وكيف عدت ، وما هذا الشرار والنار ، إن هذه أمور تحير العقول .. ؟

فضحك الملك «سيف» وهو يقول له :

ــ أما الذي اختطفني فهو «عَيروض» وقد رماني في أرض السحرة ، وهذا «برنوخ» كبير السحرة آمن على يدي ، وحاربنا سوياً قومه الكافرين ، وأنقذتنا «عاقصة» منهم وهي التي أرسلت على أعدائك الشرار واللهب ، ولكن أخبرني كيف انقلب جنودك عليك ..

فحكى له الملك «أبو تاج» ما حدث .. فأمر «سيف» «عاقصة» أن تأتي له بالوزير ، فلما جاءت به أمامه ، قال له :

ــ لن يخلصك من سيفي إلا أن تؤمن ..

فرفض الوزير ، فشقه الملك «سيف» بحسامه شطرين ، وصاح في الجنود :

ــ من أسلم وآمن سلم وفاز ، وإلا فنهايته كنهاية هذا الخائن ..

فأعلن الجنود إسلامهم ، فصحبهم الملك «سيف» إلى المدينة حيث نادوا بالإيمان بين أهلها ، ومن آمن تركوه ومن عصى قتلوه ..

وجلس الملك «أبو تاج» على عرشه يحكم بالإيمان والعدل فترة من الزمان ، وقد صفت القلوب وعمت الأفراح حتى اشتاق الملك «سيف» إلى أن يعود إلى مدينته فأزمع على الرحيل ، فرفض الملك «أبو تاج» إلا أن يصحبه هو وأرباب دولته ليكونوا في خدمته وعوناً له في شدته .. وأمر الملك «أبو تاج» بصنع ثمانية سفن .. ولما تكاملت السفن حملوها بالسلاح والذخيرة وركبها الفرسان والحجاب ، وجمعت السفينة الأولى الملك «سيفاً» وزوجته وابنه ومعهما الملك «أبو تاج» و «برنوخ» الساحر ..

وفي ذات ليلة جلس الجميع يتسامرون ، فحكى لهم الملك «سيف» قصة حياته منذ البداية ، وما فعلته أمه به ، وما أن وصل إلى نهايتها حتى

اشتد الغضب بـ « برنوخ » .. وصاح قائلاً :

ـ إن هذه الملعونة ينبغي أن تنال جزاءها وتلقى عقابها ، فاتركني يا ملك « سيف » أذيقها من كأس العذاب ألواناً ..

فلما بدا التردد على الملك « سيف » قال الملك « أبو تاج » :

ـ والله يا أخي إن « برنوخاً » على حق ، ولا بد أن تلقى جزاءها ..

فقال « سيف » :

ـ لي شرط واحد هو ألا يقتلها ، وإنما يسلمني إياها باليد أفعل بها ما أشاء ..

فقال « برنوخ » ..

ـ لك هذا ولكن بعد أن أذيقها من العذاب مثل ما أذاقتك ..

فوافق الملك « سيف » وهو يحذر « برنوخ » من قتلها ، فوعده « برنوخ » ألا يقتلها .. ثم استأذن منه وقفز في البحر فلم يظهر ..

وكان لـ « برنوخ » أعوانه من الجن يستعين بهم في السحر ، فأمرهم أن يحملوه إلى مدينة الحمراء .. بينما ظل الملك « سيف » في السفينة مع زوجته وصديقه الملك « أبي تاج » وقد صفت لهم الأيام وراحوا يستمتعون برحلة البحر ، وهم لا يعرفون مما يخبئه القدر شيئاً ..

ولما وصل « برنوخ » الساحر إلى قرب مدينة حمراء اليمن وقف خلف الجبل ، وجلس يكتب على صفحة من النحاس بقلم من البولاد ، ثم صور رسماً لأنثى وكتب عليه اسم « قمرية » ثم وضع الصفحة في صندوق من الرصاص .. وصبر إلى أن حل الليل فدفن الصندوق عند باب المدينة ، ثم جلس ينتظر نتائج ما صنعه بعلوم السحر ..

° ° °

استيقظت « قمرية » من نومها وهي تحس بهمود كامل وعجز عن

الحركة ، وقد غرقت في بحر من العرق واشتد خفقان قلبها وارتفعت حرارتها .. واعتكفت «قمرية» أياماً وهي تتناول الأدوية والعلاج ، والمرض يشتد عليها حتى عجزت عن الحركة وامتنع عنها النوم واشتد بها الأمر ، ولم تجد أمامها إلا أن تدلك اللوح بكل قوة ليحضر «عيروض» .. وسألته عن مرضها فقال :

ـ ما بك ليس مرضاً ، وإنما هو من تدبير رجل ساحر اسمه «برنوخ» أرسله لك ولدك «سيف» ..

فصاحت «قمرية» :

ـ وولدي سالم لم يمت .. ؟!

فقال «عيروض» :

ـ نعم وهو قادم على ظهر مركب في موكب كبير مع الملك «أبي تاج» وزوجته «شامة» وابنه «دمر» ..

فزاد على «قمرية» العذاب وصاحت بالويل والدمار ، وقالت لـ «عيروض» :

ـ أمرتك أن تحضر «برنوخ» هنا لأقتص منه ...

فقال «عيروض» :

ـ لست أقدر على «برنوخ» لأنه يحرقني ..

فقالت «قمرية» :

ـ إذن اذهب إلى «سيف» واخطفه ثم ارم به خلف جبل قاف ، وسأدبر أنا أمري مع «برنوخ» الساحر ..

أقبل «عيروض» على الملك «سيف» وأراد أن يحمله ، فأحس به «سيف» وقال له :

ـ أهذا أنت يا «عيروض» .. ماذا وراءك من المصائب .. ؟!

فقال «عيروض» :

ـ لقد أتعبتني أنت وأمك وقد أرسلتني إليك لألقي بك في مهلك جديد ، ليس ككل المهالك ، ولست أظن أنك ستستطيع النجاة منه ..

فقال الملك «سيف» :

ـ لا تفضحني يا «عيروض» أمام الناس .. سأنزل متظاهراً أنني أمشي على وجه البحر ، وتحملني أنت إلى أن تختفي بي من أمامهم .

فوافق «عيروض» على هذا ، وقال الملك «سيف» للملك «أبي تاج» :

ـ أريد أن أمشي قليلاً على وجه البحر ..

ولم يصدق الملك «أبو تاج» ما يقوله الملك «سيف» وجعل يضحك ، ولكنه كف عن الضحك مذهولاً عندما رآه ينزل من المركب ويسير على وجه البحر .. ورأت الملكة «شامة» هذا فعرفت معناه .. ولكنها أخفت أمرها وصبرت على قضاء الله بها وبزوجها وهي تدعو له بالسلامة .

• • •

اشتد الألم بـ «قمرية» فدلكت اللوح و «عيروض» يحمل الملك «سيفاً» في وسط الطريق إلى جبل قاف ، فأنزله على جزيرة في الطريق ، وعاد مسرعاً إليها يسألها عما تطلب ، فقالت «قمرية» :

اشتد بي المرض ، فهل لك أن تمضي إلى الحكيم «سقرديوس» وأخيه «سقرديون» وتأتيني بهما ..

فقال «عيروض» :

ـ لست أستطيع هذا خوفاً من «برنوخ» الساحر ، فأرسلي لهما غيري ..

فاستدعت «قمرية» أحد الحجاب . وكتبت له رسالة إلى الحكيمين،

وأمرته بحملها إليهما وأوصته أن يطلب منهما الحضور بأقصى سرعة ..

أما «برنوخ» فقد جلس خارج المدينة يضرب الرمل ليعرف ما تفعله «قمرية» فعلم بأمر الحاجب الذي أرسلته إلى الحكيمين ، فعزم وهمهم وأحضر أحد أتباعه من الجان ، وأمره أن يعترض طريق الرسول وأن يحجزه ويمنعه عن مواصلة رحلته حتى يأمره بغير هذا .. ثم أخرج أدوات تنكره وجعل يحول نفسه إلى شكل الحكيم «سقرديوس» ، وانتظر مدة من الزمان تكفي لذهاب الرسول وعودته ، ثم سار متجهاً إلى مدينة الحمراء .. فلما رآه أهلها رحبوا به واحتفلوا بقدومه ، وأخذوه إلى الملكة «قمرية» التي فرحت به وهي تحسبه الحكيم «سقرديوس» وأخبرته بما حل بها من مرض ..

فقال لها :

ـ لا بأس عليك ، وأمر مرضك سهل .. قومي معي إلى الجبل لنبطل ما فعله السحر ..

ففرحت «قمرية» وأمرت بإعداد الخيل ، وسارت معه إلى الجبل .. وهناك وقف «برنوخ» يعزم ويهمهم .. ثم قصد إلى المكان الذي دفن فيه صندوق الرصاص ، وأخرجه وأعطاه لـ «قمرية» التي فتحته بيدها وأحرقت ما به ، فعادت لها صحتها في الحال ، وملأ قلبها الفرح وقد اشتدت ثقتها في «برنوخ» التي ظنت أنه «سقرديوس» ، فأمرت له بالخلع السنية ، وصحبته معها إلى قصرها في موكب عظيم وقد رتبت له كل ما يحتاج إليه ، أما «برنوخ» فقد ركز همه في أن يكسب ثقتها ، وأن يراقب منها غفلة ليتمكن منها ..

° ° °

ظل الملك «سيف» يمشي في الجزيرة ، وهو لا يجد بها أحداً ،

حتى وجد مغاراً في الجبل .. فاتجه إليه وقد أراد أن يقضي به الليل ليستأنف في الصباح بحثه عن مخرج من تلك الجزيرة ، إلا أنه وجد في نهاية المغار سلماً من الحجر .. فأخذ ينزل عليه ، وهو كلما نزل درجة تناهت إليه أصوات ماء يجري ، وما أن وصل إلى الدرجة الأخيرة حتى رأى نهراً جارياً وقطعة منفرجة من الأرض ، ورأى إلى جانب النهر رجلاً ضخماً يبلغ من الحجم أربعة أضعاف الإنسان العادي .. وما أن رأى هذا الرجل الملك «سيفاً» ينزل عليه من الجبل حتى صاح ، وخر مرتعباً وهو يقول :

ـ الأمان .. أنا في جيرتك يا ملك الجان .

فاندهش الملك «سيف» وتعجب وقال له :

ـ الأمان لك أيها الرجل .. ماذا رأيت فيّ حتى ظننتني من الجان ؟!

فقال الرجل :

ـ انك قصير ، ولم أر مثلك عمري .. !

فقال الملك «سيف» ضاحكاً :

ـ هذه يا أخي خلقة الله .. خلقك طويلاً وخلقني قصيراً وله في خلقه شؤون ، ولكن أخبرني لماذا تجلس هنا ..

فقال الرجل :

ـ اعلم يا أخي أن هذا النهر أمره عجيب ، ففي مثل هذه الأيام من كل عام – أي في أول الربيع – يتغير ويتحول لونه من اللون الأبيض إلى اللون الأحمر ، ثم إلى اللون الأخضر ، ثم إلى اللون الأصفر ، ثم هكذا لعشرة ألوان .. ثم يخرج منه سرطان له كل هذه الألوان فأصيده لأنه ثروة عظيمة لنا ، إذ آخذه إلى قومي وندخره إلى أن

يأتي إلينا التجار فنبيع منه لهم مقابل البضائع والأقمشة التي نعيش عليها من العام إلى العام ..

فقال الملك «سيف» :

ـ وما فائدة هذا السرطان ؟ ..

فقال الرجل .

ـ أخاف أن أخبرك فتحرمنا من صيدنا وتقطع أرزاقنا ..

فعرف الملك «سيف» أنه لا يزال يخاف منه رغم كبر جسمه وضخامة جثته ، فأقسم له أنه لن يتعرض له ولا لرزقه بشيء .. ولما اطمأن الرجل إليه ، قال :

ـ إن مسحوق هذا السرطان يمزج بماء الورد ، ثم يوضع على العين المريضة العمياء فتشفى ! ..

وبينما هما يتحدثان ماج البحر وهاج ، وأخذت الألوان تتغير عليه ، ثم انفرج البحر عن سرطانين كبيرين ..

فصاح الرجل :

ـ هذه قدرة الله تعالى ، قد أرسل لك نصيبك ولم يحرمنا من نصيبنا ..

واشتد الفرح بالملك «سيف» وأخذ يرقب السرطان وهو يتحرك ، وإذ بالرجل وقد اقترب منه وأمسكه بيده ، فكف عن الحركة .. فقلده الملك «سيف» وأمسك بالسرطان الآخر ، ووقف يتأمل فيه .. فإذ به يسمع صيحات من جهة النهر ، فالتفت فإذا بقارب وبه رجلان يجذفان وهما يصيحان ويشيران إلى الصياد الواقف بجواره ..

فقال الصياد للملك «سيف» :

هذان أخواي كانا يصيدان السمك ، وقد عادا في موعد السرطان ليطمئنا إلى صيده .

وظل الملك «سيف» والصياد يرقبان القارب حتى وصل إلى الشاطئ ، فنزل منه الرجلان وأقبلا إلى أخيهما يسألانه عن «سيف» فأخبرهما بأمره ، ودار بين الثلاثة حديث طويل ، ثم جاء الصياد قائلاً :

ـ إنني يا أخي خجلان منك ، ولكن أخويَّ يخافان أن تنافسنا في التجارة بهذا السرطان الذي جاءك فتفسد علينا التجارة .. ولهذا فلا بد من ذهابك ..

فقال «سيف» :

ـ وكيف أذهب وأنا لا أعرف لي مخرجاً من هذه الجزيرة ..

فقال الصياد :

ـ سنعطيك القارب لتبحر به وليساعدك الله ..

فشكر «سيف» له كرمه ، ثم ربط السرطان في قطعة من القماش ولفها كحزام حول وسطه ، ثم ركب القارب وأخذ يجذف مبتعداً عن الجزيرة متكلاً على الله ..

٢٣

قمرية في السجن

ظل الملك «سيف» في القارب لا يرى إلا الماء والسماء عدة أيام ، حتى نفد ما معه من ماء وزاد كان قد تزود به من الصياد ، وهبت ريح شديدة وهاج البحر فجعل يتقاذف القارب على سطحه كقطعة من القش. وجعل الملك «سيف» يقاوم البحر وهو يجدف بكل قوته حتى انكسر المجدافان في يديه ، وأصبح القارب لا حول له ولا قوة. ولمح «سيف» من بعيد ما يشبه القلع الكبير ، وأحس بقاربه ينجذب إليه بكل قوة فدب في نفسه الأمل ، وجعل يبتهل أن يصل القارب إلى هذا القلع الكبير حتى اكتشف الملك «سيف» خطأه ، إذ ما كان هذا الذي حسبه قلعاً إلا زعنفة كبيرة لحوت ضخم ، فلما اقترب القارب من الحوت فتح فمه الكبير مبتلعاً الماء وجاذباً معه القارب ..

وكان القارب يندفع بقوة كبيرة إلى فم الحوت ، فاستجمع الملك «سيف» قوته وقفز إلى البحر .. وما أن وصل الملك «سيف» إلى الماء حتى رأى الحوت يطبق بفمه الكبير على القارب الصغير ، فأخذ يضرب الماء بيديه بكل قوة مبتعداً عن مكان الحوت مصارعاً الموج إلى أن لمح أمامه جبلاً يبدو من بعيد فاتجه إليه .. وحين وصل الملك «سيف» إلى البر ارتمى فاقداً وعيه وقد هد التعب قواه ؛ وظل ملقى على الأرض

بلا حراك حتى أيقظته الشمس بحرارتها الشديدة ..

مكث «سيف» عند الشاطئ يوماً كاملاً حتى استرد قواه وعادت له عافيته ، فمضى يسير وهو يقتات من حشائش الأرض ثلاثة أيام كاملة .. وفي اليوم الرابع أشرف على مدينة كبيرة يدخل إليها الناس ويخرجون منها في حركة نشيطة دائبة ، فاتجه «سيف» إليها .. وحين اقترب من باب المدينة ، وقف مندهشاً مذهولاً إذ وقع بصره على رؤوس مقطوعة قد وضعت فوق رماح منصوبة عند سور المدينة بجوار بابها الكبير .. فتقدم الملك «سيف» من أحد الرجال الخارجين من المدينة يسأله عن سر هذه الرؤوس ومن قطعها ، فقال الرجل :

ـ أنت إنسان غريب يا أخي وإلا لعرفت أن هذه رؤوس الحكماء الذين عجزوا عن شفاء الملكة «ناهد» ..

فقال «سيف» :

ـ ومن الملكة «ناهد» ، وما مرضها ..

فقال الرجل :

ـ الملكة «ناهد» لم يكن في الدنيا من يضاهيها في الجمال والرقة ، وهي ابنة ملك هذه المدينة .. كان قد جرى عليها أمر الله واختطفها أحد الجان وسجنها .. وعندما أراد لها الله الخلاص وعادت إلى المدينة ظلت تبكي عدة أيام حتى كف بصرها .. وقد وعد أبوها كل من يعيد إليها البصر ان يعطيه نصف ملكه وأن يزوجه ابنته ، ومن يخفق علق رأسه على رمح على باب المدينة ، مثل هذه الرؤوس التي تراها ..

فتذكر الملك «سيف» السرطان الذي حصل عليه من الجزيرة ، وأسرع يشكر الرجل وينصرف مبتعداً إلى أن توارى خلف سور المدينة ، وخلع ملابسه وفك الحزام من على وسطه فرأى السرطان وقد يبس ،

فأعاد ارتداء ثيابه ، ثم دس السرطان فيها وأسرع يتجه إلى باب المدينة مرة أخرى .. وقصد إلى أحد الحراس وقال له :

ـ لقد أتيت من بلاد بعيدة لأداوي الملكة «ناهد» .. وأنا حكيم مشهور في بلادي ، ولي قدرة على إرجاع البصر ومداواة العيون ..

فقاده الجندي إلى قائده ، الذي صحبه إلى الوزير ، وقال الوزير لـ «سيف» :

ـ هل تعرف جزاء الفشل أيها الحكيم ؟

فقال «سيف» :

ـ نعم أيها الوزير ، وأنا راض بكل ما تحكمون به ..

فأسرع الوزير يخبر الملك أن حكيماً جديداً قد أتى من بلاد بعيدة ، ويزعم أن شفاء الملكة «ناهد» قريب وسهل .. فأمر الملك بإدخاله إلى حجرة «ناهد» في الحال ..

وحين دخل الملك «سيف» حجرة الملكة «ناهد» بهره جمالها الفائق وحسنها الزائد ، فوقف عند الباب مبهوتاً .. وكانت الملكة «ناهد» جالسة على كرسي كبير وهي لا ترى من حولها شيئاً ، فتقدم منها الوزير وقال :

ـ لقد جاءنا أيتها الملكة حكيم جديد يريد أن يداوي عينيك ..

فتنهدت الملكة «ناهد» وقالت :

ـ وحق الرب المعبود ، ألا تركته إلى بلاده يعود .. أما كفانا من قتلناهم بلا ذنب ، وعلقنا رؤوسهم على أبواب المدينة ..

فقال الوزير :

ـ لقد بينا له يا مولاتي المصير الذي ينتظره إن هو أخفق ، فأبى إلا أن يداوي مولاتي ..

فقالت «ناهد» :

ـ حسناً ، فليفعل ما يشاء ..

والتفت الوزير إلى الملك «سيف» وقال له :

ـ تقدم أيها الحكيم عسى أن يكون على يديك الخلاص .. فطلب الملك «سيف» منه هاوناً ذهبياً وماء ورد وأمر بإيقاد النار ، ثم أخرج السرطان من ملابسه وقطع جزءاً منه ومضى يدقه في الهاون حتى صار مسحوقاً ، ثم وضعه على النار وهو يمزجه بماء الورد .. ولما انتهى قام متوكلاً على الله ، وأمر بمرود ثم وضع من المسحوق على المرود ومر به على عيني «ناهد» بكحلهما .. وما أن وضع الملك «سيف» الدواء في عينيها حتى صرخت صرخة عظيمة ، ثم سقطت على الأرض لا حراك بها .. وكان الملك في خارج الحجرة يرقب ما يحدث لابنته ، فلما سمع صرختها أسرع يدخل الحجرة ، وحين رأى ابنته في تلك الحال أمر الجند بإمساك «سيف» فانقض عليه الجند الغاضبون يمسكون به ، وقد سلم «سيف» أمره لله ..

* * *

ظل «برنوخ» يراقب «قمرية» ويحاول أن يظفر بثقتها ، حتى تمكن ذات ليلة من أن يدس لها في الشراب دواء مخدراً ، ما أن شربته حتى راحت في نوم عميق .. فمد «برنوخ» يده وفك اللوح المرصود من على زندها ، وأخذه وخرج إلى حجرته .. وما أن اطمأن به المكان حتى دلك اللوح فحضر «عيروض» وهو يقول :

ـ لبيك أيها الشيخ الساحر ، خلصني من هذه الملعونة الكافرة ،

فقال «برنوخ» :

ـ أسرع يا «عيروض» وأحضر الملك «سيفاً» ليعود إلى ملكه وملك أبيه ..

فصاح «عيروض» فرحاً :

ـ سمعاً وطاعة ..

وسرعان ما اختفى طائراً إلى حيث الملك «سيف» ..

° ° °

كان الجنود يسوقون الملك «سيفاً» وهو يتخبط بين أيديهم ، حين صاح الملك بهم :

ـ انتظروا ..

ذلك أنه رأى الملكة «ناهد» تتحرك وسمعها تئن في خفوت ، وما لبثت أن استوت على مقعدها ودعكت عينيها بيديها فسال منها سائل أصفر كريه ، ثم فتحت عينيها وهي تتنهد .. وتلفتت حولها في ذهول وهي تصيح :

ـ أبي .. أبي ..

وأبوها حائر مندهش ، قلبه يخفق في عنف وأنفاسه تتردد في سرعة ، ثم قالت «ناهد» :

ـ إني أرى يا أبي ، الأرض ، السماء ، أنت ، الوزير ، وهذا الذي يمسكه الجند من هو ؟ ..

فقال الملك :

ـ هذا الحكيم الذي شفاك يا ابنتي ..

فابتسمت «ناهد» وهي تقول :

ـ حكيم .. ؟!

ثم ضحكت وقالت :

ـ وماذا ستفعل به يا أبي .. ؟!

فقال الملك :

ـ هو زوجك يا ابنتي وشريكي في ملكي ..

وكانت الملكة «ناهد» تضحك وهم يسوقون الملك «سيفاً» إلى جناح خاص أعد له وزود بأفخر الملابس وأشهى الأطعمة ..

وعند الصباح زينت المدينة ، ونحرت الذبائح ، وأعلن الفرح والابتهاج ، وزفت «ناهد» لـ «سيف» .. وما أتى الليل إلا وقد احتوتهما حجرة واحدة ..

* * *

أحس الملك «سيف» بـ «عيروض» يرفعه عن سريره وهو نائم إلى جوار الملكة «ناهد» فقال له :

ـ أهذا أنت يا «عيروض» .. حتى في هذه الليلة لا تتركني في سلام ، أين ستقذف بي هذه المرة .. ؟

فقال «عيروض» :

ـ بل سأعود بك إلى مدينتك وعرشك ..

فقال «سيف» مندهشاً :

ـ كيف هذا يا «عيروض» ؟

فقال «عيروض» :

ـ إن الذي أرسلني إليك «برنوخ» .. ولهذا حكاية طويلة تعرفها هناك ، فهيا بنا ..

فاستيقظت الملكة «ناهد» على صوت زوجها ، وسمعت حديثه مع «عيروض» فقالت له :

ـ كيف تذهب وتتركني ولم يمض على زواجنا إلا ساعات ..

فقال «عيروض» :

ـ لا بد من أخذه إلى مدينة حمراء اليمن .

فقالت «ناهد» :

ـ إذن خذني معه ..

ونظر «عيروض» إلى الملك «سيف» فأومأ له موافقاً .. وسرعان ما حملهما طائراً بهما إلى مدينة حمراء اليمن ..

استقبل «برنوخ» الملك «سيفاً» والملكة «ناهد» أحسن استقبال ، وقادهما إلى جناحه في القصر حيث قضوا الليل ، وفي الصباح نزل الملك «سيف» إلى قاعة العرش ، وجلس على عرشه وعن يمينه «برنوخ» ودخل الحجاب والوزراء ففوجئوا به ، وأسرعوا يقدمون امارات الولاء والترحيب بمقدمه ..

وحين أفاقت «قمرية» من نومها ، رأت النور يغمر الكون حولها .. فأدركت أن الصباح قد لاح ، فقامت إلى قاعة العرش ، وهناك وقفت ذاهلة وهي ترى الملك «سيفاً» يجلس على كرسي العرش فأحست بالجزع والرعب ، ومدت يدها إلى زندها تبحث عن اللوح فلم تجد له أثراً ، فذاب قلبها حسرة وعرفت أن الحيلة قد تمت عليها وسمعت صوت «سيف» يقول لها :

ـ ماذا يدهشك أيتها الأم الحنون ؟!

فتمالكت «قمرية» نفسها وعادت إلى مكرها ولؤمها ، وتظاهرت بالبكاء وهي تقول :

ـ يا ولدي .. أرح نفسك من شري ، واقتلني بسيفك ..

فقال لها «برنوخ» :

ـ هذا القول لم يعد ينطلي على أحد ، وأنت أيها الملك لا بد أن تقتلها وتريحنا من غدرها ، وإلا فهذا فراق بيني وبينك ..

فقال «سيف» :

ـ أما دموعها فلن تخدعني ، أما قتلها فلست بقادر عليه لأنها أمي ، وكل ما أستطيع أن أفعله هو أن آمر بسجنها ..

وسرعان ما كانت «قمرية» ترسف في الأغلال والقيود في سجن المدينة تبكي ملكها الضائع ومكرها الذي ارتد إلى نحرها ..

* * *

حين اطمأن «برنوخ» الساحر إلى مكان «قمرية» في السجن ، أمر خادمه أن يطلق سراح رسول «قمرية» إلى الملك «سيف أرعد» فلم يعد في إعاقته عن سيره فائدة ، ثم قصد إلى الملك «سيف» الذي تلقاه في الديوان أحسن لقاء وأفرد له أعز مكان .. واستقر المقام بالملك «سيف» الذي تولى الحكم والفصل بين الرعية .. حتى انتشرت الأخبار بعدله ، وسارت الأحاديث بحكمته .. ووصلت هذه الأخبار إلى الملك «أفراح» و «سعدون» الزنجي فلم يصدقا ما تناقله الناس من أحاديث ، بل أسرعا يرسلان الرسل إلى حمراء اليمن ليعلما صحة الخبر ويتيقنا من صدق الحديث .. وما أن عاد الرسل يؤكدون صحة الأحاديث حتى أمر الملك «أفراح» بالسير إلى مدينة حمراء اليمن ليلتقي بسيده وصديقه الملك «سيف» ..

وسرعان ما اجتمع الشمل والتقى الأخبة ، وأجلس الملك «سيف» الملك «أفراح» عن يمينه و «بسعدون» عن يساره ، وجعل مكان «برنوخ» الساحر أمامه ليعرف الناس قدره ، ويدرك الجميع مكانته .. وقص الملك «سيف» على الملك «أفراح» و «سعدون» ما حدث له ، والأهوال التي رآها من تدبير أمه «قمرية» .. كما أخبرهم بإنقاذه للملكة «شامة» وكيف أنها في الطريق إلى مدينة حمراء اليمن في صحبة الملك «أبي تاج» وجنوده ..

وبعد أيام قليلة ، وصلت الملكة «شامة» بصحبة الملك «أبي تاج» في موكب عظيم فتلقاها الملك «سيف» بالأفراح وأقام لقدومها الزينات ، وأفرد لها جناحاً في القصر ، كما أفرد للملك «أبي تاج» جناحاً آخر .. وأمر بصرف الطعام لجنوده ، وأنزلهم في المدينة مع جنود الملك «أفراح» و «سعدون» الزنجي .. والتقى الملك «أفراح» بابنته «شامة» بعد طول فراق ، وزادت فرحته بلقاء ابنها «دمر» .. وشملتهم جميعاً معالم السعادة والهناء ..

• • •

ما أن أطلق الجند سراح رسول «قمرية» حتى انطلق بكل سرعته قاصداً إلى الملك «سيف أرعد» وقبل الأرض بين يديه في الديوان ، وأخبره بما قالته «قمرية» من أنها احتالت على ولدها الملك «سيف بن ذي يزن» واستولت على اللوح ليلة دخوله بزوجته «شامة» وأنها أمرت الخادم أن يرميه في وادي الغيلان ، ثم في جبل الدخان ، ثم رجاه باسم «قمرية» أن يرسل لها الحكيمين «سقرديوس» و «سقرديون» ليشيرا عليها وينظما أمور الملك في بلدها .. فأمر الملك «سيف أرعد» الحكيمين

أن يسرعا في الحال إلى «قمرية» وأوصاهما بمراقبتها حتى لا تغدر مرة ثانية .. وما لبث الحكيمان أن سارا في طريقهما إلى مدينة حمراء اليمن وقد اشتد فرحهما لما عرفاه من أخبار عن « سيف » وزوجته « شامة » وما زالا سائرين حتى وصلا إلى المدينة ودخلا الديوان فأذهلهما أن رأيا الملك «سيف بن يزن» يتصدره ، وقد جلس على يمينه الملك «أفراح» وعن يساره « سعدون » الزنجي ، وهمس « سقرديوس » لأخيه « سقرديون » :

ـ لقد وقعنا في يد من لا يرحمنا ..

فرد عليه «سقرديون» قائلاً :

ـ هيا بنا قبل أن يرانا فينتهي أجلنا ..

واتجها إلى باب الديوان متسللين ، إلا أن صوت الملك «سيف بن ذي يزن» سمرهما في مكانهما حينما سمعاه يقول :

ـ أهلاً وسهلاً بالحكيمين العزيزين اللذين أتيا يدبران المكائد وينصبان المصائب .. !

ولم يحر «سقرديوس» ولا «سقرديون» جواباً ، فأمر بهما الملك «سيف» فوضعا في السجن مع الملكة «قمرية» .. وما أن دخلا عليها حتى صاحا بها :

ـ أهكذا يفعل أصحاب الحيلة .. وتوقيعنا في يد عدونا .. ؟!

فتنهدت «قمرية» في حدة وألم ، ومضت تحكي لهما ما فعله معها «برنوخ» وعندما انتهت من حديثها ، قال لها «سقرديون» :

ـ ونحن الآن قد وقعنا في يديه ، وإن لم ندبر أمر خلاصنا فلا مصير لنا إلا الموت ..

فقالت «قمرية» :

ـ إن «سيفاً» لا يعرف الكراهية ، وهو لا يستطيع أن ينسى أنني أمه ، ولـو استطعت ان أثير شفقتـه أطلق سراحي ، وأتمكن منه وأقضي عليه ..

فقال «سقرديوس» :

ـ إن معي عشباً إن أنت أكلت منه تغير لونك ، وغدا في لون وجوه الموتى ، ومعي عشب آخر يعيد لونك إلى أصله ..

فصاحت «قمرية» :

ـ إذن فقد ضمنت لكما النجاة .. ؟

وأسرعت تأخذ العشب وتأكله ، فظهرت عليها علامات المرض واصفر لونها ، ومضت تصرخ وتبكي وجسمها كله يتقلص وينقبض وكأنهـا في النزع الأخـير .. وأخـذ الحكيمان يصيحـان ، وقـال «سقرديوس» :

ـ أيها الحراس أغيثونا إن الملكة تموت ..

وقال «سقرديوس» :

ـ أخبروا الملك أن أمه تموت ..

وجعلت تصرخ وهما يصيحان حتى هرول إليهم الحرس يستطلعون الأمر ، وما أن رأوا «قمرية» في هذه الحال حتى أصابهم الارتباك ولم يعرفوا ماذا يفعلون ..

وقال لهم «سقرديوس» :

ـ أخبروا ابنها الملك حتى لا تموت بين أيديكم ويتهمكم بقتلها ..

وقال «سقرديون» :

ـ لا تنسوا أنه ابنها وهي أمه ، ومهما كان الخلاف بينهما فلن يغفر لكم موتها أبداً ..

فأسرع الحراس إلى الملك «سيف» يوقظونه ويخبرونه بأمر أمه . وحين وصل الملك «سيف» إلى السجن ورأى الحال التي أصبحت فيها «قمرية» ثارت فيه عواطف البنوة ، وابتدأ يحس بالإشفاق عليها ، وجلس إلى جوارها يهزها وهو يقول لها :

ـ عافاك الله يا أمي ، أخبريني ماذا بك ..

فلما سمعت «قمرية» صوته فتحت عينيها في ضعف ، وأنت في ألم وهي تقول بصوت خفيض :

ـ اغفر لي يا بني ما فعلته بك ، فإني ذاهبة ألقى الذي خلقني ليحاسبني على ما فعلت ، ولست أريد أن أموت وأنت غاضب مني ..

فبكى «سيف» مشفقاً عليها وقد هز الحديث قلبه ، وعادت «قمرية» تقول :

ـ إنني سعيدة إذ أموت وأنت إلى جواري ، فليس لي في الدنيا إلا أنت ..

فأمر الملك «سيف» بنقلها إلى حجرتها ، وتخصيص الخدم للعناية بها ، وإحضار الحكماء لمداواتها ..

وما أن نقلت «قمرية» إلى الحجرة حتى اشتد شحوب وجهها واصفرار لونها ، وهمست قائلة لـ «سيف» :

ـ إني أودعك يا بني الوداع الأخير ، فلست أظن أن الصباح

سيطلع عليّ .. وأريد منك أن ترسل لي جاريتي لتظل إلى جواري في ساعاتي الأخيرة ..

فأمر «سيف» بإحضار الجارية ، وذهب إلى حجرته يبكي .. وأخذ يقص على «ناهد» زوجته ما حدث لأمه وهي تخفف عليه حزنه أما «قمرية» فأسرعت تأخذ العشب المضاد ، وما أن جاءت الجارية إلى حجرتها حتى كانت قد استعادت صحتها .. فأمرتها أن ترصد خادم ابنها حتى إذا رأته يدخل إليه بشيء من المشروب أو المأكول وضعت له المخدر فيه ثم تخبرها في الحال ..

وظلت الجارية ترقب باب الملك «سيف» حتى رأت الخادم يدخل إليه بالماء فراحت إليه تشاغله بالحديث حتى تمكنت من وضع المخدر في الماء وعادت تخبر سيدتها التي انتظرت حتى تأكدت أن المخدر قد أتى بمفعوله ، فتسللت حذرة إلى حجرة ابنها ودخلت عليه و «سيف» و «ناهد» من تأثير المخدر في نوم عميق ، فسرقت اللوح وعادت إلى حجرتها .

وابتسمت «قمرية» لنفسها وهي تمسك باللوح ، ثم مضت تضحك في جنون .. وما أن هدأت وكفت عن ضحكها حتى دلكت اللوح فحضر لها «عيروض» ..

٢٤

بستان النزهة

قالت «قمرية» لـ «عيروض» :

ـ لقد حكى لي الملك «سيف» أنه أخذ القلنسوة من بلاد أفلاطون وحسر أولاده عليها ، وأنا آمرك أن تطير به الآن إلى هناك ثم تصيح بأهل المدينة وتخبرهم بأنك تحمل عدوهم إليهم ، وتطلب منهم أن يشرعوا السيوف والرماح في أيديهم ، ثم اقذف بالملك «سيف» على هذه الرماح حتى يتمزق بدنه ..

فخرج «عيروض» من أمامها باكي العين ، وقصد إلى الملك «سيف» فأيقظه من نومه ، وأخبره بأمر الملكة «قمرية» .. واستسلم الملك «سيف» لما جره على نفسه من انخداعه بكلام أمه وحيلتها رغم معرفته بغدرها وخستها ، وقال لـ «عيروض» :

ـ إن تنفيذك لما تأمر به هذه الداهية معناه قتلي في الحال ..

فبكى «عيروض» وقال :

ـ فداك روحي أيها الملك ، ولكن ماذا أفعل وليس أمري بيدي ؟؟

وسكت «عيروض» ثم قال وقد كف عن بكائه :

ـ لقد واتتني فكرة فيها خلاصك إن شاء الله ، وأنفذ بها ما أمرت أن أفعله ..

فاستبشر الملك «سيف» وأحس بالأمل يعاوده ، وقال لـ «عيروض» : وما هذا الذي خطر لك .. ؟

فقال «عيروض» :

ـ لن أخبرك به الآن ولكنك سترى صدق ما دبرت ، وسأتركك الآن وأعود لك حالاً لأنفذ أمر الملعونة «قمرية» التي أوقعت نفسك بشفقتك عليها بين أنيابها التي لا ترحم .. ؟

واختفى «عيروض» طائراً في الهواء ، وجلس «سيف» يفكر في هذا العذاب الذي يحل به بلا سبب ، ويتذكر ما فعلته أمه فينتابه العجب في أن تحمل أم كل هذه الكراهية لابنها ، ولكن حضور «عيروض» قطع عليه أفكاره وقد أدهشه أن يراه باسم السن ضاحك الثغر فقال له :

ـ ماذا وراءك يا «عيروض» ؟

فقال «عيروض» :

ـ ستعلم كل شيء في حينه ، أما الآن فهيا بنا ..

وحمله وطار إلى أن أشرف على مدينة أفلاطون فوضعه على جبل بجوارها ، وصاح في أهلها قائلاً ·

ـ يا أهل مدينة أفلاطون .. هذا عدوكم الذي سرق القلنسوة منكم وحرمكم ذخيرة أبيكم ..

فخرج أهل المدينة أجمعين يتقدمهم أولاد الحكيم أفلاطون وهم يصيحون في «عيروض» :

ـ أيها المارد الطيب ، اعطه لنا لنثأر منه ..

فقال «عيروض» :

ـ بل أنا مأمور أن أطلب منكم أن تشرعوا الرماح والسيوف في أيديكم لأقذفه على رماحكم فيتمزق جسده ..

فأسرع «عيروض» وحمل الملك «سيف» الذي أخذ يقول له وقد أحس بالأمل يفارقه من جديد :

ـ أهذا ما وعدتني به يا «عيروض» ..

فعلا الصياح والتهليل من أهل المدينة ، وهم يتصايحون قائلين :

ـ اقذف به وستمزقه رماحنا ..

ولم يرد عليه «عيروض» وإنما قذف به إلى وسط أهل المدينة المجتمعين ، وقد ارتفعت سيوفهم ورماحهم في الهواء وهم يرقبون «سيفاً» يهوي إليهم من السماء حتى أوشك أن يمس جسده رؤوس الرماح ، وإذ بشيء يثب تحته ويرتفع به مرة أخرى في الهواء ..

فارتفعت صيحاتهم وعلت ضجتهم إلى أن اختفى من أمام أنظارهم واختفى عن عيونهم ..

وقال «سيف» وهو يرتفع مرة أخرى بعد أن أوشك على الموت :

ـ أهذا أنت يا «عيروض» ؟

وسمع صوتاً يعرفه يقول له :

ـ بل أنا «عاقصة» أختك ، جاءني «عيروض» ودبرت معه هذه الحيلة لخلاصك دون أن يعصي ما أمرته به أمك ، وسأسير بك الآن إلى قصر أبي في جبال القمر ومنابع النيل ..

ـ لست أعرف بأي لسان أشكرك يا «عاقصة» ..

فقالت «عاقصة» :

ـ كف عن الكلام فإني أحس بجسدك يرتعش من الحمى ، ولا شك أن ما مررت به قد هدّ قواك ..

ما أن انتهت من كلامها حتى فقد الملك «سيف» وعيه وغاب عن الوجود ، فانشغل قلب «عاقصة» عليه ، وأسرعت تحمله إلى قصر أبيها حيث أحضرت كل الأدوية والحكماء وهو يهذي من حرارة الحمى .. وقد راح في غيبوبة طويلة ثلاثة أشهر كاملة و «عاقصة» ترعاه وتشرف بنفسها على علاجه ، حتى أبل من مرضه وراحت عنه الحمى وظل جسده واهناً يحتاج إلى نقاهة طويلة .. ولكنه ما أن أحس بقدرته على الحركة والكلام حتى قال لـ «عاقصة» :

ـ اريد أن أعرف ماذا حل في مدينة حمراء الحبش بزوجتي وولدي ورجالي ..

فقالت «عاقصة» :

في الغد سأبدأ رحلتي إلى هناك لآتيك بأخبارهم ..

فقال لها «سيف» :

ـ بل أنا أريدك أن تحمليني إلى هناك ..

فقالت له «عاقصة» :

ـ إنك لا تقوى على الحركة ، وفي مثل هذه الرحلة موتك .. فلتسترح أنت هنا في قصر أبي حتى أعود إليك بالخبر اليقين ..

وحاول الملك «سيف» أن يثنيها عن هذا الموقف لتصحبه معها إلا أنها أبت وذهبت محاولاته كلها أدراج الرياح ، فاستسلم لها ولكنه طلب منها سرعة الرحيل لقلقه وانشغاله على بلده ورجاله ، واستجابت

له «عاقصة» وبدأت رحلتها إلى حمراء اليمن ..

° ° °

ومضت الأيام ثقيلة على الملك «سيف» يقضيها كلها في الراحة والنوم بلا شغل يشغله ولا مجهود يبذله ، فما عادت «عاقصة» إلا وقد استرد صحته وعادت له عافيته وقوته ، وقالت «عاقصة» وهي مستبشرة :

ـ اعلم يا أخي أن ولدك بخير ، ورجالك وجندك في سعادة ... أما زوجتاك فلا يضايقهما إلا بعدك عنهما .

فاستراح خاطر الملك «سيف» وهدأ قلقه ، وقال لـ «عاقصة» :

ـ وكيف تركتهم أمي «قمرية» ؟

فضحكت «عاقصة» وهي تقول :

ـ إن أمك الغادرة تلقى جزاء غدرها وتعيش في ضنك وعذاب شديدين ..

فقال «سيف» :

ـ وكيف ذلك ومعها لوح «عيروض» ؟

فقالت «عاقصة» :

ـ إن «برنوخ» الساحر لم يترك لها الفرصة ، فقد اكتشف في الصباح اختفاءك فأسرع إلى السجن .. فعلم من الحراس بحيلة «قمرية» التي انطلت عليك ، فبادر في الحال وجمع رجالك وأخذ ولدك وزوجتيك وخرج بهم جميعاً إلى خارج المدينة قبل أن تنتقم منهم «قمرية» ثم استعان بعلم الحكمة والسحر ، فأحضر ورقة وكتب عليها بعلمه ، ثم وضعها في قصبة من رصاص ، وجعل يتلو عليها فإذا بها تطير أمام الجميع وتقصد إلى حيث المدينة ، ثم اتجهت طائرة إلى قصر «قمرية» ووقفت فوقه تماماً ، ثم تحولت إلى سحابة سوداء سرعان ما غطت

القصر وأحاطته من كل جانب ، فحلت بـ « قمرية » الأرزاء وأصبحت لا تعيش إلا في ظلام دامس ولا ترى إلا الأشباح ، وحل بجسدها الفتور والهمود .. فهي لا تستطيع أن تحرك أي عضو في جسمها ، ولا أن تمد يدها إلى اللوح المعلق على زندها .. ثم أخذ « برنوخ » الرجال وعاد إلى المدينة ، وأجلس ابنك « دمر » على العرش ، وطلب من الملك « أفراح » أن يحكم بدلاً منك حتى تعود ، وأجلس على يمينه « سعدون » الزنجي ، وعلى شماله الملك « أبا تاج » ..

فقال لها الملك « سيف » :

ـ الآن استراح قلبي ، وهدأ بالي ، واطمأن خاطري على ابني ورجالي ، وأحسب أن الوقت قد حان لتعودي بي إليهم ..

فضحكت « عاقصة » وهي تقول :

ـ بل أنت لن تغادرنا إلا بعد أن تكتمل صحتك وتسترد عافيتك وقوتك ..

وحاول الملك « سيف » أن يجادلها في هذا الأمر ، ولكنها لم تتراجع عن عزمها ... فاستسلم لها وهو يستعجل الأيام ليعود إلى أهله ..

° ° °

ولم يطل الأمر بالملك « سيف » فما هي إلا شهور قليلة حتى تمالك قواه ، وعادت له صحته وعافيته تماماً بفضل رعاية « عاقصة » وعنايتها الدائمة به ، وكان دائم السؤال لـ « عاقصة » أن تسمح له بالسفر ، وهي ترجئ سفره كل مرة إلى أن قالت له ذات صباح :

ـ الآن يا أخي أستطيع أن أحملك إلى حمراء اليمن ..

ففرح الملك « سيف » وطلب منها أن تقوده إلى أبيها وأمها ليشكر

لهما حسن ضيافتهما له ، ثم حملته «عاقصة» وطارت به في الهواء قاصدة مدينة حمراء اليمن ..

وكان الملك «سيف» يفكر في أهله وأصدقائه وهو يطير في الهواء حين نفذت إلى أنفه رائحة زكية غريبة ، فقال لـ «عاقصة» :

ـ ما هذه الرائحة يا «عاقصة» :

فقالت له «عاقصة» :

ـ نحن يا أخي نطير فوق بستان النزهة المطلسم ..

فسألها :

ـ وما هذا البستان .. ؟

قالت «عاقصة» :

ـ هو بستان من الزهر والورود والأشجار ، صنع كله بالحكمة والطلاسم ..

فهتف «سيف» :

ـ أنزليني إليه لأتفرج عليه ..

فقالت «عاقصة» :

ـ إن هذا البستان محفوف بالمهالك ، ولست آمن عليك منه ، فدعنا نمضي في سبيلنا ولا شأن لك به ..

فقال «سيف» :

ـ بل لا بد من رؤياه ، وإني لأقسم عليك بالنقش الذي على خاتم سليمان أن تأخذيني إليه ..

وحاولت «عاقصة» أن تثنيه عن عزمه ، ولكنه تشبث برغبته وأصر على زيارة البستان ، واضطرت «عاقصة» إلى أن تنزل به إلى جوار البستان ، وقالت له :

ـ أنا لا أستطيع أن أدخل هذا البستان معك لأنه مرصود وسأنتظرك هنا ..

فقال الملك «سيف» فرحاً :

ـ ولن أدعك يا أخت تنتظرين طويلاً ، فأنا لا أقصد إلا النزهة ..

فقالت «عاقصة» محذرة :

ـ وإياك أن تمكث فيه أكثر من ساعتين وإلا حل بك الهلاك ، كما أني أنصحك ألا تقطف شيئاً من زرع البستان فهو مطلسم ، كما أن في البستان حجرة إياك أن تقربها وإلا قـــدت نفسك إلى التهلكـــة ، ولا تنس ما قلته لك من أن كل ما تراه هو من صنعة الحكمة والسحر ..

• • •

ما كاد الملك «سيف» يقترب من باب البستان حتى ملأت الروائح الزكية رئتيه ، وأحس نفسه يمشي وسط دنيا من عطر هو مزيج من عبق أجمل زهور الدنيا وأحفلها بالروائح العطرة .. وكان باب البستان مفتوحاً وقد بدا منه منظر البستان مذهلاً محيراً .. فتقدم الملك «سيف» يدخل البستان مأخوذاً بروعة ما يرى ، ففي كل مكان انتشرت أحواض الورد بمختلف أنواعه بينما انتشرت أنواع الأشجار محملة بالثمار الشهية الناضجة ، تتخللها نهيرات يجري فيها الماء الصافي الرقراق .. بينما تدور السواقي وحدها محدثة بصوتها نغماً رتيباً كالإيقاع وسط هذه الأصوات الرائعة التي تنبعث من الطيور المزركشة والعصافير الملونة .. وانتشرت هنا وهناك الخمائل وتكاعيب الكروم وظلال وارفة تنشرها أغصان الأشجار الضخمة الباسقة ...

وظل الملك «سيف» يسير وقد أسر لبه هذا الجمال المتناسق الذي ينطق به كل ما حوله ، والذي يمتع حواسه كلها ، إلى أن رأى أمامه

بناء رشيقاً جميلاً لحجرة منعزلة في أحد أطراف البستان .. فوقف مذهولاً أمام البناء ، فقد كان تحفة لا يقاس إلى جانبها كل ما في البستان من جمال ، وتقدم يتأمل في الأعمدة المذهبة التي ترفع سقف الحجرة وهو يتعجب مما عليها من رسوم ونقوش ، ويرقب أرض الحجرة المفروشة بالحرير المنقوش .. وتذكر فجأة تحذير عاقصة له من أن يدخل هذه الحجرة ، فكاد يعود لولا أن لفت نظره المتطلع أربعون كرسياً مصفحة بالفضة رصت تحت الأعمدة ، وإلى جوار كل كرسي خزانة ، وكانت الكراسي والخزائن من أجمل التحف وأرشقها .. فتقدم مسلوب اللب - وقد نسي كل تحذير - إلى هذه الخزائن يفتح إحداها ، وإذ بها منقوشة من الداخل بالذهب ، بينا كسيت حيطانها بالحرير المنسوج المزخرف ، وفي داخل الخزانة رداء من الحرير منسوج بشرائط من الذهب والفضة .. ودفعه الفضول ففتح كل الخزائن ، وإذا بكل خزانة تحوي رداء كالذي في الخزانة الأولى ، وكل سبعة من هذه الأردية لها لون واحد ..

وما كاد الملك «سيف» ينتهي من فحصه للخزانة الأخيرة حتى كان الفضول قد امتلك قلبه ونفسه ، وصمم على البقاء في البستان إلى حين يكشف سر هذه الحجرة ، وسر كراسيها الأربعين .. وتحول الملك «سيف» ليغادر الحجرة ، وإذ به يرى في الناحية الأخرى منها حوضاً مبنياً من الرخام المتعدد الألوان وسطه نافورة يندفع منها ماء رقراق ، والحوض يبدو قاعه الملون من خلال الماء الشفاف الذي يملؤه وتنعكس عليه أشعة الشمس الزاهية ، فتبدو ألوان الرخام الملون الذي في القاع متكسرة براقة .. وملأ الملك «سيف» عينيه من هذا الجمال الماثل ، ثم أخذ يبحث لنفسه عن مخبأ يرى منه الحجرة والحوض دون

أن يراه من بهما ، إلى أن اهتدى إلى حوض كثيف للزهور ، سرعان ما دس نفسه بين زهوره .. فاختفى تماماً عن كل ما في البستان ، ومكث في مكانه هذا متنبهاً ليرقب ما يحدث من أمر يكشف له سر الحجرة والحوض الرخامي ..

° ° °

ولم يطل بـ «سيف» المقام حتى سمع صوت أجنحة عديدة ترفرف حول البستان فرفع رأسه محاذراً ، وإذ به يرى مجموعة كبيرة من الطيور تقبل في نظام بديع وتحلق لحظات فوق البستان ، ثم تتجه إلى الحجرة حيث ظلت تدور حولها فترة ، ثم أخذت الطيور تهبط واحدة إثر الأخرى فوق أرفف في الأعمدة الأربعين .. وما لبثت الطيور كلها أن نزلت فإذا هي أربعون طائراً وقف كل طائر فوق رف على أحد الأعمدة ، وقال الطائر الذي يقف في وسط الحجرة تماماً :

ـ انزلن فالمكان آمن ..

وهبطت الطيور إلى جوار الكراسي وأخذت تخلع ثيابها الريش ، فإذا بكل ثوب ينشق عن غادة هيفاء غاية في الفتنة والجمال .. ومدت كل واحدة منهن يدها إلى الخزانة القريبة منها ، فأخرجت الرداء الحرير ومضت تلبسه إلا الطائر الواقف في الوسط فإنه ظل في مكانه فوق الرف المثبت في عاموده ، يرقب الفتيات وهن ينزلن إلى الماء في الحوض الرخامي ، ويلعبن في مرج زائد وبهجة واضحة ، يقذفن بعضهن بالماء وقد انتشرت شعورهن وظهر جمال أجسامهن من خلال الأثواب الحريرية الشفافة .. ورفعت إحداهن رأسها تخاطب الطائر المنفرد على العامود قائلة :

ـ يا ملكة «منية النفوس» .. ما جئنا هنا إلا كي نبعث السرور

إلى قلبك ، فكيف نلعب نحن الجواري ونمرح وأنت واقفة هناك وحدك لا تريدين النزول إلينا ؟

فالتفت الطائر إلى الجارية المتحدثة ، وقال لها بصوت كرنين الفضة :

ـ إن قلبي منقبض من لحظة وصولنا إلى البستان ، وقلبي يحدثني بوجود غريب فيه ..

فردت إحدى الجواري ضاحكة :

ـ كيف هذا يا ملكة والبستان مرصود ، ولا يستطيع مخلوق أن يهتدي إليه ؟!

وحبس الملك «سيف» أنفاسه وهو يتتبع هذا الحوار ، إلى أن رأى الطائر يتهادى من فوق الرف إلى جوار الكرسي ، وقد اقتنع بكلام الجواري وبدأ في خلع ثوب الريش الذي سرعان ما انشق عن غادة مذهلة الجمال ، مدت يدها إلى الخزانة ولبست رداءها الحرير ، ثم انثنت واقفة فأحس الملك «سيف» بقلبه يغوص بين جنبيه ، فقد كانت «منية النفوس» غادة فريدة في حسنها وجمال قوامها وسحر حركاتها ودلال مشيتها .. ثم نزلت «منية النفوس» إلى الماء تلعب مع جواريها وصوت ضحكتها العذبة يبعث الضوء والجمال والحياة في البستان كله .. وأدرك الملك «سيف» أن «منية النفوس» قد سلبت لبه ، وأن باله لن يهدأ إلا إذا وصل إليها ، وأدرك أيضاً أنه لا يستطيع أن يكشف عن وجوده وإلا هربت مع جواريها .. فجعل يفكر في طريقة تمكنه من الحديث معها حتى أعيته الحيل ، فأخذ يتسلل من مكانه محاذراً حتى خرج من البستان متجهاً نحو «عاقصة» لتدبر له هي الأمر ..

° ° °

ظل الملك «سيف» يهرول بين التلال بعد أن خرج من البستان حتى

رأى «عاقصة» فاتجه إليها ، وما أن رأته «عاقصة» ذاهل الفكر شاحب الوجه حتى أدركت أن أمراً جللاً قد حل به ؛ فقالت له :

ما الأمر يا أخي ؟ مالي أراك كالمريض ؟ .. هل عاد إليك هذا المرض الخبيث الذي ألزمك الفراش أياماً وشهوراً ؟!

فسكت «سيف» لحظات ، ثم رفع لها وجهه المبلل بالدموع ، وقال :

ـ الأمر يا «عاقصة» مرض لا علاج له ..

ثم مضى يحكي لها ما رأى ، ويقص عليها كيف سقط في شراك الحب والهوى .. وما أن سمعته «عاقصة» حتى صاحت به :

ـ هذا يا أخي اسمه المستحيل ، أتدري من هي «منية النفوس» ؟ إن أباها هو الملك «قاسم العبوس» صاحب جزيرة الماس ، وهو الذي يحكم على كل بلاد آخر الدنيا ، فبيننا وبينه مسيرة أربعة وثلاثين عاماً .. وعساكره بعدد الحصى والرمل يحكم على أربعين ملكاً ، وكل ملك له أربعة ملايين جندي ، وعنده من الحكماء ثلاثمائة وستون حكيماً بعدد أيام السنة ..

وكانت «عاقصة» تتحدث وسيف ذاهل عنها كأنه لا يسمع ، فعادت تقول له :

ـ أما تسمعني ؟ إن أباها يجبي الخراج من الصين وما حولها ، وليس هناك ملك يجرؤ على الوقوف أمامه .. !

وكان «سيف» يهمس :

ـ اسمها «منية النفوس» وهي منية القلب ومنية الروح ..

فقالت «عاقصة» :

ـ أفق يا أخي «سيف» ألست ترى دلائل قدرته في تلك البدلة

التي صنعها حكماؤه من الريش لابنته وأترابها ، يرتدينها فيسبحن في الهواء ، وتقطع كل واحدة في ساعة من الطيران مسيرة عام كامل .. فالدنيا كلها عندهم ملكوها بالحكمة وصنعة الحكماء ، وبلاد الدنيا من مدن وجبال وأنهار وبحار وصحارى كأنها حارات وطرق يعبرونها دون أن يردهم أحد ..

ونظر «سيف» إلى «عاقصة» وهو يقول :

ـ ولماذا جاءت إلى هنا يا «عاقصة» ... ألكي تذلني وتذهب لبي .. ؟

فتنهدت «عاقصة» وقالت له :

ـ يا أخي أترك عنك هذا الأمر .. فهذه عادتها كل عام ، تطير إلى هذا البستان هي وجواريها وتقضي سبعة أيام كاملة في لعب ومرح ، ثم ترتدي ثوبها وتعود هي وجواريها إلى بلادها .. فهيا بنا يا «سيف» أحملك إلى بلادك وزوجتيك وأولادك ..

فقال «سيف» :

ـ ما هذا وقت الحديث عن الأزواج والأولاد .. أقول لك أحب «منية النفوس» فتقولين زوجتاك وأولادك ؟!

فقالت «عاقصة» :

ـ ولكن بلادها بعيدة ولا أستطيع أن أحملك إليها ..

فهب «سيف» واقفاً وهو يقول :

ـ ومن الذي طلب منك حملي إلى بلادها ، أتكون هي في هذا البستان وانتظر حتى تطير إلى بلادها وآكل أصابعي حسرة .. والله يا «عاقصة» لو طارت لطارت معها روحي ، وما عاد لي فكاك من أسرها ..

فتنهدت « عاقصة » وقد أحست أنه لا فائدة من الجدل معه وقالت :
ـ هذا قدر الله أيها الملك ، ولا بد مما ليس منه بد .. ما دامت هذه نيتك فاستمع لما أقول لك ونفذه بالحرف الواحد ...
ومضت « عاقصة » ترسم له الخطة ، وهو يستمع إليها ، إلى أن وعى نصائحها تماماً .. فقالت :
ـ أما الآن فقم أحضر لك الطعام حتى يحل الظلام ، فهو وسيلتنا إلى من تريد .

٢٥

ليلة العرس

أخذ الملك «سيف» يتسلل في البستان ، يختفي تارة وراء الأشجار ، وأخرى وراء أحواض الورد حتى اقترب من الحجرة ، فترامت إلى أذنيه أصوات ضحكات الجواري وهن يتلاعبن وسط الماء .. فزاد من اقترابه حتى يستطيع الرؤية بوضوح ، فوجدهن ما زلن في الماء يسبحن ويلعبن وقد استغرقهن اللهو واللعب عن كل شيء آخر .. فاقترب بحذر من الحجرة ، وصار يتنقل من عامود إلى عامود في خفة حتى وصل إلى العامود الأوسط ، فمد يده إلى ثوب «منية النفوس» الريش وأخذه ، ثم عاد متلصصاً في حذر حتى غادر الحجرة ، وتوغل في حوض الورد الذي أخفاه أول مرة ، وحبس أنفاسه يرقب وينتظر .. وأخذت الأشعة الأخيرة للشمس تختفي ، وبدأ الظلام يسود المكان .. وأحس «سيف» بحركة عند الحجرة والحوض ، فرفع رأسه محاذراً فإذ به يرى الجواري يغادرن الحوض متجهات إلى الحجرة ، فأسرع ينفذ ما أمرته به «عاقصة» إذ أخذ يجري مختفياً وراء الورد حتى وصل إلى الحجرة ، فانبطح أرضاً وأخذ يزحف متجهاً إلى الحوض .. وحين وصل إليه تسلل إلى الماء في هدوء ، وأخذ يسبح محاذراً في خفة حتى وصل إلى نهاية الحوض حيث تكاثف الظلام ، فقبع هناك لا يكاد يبين منه خارج الماء غير رأسه ..

أخذت الجواري يرتدين الثياب والملكة «منية النفوس» تلاعبهن وتضاحكهن ، حتى اقتربت من خزانة ثيابها فلم تجد ثوبها الريش ، وأحست أن قلبها قد انقبض ، وصاحت في جواريها :

ـ من منكن أخذت ثوبي الريش تريد المزاح .. ؟!

وتلفتت الفتيات تنظر كل واحدة إلى زميلتها في حيرة ، فعادت «منية النفوس» تقول :

ـ ما هذا وقت مزاح ! لتخرج الثوب من أخذته .. !

فلما طال صمت البنات ، صاحت غاضبة :

ـ إذا لم يعد ثوبي الآن فسأعاقبكن جميعاً ..

فقالت واحدة منهن :

ـ ومن منا أخذ الثوب وأنت أول من طلع من الماء ، ولم تقترب واحدة منا من خزانتك .. !

فهدأت «منية النفوس» وقد بدأ الخوف يحل محل الغضب في قلبها ، وقالت :

ـ إن الذي سرق ثوب الريش يريد هلاكي وهو عدو كامن في هذا البستان .. فهيا ننتشر في البستان نبحث عن غريمنا ..

فمضت الجواري يفتشن البستان بحثاً عن الملك «سيف» .. وهو كامن في حوض الماء يرقبهن وقد حمد ربه أن استمع إلى نصيحة «عاقصة» فإنهن لم يتركن مكاناً يمكن أن يخفي نملة دون التنقيب فيه ، ولم يلتفتن إلى الحوض لأنهن كن فيه منذ لحظة ولم يكن فيه أحد .. وعندما عادت البنات يائسات ، قالت «منية النفوس» :

ـ لقد ضاع الثوب وهرب منا الغريم .. وأنا لا يمكنني العودة إلا بالطيران ، فهيا أسرعن أنتن بالطيران إلى قصري لتحضرن ثوبي الريش

الثاني ، وإياكن والإهمال فحياتي تتوقف على سرعة طيرانكن .. هيا ...!

وما هي إلا لحظات حتى. كانت الجواري قد لبسن أثوابهن الريش ، وارتفعن في الجو محلقات في سرعة وقد تركن « منية النفوس » وحيدة تجلس على كرسيها مطرقة الرأس دامعة العين ..

وتسلل الملك «سيف» خارجاً من حوض الماء ، ودار حوله ثم اقترب منها محاذراً وهو يرقب جلستها المطرقة ، وقد انسدل شعرها الفاحم على كتفيها ، واسترخت يدها البضة إلى جوارها ، وأحست «منية النفوس» به فهبت واقفة ، وتراجعت خطوة وهي تقول :

ـ أنت الذي أخذت الثوب ، وحولت بهجتي إلى غم .. أنت عدو ولا شك .. !

فابتسم الملك «سيف» وقال وهو يبرز طرف الثوب .

ـ هذا ثوبك يا ملكة ..

وفقدت الملكة «منية النفوس» هدوءها ، فأسرعت تتقدم منه وهو يتراجع أمامها ، وهي تقول صائحة .

لقد رميت بنفسك في المهالك ، وأوقعت نفسك في المحظور ، واليوم انتهى أجلك ..

ثم هجمت على الملك «سيف» فاستدار وأخذ يجري قاصداً البستان كما أمرته «عاقصة» وهي تجري وراءه ، وكان يعرف أنها إن أدركته داخل البستان المرصود فلا أمل له بين يديها .. وعثر الملك «سيف» في شجرة فانكفأ على الأرض ، وكادت الملكة «منية النفوس» تلحق به ، ولكنه قفز ثانية على قدميه ومضى يجري بكل قوته حتى خرج من باب البستان وهي على أثره وقد نسيت نفسها تماماً .. وظل الملك «سيف» يجري حتى ابتعد تماماً عن الأرض المطلسمة فوقف ، ثم كر

عائداً إليها وجذبها من شعرها بكل قسوته فوقعت على الأرض أمامه ، وقد أنهكها الجري وألجمتها المفاجأة وعرفت أنها وقعت في يديه .. وأسرع «سيف» يجرها من شعرها وهي تتبعه ذليلة عاجزة إلى أن وصل إلى مكان «عاقصة» فتركها أمامها .. ما كادت «منية النفوس» ترى «عاقصة» أمامها حتى صاحت ثائرة :

ـ ويلك يا «عاقصة» .. هل بلغ من قدرك أن تحضري الأنس إلى أرضنا وتدخليهم بستاننا وتريهم زينا ، وتساعدي هذا الصعلوك على التجرؤ على بنات الملوك ؟ من يخلصكما من أبي إذا علم بذلك ؟ سيقتلك أنت وهو وسيخرب بلاد القمر ومنبع النيل .. ؟

فقالت «عاقصة» ملاطفة :

ـ رويدك يا ملكة «منية النفوس» .. ما هذا إلا ملك جليل الشأن رفيع المقام ، وله أعوان من الإنس والجان ، ويأتمر بأمره ملوك وأعوان .. وهو أخي في الرضاع الملك «سيف بن ذي يزن» أشجع الفرسان ، وأمهر من حمل رمحاً وهز سيفاً ..

فصاحت «منية النفوس» .

ـ وهل من شجاعته أن يخطف النساء ويأسرهن .. ؟!

فقالت «عاقصة» .

ـ إنه لم يأسرك يا ملكة بل أنت آسرته وخاطفة لبه .. منذ أن رآك وقد تدله بحبك ، ونسي أهله وملكه وجاهه .. ولم يعد يذكر إلا حبه لك ..

فالتفتت «منية النفوس» إلى الملك «سيف» تتأمله لأول مرة فراعها منه حسن صورته والشهامة البادية على وجهه ، وملامح القوة والشجاعة تبدو من كل جزء في جسده ، فقالت :

ـ أتعرف ثمن طيشك أيها الفارس .. ؟

فقال « سيف » وقد أحس أنها بدأت تنسى غضبها :

ـ أغالية حياتي التي أبذلها فداء نظرة راضية من عينيك .. ؟!

فقالت « منية النفوس » :

ـ بل تنال هذه النظرة لو أعطيتني الثوب !

فأسرعت « عاقصة » تقول :

ـ هذا قدر لا مفر منه يا ملكة ، ولا عودة للثوب إلا بإذن من كتب عليكما اللقاء لأمر يريده .. فهل تريدين معاندة القدر . ؟

وتنهدت الملكة « منية النفوس » وقد عرفت أن لا خلاص لها ، فقال « سيف » :

ـ يا « عاقصة » .. ألا تعرفين مكانا نقصد إليه بدلاً من وقوفنا هنا في الخلاء .. ؟!

فقالت « عاقصة » :

ـ سأقصد بكما إلى قصر سحاب المختطف الذي قتلته أيها الملك عندما استجرت بك فأجرتني ..

وسرعان ما حملتهما « عاقصة » وطارت بهما إلى القصر ، وقصدت بهما إلى قاعة القصر الكبرى حيث جلسا ، ثم صاحت على خدم القصر وأمرتهم بإعداد الطعام .. وعادت تحادث الملك « سيفاً » و « منية النفوس » وتزيل الجفوة بينهما حتى زال جو العبوس ، وبدأت الابتسامة تعود إلى « منية النفوس » ..

وحين حضر الطعام كان الملك « سيف » والملكة « منية النفوس » قد أصبحا متقاربين ، فقد أسرها عذب حديثه ، وأزال جفوتها رقته وأدبه .. وما أن انتهى الطعام حتى قالت « عاقصة » .

ـ سأترككما الآن لأعد لكما مكان النوم ..

فهبت «منية النفوس» صائحة .

ـ النوم .. ؟

فقالت «عاقصة» وهي تنصرف .

ـ هل ستقضين الليل كله ساهرة ؟

ووقفت «منية النفوس» مضطربة ، فقام الملك «سيف» من مكانه واقترب منها قائلاً :

ـ يا مليكتي هل لي أن أطلب يدك منك فتكوني زوجتي وحليلتي على ملة سيدنا إبراهيم الخليل . ؟

فالتفتت إليه «منية النفوس» ونظرت في عينيه وقالت :

ـ وهل أملك الرفض ..

فقال لها الملك «سيف» :

ـ وهل مثلي يرغم مثلك على ما لا ترضاه ....

فابتسمت «منية النفوس» وهي تقول :

ـ ومن شاهد العقد .. ؟

فجاءها صوت «عاقصة» قائلا :

ـ أنا يا مولاتي ، الحمد لله الذي أرضاك وطمأن قلبك .. هات يدك ايها الملك ، وأنت يا ملكة «منية النفوس» ..

وما أن انتهى الملك «سيف» من إجراءات العقد الشرعي المتعارف عليه في ذلك الزمان حتى كانت «عاقصة» قد أمرت خدم القصر ، فانبعثت الموسيقى من كل مكان ، وظهرت جواري راقصات وملأ القصر عبق البخور ورائحة الصندل .. وصفقت «عاقصة» ففرش الخدم مائدة ضخمة حافلة بأطايب الأطعمة وأجمل أنواع الشراب ،

ومضى الملك «سيف» ليسامر عروسه ومعهما «عاقصة» حتى انتصف الليل فقامت «عاقصة» قائلة :

ـ سأترككما الآن .. والقصر وخدمه تحت أمركما تجدون فيه كل ما تطلبون ..

ثم اختفت تاركة الملك «سيفاً» وعروسه يقضيان ليلة عرسهما في بهجة وسعادة وهناء بال ..

• • •

أقام الملك «سيف» مع عروسه الملكة «منية النفوس» بقصر المختطف فترة من الزمان ، وقد نسي حمراء اليمن وملكه ورجاله ، إلى أن قالت له الملكة «منية النفوس» ذات صباح :

ـ لقد سمعت منك حديثاً طويلاً عن جنودك وملكك ، فما الذي يقعدك عن الارتحال إليهم ، فلست مرتاحة إلى استمرار إقامتنا في هذا المكان .

فقال الملك «سيف» :

ـ صدقت يا ملكة «منية النفوس» .. لقد اشتاقت نفسي إلى أهلي وبلادي ..

فقالت «منية النفوس» :

ـ لقد تركتنا «عاقصة» ولو كانت معنا لحملتنا إلى بلادك ..

فجاءها صوت «عاقصة» يقول :

ـ بل أنا معكما .. وما دامت نيتكما قد صحت على السفر إلى حمراء اليمن فهيا بنا ..

ثم حملتهما وارتفعت في الهواء متجهة إلى أرض حمراء الحبش ..

• • •

ظلت «عاقصة» طائرة بهما فترة من الزمان ، وفجأة ارتجف جسدها كله . واضطرب طيرانها .. فقال «سيف» :

ـ ما الأمر يا «عاقصة» ؟!

فردت عليه بصوت مضطرب :

ـ إني أشم رائحة رصد مطلسم على الأرض يحيط بهذا المكان ، وهو من فعل «استركان» وهو من أكبر الكهان ولا يستطيع أحد أن يقاومه ..

فقالت «منية النفوس» :

ـ وما العمل يا «عاقصة» ؟

قالت «عاقصة» وجسدها كله يرتجف :

ـ أعود بكما إلى قصر المختطف حيث كنتما ..

فقال «سيف» :

ـ بل أنزلينا هنا ، ونحن نبحث لنا عن طريقة للخروج من هذه الأرض المهلكة ..

فردت «عاقصة» وهي ترنح وتكاد تسقط بهما إلى الأرض :

ـ ليس تحتنا أرض ، بل إن ما تحتنا بحر عجاج ..

فصاحت «منية النفوس» بها قائلة :

ـ أنظري علك ترين جزيرة تنزليننا بها ..

وطال صمت «عاقصة» وقد أخذ سيرها يبطئ ، وطيرانها يشتد اضطرابه ، حتى أوشك القلق والخوف أن يحطما أعصاب «سيف» و «منية النفوس» .. وفجأة جاء صوتها يقول :

ـ أرى جزيرة هناك وسأنزل بكما إليها ..

واسترد الملك «سيف» رباطة جأشه ، وعاد الاطمئنان إلى قلب

«منية النفوس» ، وما لبثا أن وجدا نفسيهما فوق أرض الجزيرة وقد اختفت «عاقصة» تاركة إياهما وحدهما ..

ه ه ه .

نظر الملك «سيف» حوله ، فوجد نفسه و «منية النفوس» وسط جزيرة مليئة بالأشجار الغريبة ذات الثمار الضخمة ، فصعد إلى شجرة منها وهز فروعها وأغصانها ، فتساقط ثمرها الكبير .. وعندما فتحه وجد لحمه الأبيض شهياً ، ووجد بداخله سائلاً حلواً كاللبن ، فقالت «منية النفوس» :

ـ هذه أشجار جوز الهند ، وطعامها لذيذ ولبنها شهي ..

ومضت تأكل هي والملك «سيف» وقد استخفهما الطرب ، ونسيا ما هم فيه من عناء حتى أقبل الليل .. فاستلقيا تحت الأشجار وراحا في نوم عميق ..

وعندما أشرق الصباح ، أفطر «سيف» و «منية النفوس» على ثمار شجرة جوز الهند ، ثم قال الملك «سيف» :

ـ أرى أن نسير متجهين إلى البحر ، علنا نقع لنا على منفذ يخلصنا من هذه الجزيرة ويعيدنا إلى مدينة الحمراء ..

ثم قام سائراً وإلى جواره الملكة «منية النفوس» حتى ابتعدا عن المكان الذي نزلا فيه وما به من أشجار ، ووجدا نفسيهما يدخلان إلى منطقة جرداء يلوح في آخرها ماء البحر يلمع تحت أشعة الشمس .. فاستمرا في سيرهما وقد بدأ التعب يحل بجسديهما والجوع يغزو أمعاءهما حتى قالت «منية النفوس» :

ـ ليتنا ظللنا في المكان الذي نزلنا به ، ففيه الطعام والماء معاً ..

فقال لها الملك «سيف» :

ـ إن غايتنا هي البحر لنبحث عنده عن مخرج لنا ، ولم يبق إلا القليل لنصل إليه ..

فتحاملت «منية النفوس» على نفسها ، ومضت تسير في إثره وهو يسير متلفتاً ذات اليمين وذات اليسار بحثاً عن ملجأ من هذا الحر ، أو مظهر لوجود ماء أو حيوان دون جدوى ، وسقطت «منية النفوس» على الأرض من شدة التعب ، وقد توسطت الشمس السماء واشتد بها الظمأ ، فانحنى الملك «سيف» عليها ، وحملها فوق كتفيه ومضى متثاقلاً ينقل قدميه بصعوبة وهو يقترب من البحر خطوة خطوة ، حتى أوشك أن يصل إلى حافته .. فاستبد به التعب فسقط إلى الأرض وإلى جواره «منية النفوس» وهو يلهث ، وعيناه غائمتان ، وأشعة الشمس تشوي وجهه وتلسع جلده ، والظمأ يستبد به حتى انتابته غيبوبة طويلة وقد أيقن بالهلاك .. وإذ بصوت «منية النفوس» يأتيه ضعيفاً حائراً وهي تقول :

ـ انظر ، أرى سفناً في البحر ..

ورفع «سيف» عينيه في صعوبة بالغة ، فلمح وسط الغمامة التي تحجب الرؤية عن نظره أشباح سفن كثيرة تبدو من بعيد – ونسي «سيف» في الحال تعبه وظمأه ، وأمده الأمل بقوة جديدة جعلته يجري في جنون وهو يلوح بيديه صارخاً يريد أن يلفت نظر من بالسفينة و «منية النفوس» تجري وراءه وهي تتعثر بالأحجار فترتمي على الأرض ثم تنهض ، وهو يواصل الصراخ والجري والقفز إلى أن غابت السفن عن عينيه تماماً .. والتفت وراءه في يأس ، فرأى «منية النفوس» مستلقية على الأرض بعيداً عنه .. وأحس بالدنيا كلها تدور به ، وملأت نفسه غصة مريرة واحتل قلبه يأس قاتل .. ثم أخذ يتهاوى

على الأرض وآلام الظمأ والتعب تعودان إليه وتملآن رأسه بطنين ثقيل ، ثم غاب عن وعيه ..

* * *

كان هناك شيء رطب يمر بين شفتي الملك «سيف» ثم ينساب في حلقه فيتقبله في نشوة غريبة ، وفتح الملك «سيف» عينيه ليجد حوله مجموعة من البحارة يلتفون حول رأسه ، وكان أحدهم يمسك إناء مليئاً بالماء ويصب في فمه قطرات منه في حذر شديد .. ورفع الملك «سيف» يده يحاول الإمساك بإناء الماء ، إلا أن أكثر من يد امتدت إليه تمنعه من الحركة ، وقال صوت :

ـ والآن إهدأ أيها الغريب ، فالماء الكثير قد يقتلك ..

ورفع الملك «سيف» رأسه بحثاً عن «منية النفوس» فرآها جالسة تشرب من إناء ماء في بطء وهدوء .. وقال الصوت :

ـ لقد أفاقت رفيقتك قبلك بلحظات ، وستستطيع أن ترتوي من الماء مثلها بعد قليل ..

وعادت قطرات الماء تنساب بين شفتيه من الإناء المرفوع فوق رأسه .. وأحس «سيف» أن آلام رأسه قد خفت ، وأن أنفاسه قد انتظمت ، وأن النار التي كانت تندلع من فمه قد خفت حدتها لتترك كلها مكاناً لهدوء كامل يغمر نفسه ، فعاد يرفع رأسه سائلاً :

ـ من أنتم أيها الأصدقاء .. ؟

فقال صوت آخر :

ـ لقد رآك ملكنا من المركب وأنت تشير ، فأمر بإنزال قارب لرؤية من بالجزيرة المجهولة وإنقاذه .

وتذكر «سيف» السفن التي كانت تمر أمام الجزيرة قبل أن يفقد وعيه فقال :

ـ ولكن السفن ابتعدت ..

فعاد الصوت يقول :

ـ كان من المتعذر إنزال القوارب تجاه النقطة التي تقف عندها ، فالشاطئ فيها مليء بالصخور فابتعد ملكنا بالسفن حتى وجد المكان الملائم لنا لنرسو ، فأمرنا بإنزال القارب والآن أهدأ .. وهاك إناء الماء فاشرب منه على مهل ..

فأمسك الملك «سيف» بالإناء بين يديه ، وقد اعتدل في جلسته ومضى يجرع الماء جرعات صغيرة وهو يحس بالحياة تدب فيه ، وبدمائه تجري في عروقه في انتشاء ..

وسمع صوتاً يصيح :

ـ إن الملك آت في قاربه ..

فرفع الإناء عن فمه ونظر أمامه ، وإذ به يرى الملكة «منية النفوس» تتجه إليه ، بينما لمح قارباً كبيراً يتهادى متجهاً إلى الشاطئ بعيداً عن المكان الذي يقفون فيه ..

ووقف الملك «سيف» يتلقى «منية النفوس» بين ذراعيه ، ويربت على كتفيها في حنان ، وهو ينظر في عينيها الجميلتين وكأنما لا يصدق نجاتهما .. وأفاق الاثنان على صوت يقول :

ـ لقد رسا قارب الملك ، وها هو يتجه إلينا ..

وأحسا بحركة غير عادية بين البحارة من حولهما فالتفتا إلى حيث ينظر البحارة ، وكان ملك هؤلاء البحارة يتقدم وسط مجموعة من جنوده المسلحين في وقار وهدوء .. وحين تأمله الملك «سيف» من

بعيد ، ضغط على كتف «منية النفوس» وهو يهمس :
ـ إن عناية الله فوق كل عناية ..
ورفعت «منية النفوس» عينيها إلى وجهه ، فرأت على شفتيه ابتسامة سعيدة غريبة فاعترتها الدهشة لفرحته .. وسرعان ما ازدادت دهشتها حين رأت الملك المهيب يهرول نحوهما وقد نسي وقاره ، ثم ينحني أمام «سيف» وهو يصيح :
ـ الملك «سيف» ، الحمد لله على سلامتك .. لا بأس عليك يا مولاي ..
فمد «سيف» يده إلى الملك يصافحه ، وهو يقول لـ «منية النفوس» :
ـ هذا هو الملك «أبو تاج» .
فصاح الملك «أبو تاج» :
ـ جندي من جنودك أيها الفارس الهمام ..
فقال الملك «سيف» :
ـ مرحباً بك أيها الملك .. هلا أمرت لنا بالطعام ، وأمرت بالخلع السنية لهؤلاء البحارة الكرام .. ؟
وسرعان ما تعالى هتاف البحارة باسم الملك «سيف» .. بينما أمر الملك «أبو تاج» بإعداد الطعام في الحال .. واتجه الجميع إلى كبرى السفن وهي سفينة الملك حيث أفرد جناح كامل للملكة «منية النفوس» التي بدأت تصدق لما كانت تقوله «عاقصة» عن سطوة الملك «سيف» ونفوذه وملكه .
قال الملك «أبو تاج» للملك «سيف» وهما يجلسان في حجرته على ظهر مركبه :
ـ عندما طال غيابك عنا يا مولاي سألت «برنوخ» الساحر ،

فقال إنها أمك السبب في غيابك ، فاستأذنت في الرحيل إلى مدينتي حتى أعيد تجهيز جندي ..

فقال الملك «سيف» .

ـ هذا نعم الصواب أيها الملك .. سنحل القلوع الآن ونقصد إلى مدينتك ، ومن هناك نجهز أنفسنا ثم نسير براً إلى حمراء اليمن ، فلنا هناك أمر وأي أمر ..

وسرعان ما كانت قلوع المراكب تنتفخ بالهواء وتندفع إلى مدينة الملك «أبي تاج» حاملة الملك «سيف» والملكة «منية النفوس» .. وحين وصلت المراكب إلى المدينة احتفل أهلها بوصول ملكهم «أبي تاج» والملك «سيف» بإقامة الزينات وإعلان الأفراح ودق الطبول .. وما أن استراح الملك «سيف» من رحلة البحر حتى أمر بإعداد الجيش وتجهيزه ..

وما هي إلا أيام حتى كان الملك «سيف» يسير على رأس جيش الملك «أبي تاج» متجهاً إلى المدينة الحمراء ومعه الملكة «منية النفوس» والملك «أبو تاج» .

٢٦

الأم العجيبة

نزلت الملكة «قمرية» إلى الديوان ، وقد استخفها الفرح بما فعله «عيروض» بابنها «سيف» ، وجلست على العرش دون أن تعبأ بـ «برنوخ» أو الملك «أفراح» أو بـ «سعدون» وجنوده ..

وكان «برنوخ» الساحر ينتظر عند باب الديوان ، وقد اعتمد ذقنه على راحته ، ومضى يفكر حين رأى «سعدون» يقبل شاهراً سيفه وشرر الغضب يتطاير من عينيه .. فأسرع يمسك به من ذراعه وهو يقول :

– إلى أين يا «سعدون» .. ؟

فشد «سعدون» ذراعه ، وهو يقول غاضباً :

– إلى قاعة العرش لأقتل هذه الفاجرة جزاء ما تفعله بولدها ..

فقال «برنوخ» :

– أو تحسب أنني أقل غضباً منك .. ولكن الأمر ليس بهذه السهولة ، فما أظن الملك «سيفا» يغفر لقاتلها مهما كانت الشرور التي تفعلها به .. أنسيت .. ؟ إنها أمه ..

فقال «سعدون» متردداً :

– ولكنها ترميه في المهالك قاصدة موته ..

فعاد «برنوخ» يضع يده على كتف «سعدون» وهو يقول :

– ليس لنا نحن أن نجازيها على فعالها فهذا الأمر متروك للملك «سيف» .. وسيعود بإذن الله منصوراً لينتقم منها ويخلصنا من شرورها ..

فعاد «سعدون» يصيح ثائراً :

– ولكن أنعجز نحن عن امرأة ولسنا نخاف الأسود في عرينها ؟

فقال «برنوخ» في هدوء :

– لسنا عاجزين أيها الفارس «سعدون» .. ولكن هذا الأمر لا يحل بالقوة .. أترك الأمر لي ..

فقال «سعدون» :

– وما ذا تفعل :

فهمس «برنوخ» :

– في الليل سترى ..

° ° °

ظلت «قمرية» طول يومها تلازم قاعة العرش ، وقد التف حولها أعوانها القدامى وخدمها وجواريها ، تنهى وتأمر وقد امتلأ قلبها بسعادة غامرة إذ نجحت في الاستيلاء على اللوح وإقصاء «سيف» إلى حيث يلقى حتفه .. وظلت طوال النهار ترقب قدوم واحد من أعوان الملك «سيف» إلى الديوان لتتشفى منه ، ولكن النهار كله انقضى دون أن يدخل إليها في الديوان أحد منهم ، فاعتزمت أن تشرع منذ الغد في الانتقام منهم جميعاً وقتلهم وإفناء جنودهم .. وما ان أوشك الليل أن يقبل حتى أمرت بفض الديوان ، واتجهت إلى حجرتها لا يتبعها سوى خادمها المخلص «حردون» .. وحين دخلت حجرتها أمرت الخادم أن يغلق الباب ، ثم سألته قائلة :

– ألم تر «سعدون» أو «برنوخ» أو «أفراح» .. ؟

فقال لها :

– لقد لمحت « برنوخ » الساحر عند باب الديوان في الصباح الباكر ، ثم رأيت « سعدون » يقبل مسرعاً إلى الديوان وشرر الغضب يتطاير من عينيه ، ولكن برنوخ استوقفه وظلا يتحدثان فترة من الزمن ثم اتجها إلى جناح الملك « أفراح » ..

فقالت « قمرية » :

– إذن هم يدبرون أمراً .. ولكني سأسبقهم في التدبير ، فإن اللوح معي وسنرى من ينتصر : مكرهم أم هذا اللوح المطلسم ؟

ومضت « قمرية » تضحك ، وهي تمد يدها إلى لوح « عيروض » ..

° ° °

حين أقبل الليل كان « برنوخ » الساحر يقف فوق الجبل خارج المدينة يرقب الشمس وهي تختفي من الأفق ، وما أن اختفت آخر أشعتها حتى أخذ يعمل بهمة لتنفيذ ما قرره ، فألقى حول قصرها سوراً من الظلام ، وأحاطها بالخذلان حتى لا تستطيع الحركة .. ثم عاد متجهاً إلى المدينة ، وهو يفكر في هذه الأم العجيبة التي لا تأخذها بابنها رحمة ولا شفقة ..

° ° °

توقفت يد « قمرية » وظلت جامدة على لوح « عيروض » دون أن تقوى على تحريكها ، وقد أخذ الظلام يحيط بها من كل جانب فقالت لـ « حردون » :

– ما هذا الظلام يا « حردون » .. لماذا لا يضيء الخدم الأنوار ويشعلون المصابيح .. ؟ !

فقال « حردون » :

– إن المصابيح قد أنيرت منذ فترة ، ولكن ضوءها لا يبين ... وهذا وحق زحل أمر عجيب .

فقالت « قمرية » :

– يدي .. إن بيدي ثقلاً يمنعني من تحريكها .. ما أحسب إلا أن هذا من فعل « برنوخ » الساحر ..

وازداد الظلام كثافة حول « قمرية » ، كما ازداد احساسها بالهمود والكسل ، فأخذت تستجمع إرادتها لتدلك اللوح .. ولكن يدها لم تطاوعها ، فقالت في لهفة :

– أسرع يا « حردون » ، هذا اللوح .. ادعكه بيدك ..

واقترب « حردون » منها ومد يده إلى اللوح ودعكه ، وسرعان ما ظهر عيروض .. فتنهدت « قمرية » في راحة وقالت :

– ألا ترى يا « عيروض » ما أنا فيه من كرب وبلاء .. ؟

فقال « عيروض » :

– هذا من فعل « برنوخ » يا سيدتي ، ولست أستطيع لما يفعل إبطالاً .. فهذا أمر لا يقدر عليه إلا الحكماء ..

فعاد الغم يملأ قلب « قمرية » وأحست باليأس القاتل ، فصاحت به :

– إذن أقتله ، مزق « برنوخ » شر ممزق ..

فهز « عيروض » كتفيه ، وهو يقول :

– لست أستطيع الاقتراب منه ، فإن أنا اقتربت منه أحرقني ..

فأخذت « قمرية » تبكي حنقاً وغيظاً ، ثم صاحت :

– أغرب عن وجهي أيها العاجز ..

واختفى « عيروض » وقد استراح قلبه لما فعله « برنوخ » ..

وظلت «قمرية» تبكي وتنوح وخادمها «حردون» يحاول أن يسري عنها دون جدوى ..

وما ان أقبل الصباح حتى نزل «برنوخ» إلى الديوان ، وأمر بالقبض على كل أتباع «قمرية» وخدامها وإلقائهم في السجون ، ثم أجلس الملك «أفراح» على العرش ومعه «سعدون» وأمر بتجهيز الجنود ، وزيادة الحراسة على قصر «قمرية» وعلى المدينة كلها .. وظل يتداول مع «سعدون» و«أفراح» فيما يمكن عمله لمعرفة مكان الملك «سيف» ومحاولة إنقاذه ، ولكنهم بعد مداولات طويلة انتهوا إلى ترك الأمر لإرادة الله طالما لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً ..

° ° °

ظلت «قمرية» تبكي حتى الصباح ، وقد أجهدت نفسها في التفكير في وسيلة تخلص بها نفسها من البلاء الواقع عليها .. وعند الصباح دخل عليها «حردون» ليخبرها بأمر القبض على كل أعوانها وخدمها وقال :

– ولم أكد أخرج من القصر أمس حتى عرفت ما حل بأعوانك وخدمك ، فأسرعت متخفياً إلى السجن .. وهناك تأكدت أن كل من هم على صلة بك قد أودعوا السجن ، فعدت إلى القصر متستراً بالظلام ومحاذراً أن يراني أحد .. ولست أظن أن الأمر سيطول فصيري السجن معهم حتماً ..

فقالت «قمرية» .

– وتريد أن تهرب .. ؟ !

فقال «حردون» متردداً :

– إن أمرت بمكثي معك فسأظل إلى جوارك ..

فعادت « قمرية » تقول :

– وإن هربت إلى أين ستذهب ؟

فقال « حردون » :

– لست أدري يا سيدتي .. ولكن أظن أن أنسب مكان لي هو مدينة الملك « سيف ارعد » ..

فكفت « قمرية » عن بكائها وهي تقول :

– الملك « سيف ارعد » .. كيف لم أفكر في هذا من قبل ... إن سحر « برنوخ » شل تفكيري وأعجز ذكائي .. هيا أسرع وتسلل من القصر وحاذر أن يراك أحد .. واحك للملك « سيف أرعد » ما فعله بي « برنوخ » الساحر .. وقل له أن لا خلاص لي إلا على يد الحكماء والسحرة .. فليرسل لي « سقرديوس » و« سقرديون » ليخرجاني من هذه الورطة .. أسرع ..

ولم تنته من كلامها حتى كان « حردون » قد اختفى متسللاً في ردهات القصر متجهاً إلى الباب الخلفي ، وما ان وصل إليه حتى فتحه في هدوء وقد ستره الظلام المحيط بالقصر عن عيون الحرس .. ثم زحف إلى طريق جانبي ضيق ، وظل يزحف إلى أن ابتعـــد عـــن القـــصر تماماً ، فأطلق ساقيه للريح حتى وصل إلى سور المدينة .. وعند السور ظل واقفاً إلى أن لمح تاجراً يخرج ببضاعته من باب المدينة ، وهو يقود قطيعاً من العبيد فتسلل بينهم دون أن يراه أحد حتى خرج من باب المدينة ، ثم انتهز غفلة من التاجر فانسل من بين العبيد وتسلل بين الصخور حتى ابتعد موكب التاجر عن ناظريه ، فأسرع يجري بكل قوته قاصداً مدينة الملك « سيف أرعد » ..

° ° °

ما أن انتهى «حردون» من سرد رسالته على أسماع الملك «سيف أرعد» ، حتى اعتراه الغضب وملأه الغيظ ، والتفت إلى «حردون» قائلاً :

– وأين الملكة «قمرية» الآن .. ؟

فقال «حردون» :

– إنها يا مولاي سجينة الظلام الذي فرضه «برنوخ» على قصرها . ولا تكاد تتحرك مما أصابها به «برنوخ» من همود وعجز ..

فصاح الملك «سيف أرعد» :

– عليَّ بالحكيمين «سقرديون» و«سقرديوس» ..

وتنادى الحجاب بالأمر ، وما هي إلا دقائق حتى دخل الحكيمان مسرعين وانحنيا أمام الملك ، فأمرهما بالجلوس ثم قال :

– لقد استدعيتكما أيها الحكيمان لأمر جلل حل بجاريتنا «قمرية» . أيها الخادم «حردون» قص عليهما ما حدث وأبلغهما برسالة «قمرية» إلينا ..

فعاد «حردون» يقص ما لديه من أخبار ، ثم انتهى بأن أعاد رسالة «قمرية» إلى الملك «سيف أرعد» على أسماع الحكيمين ، وما أن انتهى من رسالته حتى قال «سيف أرعد» :

– لقد تخلت «قمرية» عن ولدها من أجلنا وعادت إلى طاعتنا ، ولا ينبغي أن نخذلها في محنتها ، وأريد أن أرسلكما إليها لتنقذاها مما فعله بها «برنوخ» الساحر ..

فقال «سقرديون» :

– أمر «برنوخ» سهل علينا .. وما إن نصل إليها حتى نبطل سحره ، ونزيل أثر ما فعله بها ولكن ..

فصاح «سيف أرعد» :

– ولكن ماذا ... ؟

فقال «سقرديوس» :

– «سعدون» وجند «سعدون» يا مولاي ..

وقال «سقرديون» :

– لو رآنا «سعدون» مرة أخرى لمزقنا شر ممزق ..

فصاح «سيف أرعد» غاضباً :

– كفى .. هل يعجز ملك الجيش الحبشي عن ساحر وعبد مارق ؟ . ما هذا الهراء .. ؟

فقال «سقرديوس» متملقاً :

– إن لك يا مولاي الحول والطول ، ولا يستطيع أحد أن يقف أمام سطوتك وقوتك ..

وأردف «سقرديون» :

– ولكننا يا مولاي لسنا أهل حرب وقتال ، فلو أرسلت معنا من الفرسان من يكفونا شر «سعدون» وجنوده و«أفراح» وعساكره عدنا لك بـ «برنوخ» ومن معه مكبلين بالأغلال وأنقذنا «قمرية» مما تعاني من أهوال ..

فقال «سيف أرعد» :

– صدقت يا «سقرديون» .. وقسماً بحق زحل لأمدنك بعدد الحصى من جنود الجيش ليعلم الناس جميعاً أن «سيف أرعد» لا يرحم أعداءه ، ولا يتهاون مع من يخرجون عليه ..

فقال «سقرديوس» :

– يا مولاي إن الجنود لا يكفون في هذه المعركة ..

فالتفت إليه «سيف أرعد» قائلاً :

– ماذا تعني .. ؟

فقال «سقرديوس» :

– إننا في حاجة للجنود للزحف على المدينة وإبادة جنود الملك «أفراح» .. أما «سعدون» فلا يلقاه إلا الفرسان ..

فقال «سيف أرعد» :

– وفي مملكتي من الفرسان من هم أشجع وأمهر من هذا العبد المارق ..

فقال «سقرديون» :

– ونحن نريد معنا أمهرهم جميعاً ..

فالتفت إليه الملك وقال :

– من تعني يا «سقرديون» ؟

فقال «سقرديون» :

– أريد يا مولاي على رأس الحملة الفارس «مهوب سابك الثلاث» والمقدم «دمنهور الوحش» ..

فقال الملك :

– «مهوب سابك الثلاث» و«دمنهور الوحش» .. نعم الاختيار ..

فقال «سقرديوس» :

– وهناك ثالث يجعل لحملتنا هيبتها ويؤكد نتيجتها ..

فقال الملك :

– من تعني يا «سقرديوس» ؟

قال «سقردبوس» :

– إنما أعني يا مولاي الفارس «ميمون» ..

فقال الملك :

– الفارس « ميمون » .. ؟ أنتم تطلبون الكثير ..

فقال « سقرديون » :

إننا نريد يا مولاي أن تكون هذه الواقعة هي الواقعة الفاصلة بيننا وبين أتباع « سيف بن ذي يزن » حتى نرتاح ..

فقال الملك :

– لكم ما طلبتم وأرسلوا في استدعاء هؤلاء الفرسان في الحال ..

* * *

أما الفارس « مهوب » فقد كان من أشهر فرسان الحبش وأبرز قواد الجنود في جيش الملك « سيف أرعد » ، وسر شهرته يرجع إلى أنه كان قد سمع أن فارساً من فرسان أبي الملك « سيف أرعد » كان اسمه « كردفان » ، اشتهر بأنه حطم حربتين بيديه المجردتين تحدياً منه لفارس آخر اسمه « الهول الصايل » كان يفتخر بقدرته على تحطيم الحربة الحديدية بيديه وحدهما ، فلما أراد الفارس « مهوب » أن يبرز تفوقه طلب من الملك « سيف أرعد » أن يحضر « كردفان » ، وكان قد أصبح عجوزاً لا يقوى على المسير .. وطلب منه أن يحضر حربتين من الحراب الحديدية التي يحطمها فأحضرها « كردفان » في محضر من الملك « سيف أرعد » وفي مجمع من الفرسان والجنود ، وأضاف إليهما « مهوب » حربة البولاد الصيني ، ثم جمع الحربات الثلاث بين يديه ومضى يضغطها في قوة جبارة حتى تحطمت الحربات وانقسمت كل حربة قسمين ، ومن يومها أصبح اسمه المشهور « مهوب سابك الثلاث » علماً على القوة والشجاعة ، وقدمه الملك « سيف أرعد » على باقي فرسانه وقواده .. وكان

هذا الفارس أحد الفرسان الذين طلبهم « سقرديوس » و« سقرديون » لحرب « برنوخ » و« سعدون » .

أما ثاني الفرسان وهو « دمنهور الوحش » فقد نشأ في الغابة وسط الحيوانات والوحوش ، وقضى طفولته لا يعرف من الحياة سوى الحيوانات يأكل منها ما يصطاده بيديه ويدافع عن نفسه ضد الكواسر والوحوش الضارية ، حتى بلغ مبلغ الفتيان فتعرض لقافلة من التجار ، فنهبها وحده ومزق خيولها بيديه وقتل كل من كان فيها ، فظن الناس أن وحشاً كاسراً قد فتك بالقافلة ، وظلت كل قافلة تسير في الطريق لا تكاد تصل إلى مكانه بالغابة حتى يفتك بها .. فاشتكى التجار للملك ، وأرسل الملك الفرسان للقضاء على هذا الوحش ، فإذ بهم يرون الوحش رأي العين عملاقاً ضخماً له قوة المردة ولا يستطيع أحد أن يثبت أمامه في قتال ، فعادوا إلى الملك بالخبر فأرسل له الملك الهدايا واسترضاه ، وعينه قائداً من قواد جنده لا يسند إليه إلا المهام الصعبة التي يعجز غيره عن قضائها ، وتحتاج إلى شجاعة فائقة وقوة خارقة .. وكان « دمنهور الوحش » هو ثاني الفرسان الذين طلبهم « سقرديوس » و« سقرديون » ..

ثالث الفرسان « ميمون » كان يطلق عليه اسم « ميمون الهجام » وهو يفوق الفارسين الآخرين في المهارة والقوة ، ولا يستطيع فارس أن يقف أمامه مهما بلغت قوته وكان يسير في ركابه عشرة من الفرسان من أمثال « دمنهور الوحش » و« سابك الثلاث » .. ولهذا فقد أرسل الملك « سيف أرعد » « سقرديوس » و« سقرديون » بنفسيهما ليبلغاه طلب الملك ، بينما أرسل الحجاب إلى الفارسين الآخرين ، وأرسل معهما خلعة سنية وعشرين جواداً ودرعاً من البولاد وعدة قتال كاملة .. وأمرهما أن يعداه بأنه سيتزوج ابنة الملك إن قضى المهمة معهم .. وكان « ميمون الهجام » لا

يركب الخيل لأن ثقل جسمه كان يقصم ظهور الخيل ، فقد كان لا يمتطي إلا ظهر فيل .. فما ان رأى الهدية وسمع حديث الحكيمين والوعد الذي قطعه الملك على نفسه حتى قال :

– ومن هو « سعدون » هذا ؟ .. قولوا للملك « سيف أرعد » إنني سأسحقه بين أصابعي ، وألا يزعج نفسه بـ « سعدون » ولا غيره .

ثم ركب على فيله ووراءه أتباعه قاصدين مدينة الملك « سيف أرعد » مدينة الدور ..

* * *

وكان يوماً حافلاً في مدينة الدور يوم وصول الفرسان الذين أرسل الملك « سيف أرعد » يستدعيهم لنصرة الملكة « قمرية » .. فقد اصطف سكان المدينة يشهدون موكب « سابك الثلاث » وهو يمتطي صهوة جواد أشهب ضخم ، وارتدى درعاً يكشف عن ذراعيه المفتولتين وعضلاته البارزة وقد أمسك بيده حرباته الثلاث ، ومضى مرفوع الرأس متجهاً نحو قصر الملك وخلفه أعوانه وجنده ، وإلى جواره يسير أحد حجاب الملك وهو الذي أرسل لاستدعائه .. وما ان وصل إلى القصر حتى ارتفع صوت الأبواق معلنة قدومه ، وفتح باب ليدخل إلى ساحته مع أتباعه وأعوانه ..

واستقبل أهالي مدينة الدور موكب الفارس « دمنهور الوحش » بالهتاف والإعجاب ، إذ دخل الموكب إلى المدينة تتقدمه مجموعة من العبيد يحملون سلاح الفارس وعدته ، ثم تلاهم حاجب الملك ، فالفارس المخيف يمتطي صهوة حصان أسود كبير الجسم بارز العضـــلات رشيق الحركة ، بينما تبعه عبدان يحملان دروعه وخوذته ، ثم كوكبة من الجند يحملون الحراب والسيوف .. وطاف الموكب بأرجاء المدينة كلها

ثم اتجه إلى قصر الملك «سيف أرعد» حيث استقبلته أصوات الأبواق تحيي مقدمه ..

ثم ارتجت المدينة كلها ، وارتفعت هتافات الأهالي بحياة زحل حين ظهر موكب الفارس «ميمون الهجام» وهو مسربل بالحديد كأنه قطعة من الليل الأسود تتحرك فوق ظهر فيل ضخم مهول ، حوله سائسان يحملان الحراب ، ووراءه عبيد يحملون الأسلحة الثقيلة والحراب الرهيبة ، ثم «سقرديوس» و«سقرديون» يمتطيان صهوة جوادين ويتبعهما مائة فارس غارقين في الدروع الحديدية ويحملون الحراب اللامعة ، ثم جمهرة من العبيد مدججين بالسلاح المصقول .. وما ان وصل موكب «ميمون الهجام» إلى باب القصر حتى وقف الموكب ، وترجل الفارس من فوق صهوة الفيل مسلماً قيادة للسائسين ، بينما وقف «ميمون الهجام» يتفرج على القصر وحديقته الغناء مذهولاً ، فاقترب منه «سقرديوس» وهو يقول :

– أتعجبك هذه الحديقة أيها الفارس ؟

قال «ميمون» الهجام :

– ما كنت أظن أن هناك مكاناً أفخم من مكاني بالغابة إلى أن رأيت هذا القصر وهذه الحديقة .. أيجلس الملك هنا .. ؟

فضحك «سقرديوس» وهو يشير إلى بناية القصر ، وقال :

– وما هذه الحديقة إلى جوار ما بالقصر من تحف وجواهر وأحجار ثمينة .؟ تعال .. سترى في القصر ما لم تره من قبل ..

وكان «ميمون» يقف عند كل قطعة أثاث يتفرج عليها ، وقد زادت دهشته واشتد عجبه و«سقرديوس» يهمس له :

– وما هذا بجوار ما ستراه في قاعة العرش . ؟ إن كل هذا يصبح لك

لو تزوجت ابنة الملك ، وسيكون هذا سهلاً عند القضاء على «سعدون» فقد وعد الملك «سيف أرعد» أن يزوجك إياها لو قضيت عليه ..

فقال «ميمون» وعيناه تلمعان :

– قلت لك اعتبر «سعدون» هذا ميتاً الآن ..

وكان «ميمون» قد وصل عند باب القاعة فإذ به يسمع صوت حاجب يعلن اسمه واسم «سقرديوس» و«سقرديون» ثم يفتح الباب على قاعة واسعة جداً يتصدرها من بعيد عرش كبير.. وتقدم مبهوتاً بما يرى من معالم الفخامة والزينة حتى وصل إلى العرش فهتف الملك «سيف أرعد» يحيي «ميمون» وهو يتأمله قائلاً :

– لقد سمعنا عنك أيها الفارس ، ولكن لم نرك قبل الآن .. مرحباً بك ..

ثم أشار إلى مقعد ضخم ليجلس «ميمون» عليه ، بينما جلس «سقرديوس» و«سقرديون» في مكانيهما .. ورأى «ميمون الهجام» في القاعة الفارسين «دمنهور الفارس» و«سابك الثلاث» وسمع الملك يقول :

– هذان أيها الفارس هما رفيقاك في هذه الحملة لإنقاذ جاريتنا «قمرية» من العبد «سعدون» والملك «أفراح» والساحر «برنوخ» .. والآن ليبدأ الطعام ..

وسرعان ما امتدت أسمطة الطعام أمام الجميع تحمل لهم من طعام القصر ما لم يعهدوه في قلاعهم ، وهرع إلى القاعة جمع من الجواري يحملن آنية الشراب مليئة بالخمر المعتقة تدور على الجالسين ..

وكان «ميمون الهجام» يجلس وإلى جواره «دمنهور الوحش» و «سابك الثلاث» وهم يأكلون ويشربون في سعادة وألفة ، بينما كان «سقرديوس» ينظر إليه ، ويقول لـ «سقرديون» :

– ما أظن «سعدون» يستطيع أن يواجه أي واحد من هؤلاء الثلاثة ..
قال «سقرديون» :
– إن أمر «سعدون» لا يهمني بعد أن رأيت «ميمون الهجام» .
إنما ما أخشاه هو «برنوخ» الساحر ..
قال «سقرديوس» :
– كان زحل معنا .. فما أظن هذا الساحر إلا كفؤاً لنا معاً .

وما كاد ينتهي من جملته حتى سمع الجميع صوتاً مهولاً ارتجت له القاعة كلها ، فذهل القوم وكفت أيديهم عن الطعام ، وإذ بكرة من نار تدور في سقف المكان ثم تنزل إلى وسط القاعة تدريجياً وعيونهم جميعاً معلقة بها إلى أن وصلت إلى أرض القاعة فتكشف عن إنسان شنيع الخلقة ، دنس الثياب ، طويل الشعر والأظافر .. وكان أول من استرد وعيه الملك «سيف أرعد» الذي صاح قائلاً :
– من أنت ومن تكون يا هذا .. ؟
فانحنى هذا الغريب أمام الملك ، وقال :
– إنني يا مولاي رسول من عند جماعتي من السحرة والكهان ..
– ومن جماعتك هؤلاء ؟
قال الغريب .
– إننا يا مولاي ثمانون ساحراً من جبل الدخان ، وكان كبيرنا مثلنا يعبد النار إلى أن أتى عندنا إنسان صغير القامة فأردنا أن نجعله قرباناً لإلهنا النار ، فدافع عنه كبيرنا وارتد عن عبادة ديننا ، وهرب معه بعد أن حاربنا وآذانا .. وقد ظللنا نبحث عنه إلى أن علمنا أنه في بلادك ، فأوفدني زملائي لكي أطلب منك يا مولاي تسليمنا هذا الآدمي القصير لنقتص منه ، وإعطاءنا «برنوخ» لنؤدبه على خروجه عن ديننا ..

وما ان سمع الملك «سيف أرعد» هذا الحديث حتى أخذه الفرح والابتسام ، وقال مبتهجاً :

– مرحى .. مرحى .. إن زحل يساعدنا وينصرنا .. إنني أيها الرسول أطلب هذين الاثنين ومن معهما حتى أعذبهم العذاب الشديد .. أما « سيف بن ذي يزن » فقد رمته أمه في مهلكة جديدة ما أظنه ينجو منها .. أما « برنوخ » فهو من سيسير هؤلاء الفرسان لقتاله هو ومن معه من فرسان ..

فصاح الرسول :

– لو أذن مولاي أعلمت رفاقي ، ونسير جميعاً لقتاله ..

فقال الملك :

– وهذا وحق زحل ما كنت أفكر فيه .. فاذهب الآن إلى رفاقك وعد بهم حتى يسيروا مع الجيش الزاحف إلى حمراء الحبش ..

وعند الفجر كان الملك « سيف أرعد » فوق جواده يودع الجيش الذي أرسله لمحاربة « سعدون » و« برنوخ » ، وكان قد سير عشرة آلاف جندي مع كل فارس من الفرسان الثلاثة ، ومعهم جميعاً « سقرديوس » و« سقرديون » .. وما ان انتهى من استعراض جنوده حتى أقبل السحرة الثمانون فانضموا إلى الجيش وساروا برفقة الحكيمين ، وقال الملك وهو يأمر بالمسير :

– حماكم زحل وحفظتكم النيران ..

وبدأ الجيش الكبير يتحرك من أمام المدينة فر « سابك الثلاث » وجنوده ثم عشرة آلاف جندي من جنود « سيف أرعد » .. وتلاه « دمنهور الوحش » وجنوده وعبيده وعشرة آلاف جندي من جنود الحبشة ، ثم « ميمون الهجام » على فيله ووراءه عبيده وجنوده وعشرة آلاف جندي ،

ثم الحكيمان « سقرديوس » و« سقرديون » ووراءهما الثمانون ساحراً بأشكالهم المخيفة المرعبة ..

وحين كان الملك يستدير بجواده عائداً إلى المدينة كان يقول لوزيره :

– ما أظن أيها الوزير إلا أن هذه هي الواقعة الفاصلة بيننا وبين هؤلاء المتمردين فسيعود هذا الجيش برأس « برنوخ » و« سعدون » و « أفراح » .. أما « سيف بن ذي يزن » فما أظننا سنسمع عنه بعد الآن ...

٢٧

الاستعداد للمعركة

ارتفع صوت بوق النذير من فوق أسوار مدينة حمراء اليمن ، رتلته ضجة الجنود يسرعون إلى أماكنهم خلف السور ، بينما هرع رسول إلى القصر يخبر «برنوخ» الساحر بأمر الجيش اللجب الذي يقبل متجهاً إلى المدينة ..

وكان «برنوخ» يجلس في قاعة العرش مع «سعدون» والملك «أفراح» حين دخل عليه الرسول مسرعاً وهو يصيح :

– جنود بعدد الحصى والرمل تقبل إلى المدينة وتحيط بسورها من كل جانب ..

فهب «سعدون» صائحاً :

– إنها جيوش «سيف أرعد» .. سأذهب لأعد فرساني للقتال ..

فقال «برنوخ» :

– مهلاً يا «سعدون» . انتظر حتى نعرف أمر عدونا ..

ثم التفت إلى الملك «أفراح» قائلاً :

– أغلق أبواب المدينة ، وأقم الحراس على سورها ، وتفقد تحصيناتها ، فالليل قد أقبل وما أظن أنهم سيهاجموننا الليلة وهم متعبون من طول السفر ..

فقال «سعدون» :

– وما هذا الانتظار ؟ .. إننا نستطيع أن نبيدهم وهم متعبون فننتهي منهم قبل طلوع النهار ..

فقال «برنوخ» :

– إن قلبي يحدثني أن هذه ليست غزوة عادية ، فاصبر حتى أكشف خبرهم .. ونلتقي هنا بعد حين ..

كان الملك «أفراح» قد تفقد أبواب المدينة واطمأن عليها ، ورتب الحراس على الجدران ، وأمرهم بالسهر على الحراسة في نوبات .. ثم عاد إلى قاعة العرش حيث التقى بـ «سعدون» وقد أخذ أهبته للقتال ، وأمر فرسانه بالاستعداد .. وما هي إلا لحظات حتى أقبل عليهما «برنوخ» قائلاً :

– لقد أرسل لنا «سيف أرعد» ثلاثة من أشهر فرسانه ومع كل منهم عشرة آلاف جندي ، كما جاء السحرة الثمانون يريدون قتالي مع «سقرديوس» و«سقرديون» .. وما أحسب إلا أن هذه واقعة عسيرة تحتاج منا إلى استعداد وجلد ورحمة من الله وعون ..

قال «سعدون» :

– أما الفرسان فأنا لهم ..

وقال الملك «أفراح» :

– إن جنودي سيستبسلون أمام هذا العدد الكبير من جيوش «سيف أرعد» ..

فقال «برنوخ» :

– أما معركتي أنا مع السحرة فهي معركة يأس ، فهم ثمانون وأنا فرد واحد .. ولكن الله يحمي جنده ، وما أظنه سيخذلنا ..

فقال الملك «أفراح» :

– أرى أن يقصد كل منا إلى مخدعه ليستريح حتى نستطيع أن نواجههم في الغد .

• • •

خرج «ميمون الهجام» من خيمته قبل بزوغ الشمس ، ووقف يتطلع إلى أسوار المدينة تبدو من بعيد ، وهو يرسم في ذهنه صورة لهجومه عليها وتحطيمه لحصونها وتمزيقه لأوصال أعداء الملك «سيف أرعد» .. وسمع «ميمون» صوتاً إلى جواره ، فالتفت حوله ليرى «سقرديوس» و «سقريون» يقبلان معاً ، فقال لهما :

– أنتما مبكران في الاستيقاظ أيها الحكيمان القديران ..

فقال «سقرديوس» :

– كنا في طريقنا لإيقاظك بعد أن أيقظنا الفارسين «دمنهور الوحش» و«سابك الثلاث» ..

وقال «سقرديون» :

– الوقت فيما نرى ملائم لبدء الهجوم حتى نأخذ العدو على غرة قبل أن تكتمل يقظة جنوده ويستعد للقائنا ..

ففرك «ميمون الهجام» كفيه وهو يقول :

– هذا صواب .. هيا بنا إذن لننتهي ، قبل اشتداد الشمس ، من أمر هؤلاء العصاة ..

• • •

وما ان صدر الأمر بالاستعداد حتى انقلب المعسكر الهادئ إلى ميدان صاخب يموج بالحركة ويعج بالنشاط ، وأصوات صهيل الخيل ونداءات قواد الجنود تعكر صفو الساعات الأخيرة من الليل ، وما هي

إلا ساعة حتى أخذ الجيش أهبته واستعد للزحف ، وقد ركب كل فارس على رأس جنده .. وكان «ميمون الهجام» في المقدمة ، وهو فوق فيله كأنه قلعة متحركة وإلى جواره «سقرديوس» و«سقرديون» كل على فرس ضخم .. ورفع «ميمون» سيفه في يده ولوح به في الهواء مرتين ، ثم صاح معلناً بدء الهجوم .. واندفع فيله كأنه القضاء يتقدم الجيش الزاحف ، ووراءه الفرسان تردد صيحات الحرب وتندفع كلها كالسيلْ نحـــو المدينة ..

قال «سقرديوس» لـ «سقرديون» وهما يتبعان فيل «ميمون الهجام» .

– أليس عجباً ألا يستيقظ هؤلاء الكلاب بعد كل هذه الضجة ؟ !

فقال «سقرديون» .

– حقاً لست أرى بادرة حياة فوق الأسوار ..

ثم سكت لحظة وهو يقول :

– لعلهم خافوا فهجروها خلال الليل ..

ولم يتم كلمته حتى ارتفع صوت «ميمون الهجام» كالرعد يأمر الجيش بالوقوف .. بينما أخذ يكبح جماح فيله المندفع حتى أوقفه تماماً ، وارتفعت النداءات من القواد لجنودهم بالوقوف ، بينما أسرع «دمنهور الوحش» و«سابك الثلاث» نحو المقدمة ليعرفا ما الذي استدعى هذا هذا الأمر بالتوقف ، وحين وصلا كان «ميمون» يخاطب «سقرديوس» و«سقرديون» قائلاً :

– لم يكن بالأمس شيء في هذا المكان سوى الصحراء فمن أين جاء البحر ، ومتى سارت تلك القوارب .. ؟ !

والتفت الفارسان فإذا بهما يريان بحراً عجاجاً متلاطم الأمواج يفصل بينهم وبين المدينة ، والبحر مليء بالقوارب والمراكب الكبيرة تسير

ناشرة قلوعها ، فأخذهما الذهول وتملكهما العجب .. وقال «دمنهور الوحش» :

- هذا أعجب ما شهدت في حياتي ..

فقال «سابك الثلاث» :

- سيعوقنا هذا البحر العجيب عن الوصول إلى المدينة ..

وسمعا «سقرديون» يقول :

- وحق زحل في علاه ما هذا إلا من أفعال «برنوخ» الساحر .. ونحن نعلم أنه قادر على هذا وعلى غيره ...

فقال «ميمون» :

- وماذا سنفعل الآن أيها الحكيمان ، وليست لدينا قوارب ننقل عليها الجنود .... !

فقال «سقرديوس» :

- نحن معنا ثمانون ساحراً ونحن اثنان تخصصنا في علوم الحكمة فما يعجزنا «برنوخ» .. اعتقد أن الجولة الأولى ليست لكم أيها الفرسان ، فأعيدوا جنودكم إلى المخيم حتى نرى لنا نحن والسحرة حلاً في هذه المشكلة ..

قال «سقرديون» للسحرة وهم وقوف أمام البحر :

- أمامنا مشكلتان ، أولاهما هذا البحر الذي يحول بين الجنود وبين أسوار المدينة .. والثانية هي الظلمة التي تسيطر على قصر «قمرية» فتمنعها من الحركة ومن معونتنا .. فاختاروا أي المشكلتين تحبون ، واتركوا لنا أنا وأخي «سقرديوس» حل الثانية .

فقال كبير السحرة :

- اتركا لنا مشكلة الظلمة ، ولكما مشكلة البحر ..

ففقال «سقرديوس» :
- حسناً .. ليقصد كل منا إذن إلى بيت أرصاده لنبدأ العمل على الفور ..

° ° °

عند غروب الشمس التقى السحرة الثمانون في حلقة وقد أشعلوا ناراً كبيرة ، ووقفوا يتلون صلاتهم ، ثم سجدوا للنار فترة طويلة ، وعندما وقفوا أخيراً كان كبيرهم يحمل في يده ورقة بيضاء قد نقشت عليها طلاسم وأسماء سريانية .. وأمسك بالورقة بين يديه ، ثم أخذ السحرة يهمهمون بلغة غريبة .. وسرعان ما ارتفعت الورقة في الهواء متجهة إلى المدينة ، وظلت في طيرانها حتى وصلت إلى أعلى قصر «قمرية» فاتسعت حتى أصبحت بحجمه وغطته تماماً ، وما زالت تتسع حتى أصبحت دائرة كبيرة ، ثم أخذت تنزل تدريجياً والظلمة تحتها حتى وصلت إلى الأرض ، فلم يبق من الظلمة شيء في القصر . وانكشفت الغمة عن «قمرية» ..

أما «سقرديوس» و«سقرديون» فقد اصطنعا بالحكمة أربع مواسير من الرصاص والقصدير ، ورسما عليها أسماء وطلاسم كدبيب النمل .. النمل .. وسارا بها إلى البحر ، ووضعا ماسورة عند كل زاوية من زواياه .. ثم جلسا يتلوان العزائم .. وإذ بتلك المواسير قد انفتحت حلوقها كالخلجان والماء ينزل فيها يدوي كالرعد ، وأخذت المراكب تتجمع وتدخل إلى داخل هذه المواسير مع اندفاع الماء ، وما هي إلا ساعات حتى امتصت المواسير آخر قطرة من الماء ، وظهرت الصحراء تحيط بالمدينة من كل جانب ، بينما ارتفعت صيحات الفوز والفرحة من صفوف جنود «سيف أرعد» الذين أخذوا يرقصون ويهتفون ويهللون .

كان «برنوخ» يرقب زوال البحر الذي صنعه بالحكمة في غيظ وغضب وهو يقول من بين أسنانه :

- لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .. لو علمت أنهم قادرون على إزالة البحر والظلمة لأحكمت غيرهما ..

فقال «سعدون» :

- يا أخي «برنوخ» دعك من الغضب ، وإن كان سحرك قد بطل فسيفي لم يبطل .. وأحسب أوان القتال قد حان ..

وأسرع «سعدون» يسدل دروعه ، ويقفز فوق حصانه وهو يصيح صيحة الحرب ويلوح بحربته بيده ، وتبعه رجاله على خيولهم وهم يصيحون صيحات عالية .. وما لبث الملك «أفراح» أن امتطى صهوة جواده ولوح بسيفه في الهواء مصدراً الأمر بالتقدم ، فتبعه باقي جنوده في نظام واتساق ..

وصاح «سعدون» بحراس الباب ففتحوا أبواب المدينة ليتدفق «سعدون» وفرسانه إلى خارجها ، ووراءه «أفراح» وجنده مدججون بالسلاح والعدة ومستعدون للحرب والقتال ..

واصطف الجنود وظهورهم لسور المدينة في نصف دائرة ، وقف في وسطها «سعدون» ووراءه «برنوخ» والملك «أفراح» يواجهون جنود الملك «سيف أرعد» .. وتقدم «سعدون» بجواده حتى غدا في وسط الميدان وهو يصيح :

- أنا «سعدون» قاهر الأبطال ومبيد الفرسان .. أنا منكس أعلام «سيف أرعد» وقاتل جنوده .. من منكم سيكون طعام سيفي وغذاء سنان رمحي ! ..

وساد الصمت ميدان القتال ، فما كنت تسمع صوتاً أو تلحظ حساً .. فعاد «سعدون» يقول :

- أنتم كباش أرسلها «سيف أرعد» لأذبحها أمام حمراء اليمن ، فرحباً بالضحايا والذبائح .. مرحباً بكم فأنا جزار الجبناء .. أنا «سعدون».

وسرعان ما ارتفع صوت جهير من صفوف الأحباش يصيح :

- اخسأ أيها العبد الزنيم .. ما «سعدون» بين الفرسان ... وما قدره بين الأبطال . ؟!

وانفرجت صفوف جيوش «سيف أرعد» عن فيل «ميمون» يبرز إلى وسط الميدان وفوقه «ميمون الهجام» يلوح بحربته في يده وهو يصيح :

- أنا «ميمون الهجام» أعظم الفرسان .. أنا ممزق الأجسام محطم الجماجم مدمر التروس والحديد ..

فقال «سعدون» :

- ويحك يا «ميمون» أتحاربني وأنت على ظهر فيل .. عد إليّ على ظهر جواد فنتقاتل فارساً لفارس ، أما احتماؤك وراء فيل فهذا فعل صبيان ..

فقال «ميمون» :

- أتريد الحرب أم تريد الكلام ! ؟ ..

فصاح به «سعدون» وفرسه يدور حول الفيل :

- إذن فسأقذف بحربتي في عين الفيل لتسقط عنه وأجهز عليك .. وما هذا فعل الفرسان أن يقتلوا الحيوانات قبل مبارزة الفرسان .

وما أتم «سعدون» كلامه حتى كان «سقرديون» قد اقترب من فيل «ميمون الهجام» وهو يقول :

– لسنا نريد حرباً هذا النهار ، فلتعد يا سيدي الفارس ولنا في الغد جولة ..

فقال «ميمون» :

– أتريد أن أعود من أمامه دون أن أجزر رأسه ...

فقال «سقرديون» :

– بل لنفكر في أمر هذه المشكلة التي أثارها «سعدون» ولنستعد للقاء الفاصل غداً ..

ثم التفت إلى «سعدون» وقال :

– ماذا قلت يا «سعدون» ؟

فقال «سعدون» :

– الآن أو غداً عندي سيان ، فليعد لي في الغد على ظهر جواد ..

ولم يرد «ميمون» وإنما لوى عنان فيله ، وعاد إلى صفوف جيش الملك «سيف أرعد» وهو يغلي من الغضب ، وما أن وصل إلى مكانه حتى قال لـ «سقرديون» :

– ما هذه الفعال أيها الحكيم .

فقال «سقرديون» ليهدئ من ثائرة «ميمون» :

– إنني منعتك من قتله لحكمة ، فلو أنك قاتلته فقتلته لقال الفرسان وأي فضل لـ «ميمون» فكلنا نستطيع أن نقتل «سعدون» ..ولكني أرى أن لا تبرز إليه حتى يبرز إليه الفرسان فيعرفوا قدره فإذا ما قتلته عرف الناس مكانك بين الفرسان ! ..

فابتسم «ميمون الهجام» وهو يقول :

– إذن وحق زحل لن أنزل إليه إلا بعد أن يفنى جنبدكم وعساكركم ، ويهلك فرسانكم .

فقال « سقرديون » وقد أحس بغضب « ميمون » .

- لم أكن أظن أن هذا يغضبك .

فرد عليه « ميمون » وهو ينزل من على ظهر فيله ويتجه إلى خيمته :

- لقد جئنا لنقضي على المتمردين من أعداء الملك « سيف أرعد » لا لنستعرض بطولاتنا ، وكنت أريد أن ننتهي لنعود إلى ديارنا .. ولكن ما دمت منعتني من قتله فلن ألقاه إلا بعد أن يهلك من أتيت بهم معك من فرسان ..

٢٨

المعركة الفاصلة

في الصباح التالي اصطف الجيشان أحدهما أمام الآخر ، وخرج «سعدون» إلى وسط الميدان وهو ينادي :

– يا جنود «سيف أرعد» .. أردتم الحرب اليوم لا أمس فأطلتم في آجالكم يوماً .. أما اليوم فلا بد من القتال فابرزوا لأن أبواب جهنم في انتظار أرواحكم النجسة ...

وما أتم «سعدون» كلامه حتى خرج له من بين صفوف الأحباش فارس ضخم الجثة كامل العدة وقد شرع في يده حربته ، ومال برأسه على عنق جواده ، وقد اندفع بفرسه في سرعة مجنونة نحو صدر «سعدون» .. فتلقى «سعدون» ضربة الرمح على درقته ثم مال بفرسه ورفع حربته يكر على خصمه ، وطال بين الاثنين الكر والفر إلى أن أحس «سعدون» بضربات غريمه قد وهنت ، فبعد عنه بفرسه ثم عاد إليه مشرعاً رمحه في ضربة قاتلة اخترقت دروعه ونفذت من صدره ليخرج سنان الرمح من ظهره ، وتمايل الفارس الصريع فوق فرسه ثم سقط إلى الأرض مضرجاً بدمائه ، وارتفعت الهتافات من بين صفوف جند الملك «أفراح» .. بينما اندفع فارس آخر مشرعاً رمحه من صفوف جيش «سيف أرعد» متجهاً إلى «سعدون» ، وارتفعت أصوات التحذير تنبه إلى عدوه الغادر الذي يريد أن يطعنه في ظهره ، فسل «سعدون» سيفه

واستدار في جلسته فوق الحصان وانتظر غريمه حتى قرب منه فأطار من يده الحربة بضربة قوية من سيفه ، أتبعها بضربة أخرى أطارت رأسه من فوق جسده الذي ظل يترنح فوق الفرس المندفع فترة قبل أن يسقط الفارس سقطته الأخيرة إلى الأرض ..

وما أن اعتدل «سعدون» فوق سرج حصانه حتى رأى فارساً آخر يخرج من بين صفوف الأحباش مشرعاً رمحه ومتجهاً بكل سرعة جواده نحوه ، فأسرع تجاهه يتلقاه بقلب لا يعرف الخوف وعزم لا يلين ..

وظلت المعركة قائمة طول النهار و«سعدون» يتلقى الفارس إثر الفارس ، يصرع هذا بالحربة وذلك بالسيف ، وهو وحده وسط الميدان يزأر كالأسد ويصول كالهول ، ويواجه الحراب والسيوف بابتسامة المرحب بالموت الواثق من النصر ، إلى أن انقضى النهار وقد جندل من فرسان «سيف أرعد» الكثيرين وأسر آخرين ، وما ان بدأت الشمس في المغيب حتى أمر «سقرديوس» بدق طبول الانفصال معلناً نهاية الحرب في هذا اليوم .. فعاد «سعدون» إلى خيامه بين تهليل عساكره وفرح فرسانه ، وتلقاه الملك «أفراح» بالعناق .. بينما هنأه «برنوخ» الساحر قائلاً :

– لا شلت يدك أيها الفارس .. لقد كان قلبي معك في كل ضربة من ضربات سيفك ، وكان قلبي عليك عند كل طعنة توجه إليك .. وقد صنعت لك هذه «الطاقية» لتلبسها فلا يصيبك جرح ولا يصل إليك سيف .

فقال «سعدون» :

– إن الله خير حافظ ، وقد توكلت على من لا تراه العيون .. وهو يحميني بلا سحر ولا حكمة ..

فقال الملك «أفراح» :

- أرى يا مقدم «سعدون» أن أبرز إليهم غداً ، فتتولى عنك القتال وتستريح أنت ..

- إن أنصفونا وبارزونا فأنا كفء لهم .. ولكم أتمنى أن التقي في الميدان بفارسهم «ميمون الهجام» فإني طامع فيه وفي دخوله دين الإسلام .. أما إن تكاثروا علينا فاحموا خلفي ، والله ينصر من يشاء .

* * *

حين عاد جيش «سيف أرعد» إلى الخيام ، صاح «ميمون الهجام» بـ «سقرديوس» و«سقرديون» .

- أهذا ما تريان من رأي أيها الحكيمان .. أن يقف فارس واحد وسط الميدان يتحدى أبطالنا فلا يبرز إليه إلا كل من هو لقمة سائغة وغنيمة باردة ، يزيد بها من هيبته ويعلي من فروسيته ويبرز شجاعته وقوته ..

وقال «دمنهور الوحش» :

- إن إصرار الحكيمين على تأخيرنا عن ملاقاة «سعدون» معناه الحط من قيمتنا ..

فقال «سقرديوس» ملاطفاً :

- بل ما أردت إلا أن يبرز فضلكم ويزيد قدركم عندما تحققون النصر عليه ..

فضحك «سابك الثلاث» وقال :

- قل إنك لا تريد لنا فضلاً ، وتأمل أن يقتل «سعدون» بيد أحد الفرسان العاديين لتفوز أنت وأخوك بشرف النصر ، ولا يصبح لوجودنا مع الجيش مبرر ..

فقال «سقرديون» :

– كيف يجول بذهنك هذا الظن يا سيدي الفارس ، إن المسألة ..

فصاح به «ميمون الهجام» :

– المسألة أنك أنت وأخاك تتحكمان في تحركات الجيش بغير فهم مما يعوق النصر ويلحق بنا الهزيمة ..

وتبعه «دمنهور الوحش» قائلاً في حدة :

– إن القيادة في الحرب يجب أن تكون لرجال الحرب لا للسحرة .

وفي هدوء قال «سابك الثلاث» :

– وهل ننتظر اذناً من السيدين الحكيمين الفاضلين لنتولى القيادة ، لقد كلفنا «سيف أرعد» بالقضاء على «سعدون» و«برنوخ» و«أفراح» ، ولهذا جئنا ...

فصاح «ميمون الهجام» :

– وهذا ما سنفعل في الغد ..

فعاد «سقرديوس» يقول في استعطاف :

– حسناً ، حسناً .. أيها الفرسان الأماجد .. لا بأس .. وليكن الغد هو موعد المعركة الفاصلة فنهجم عليهم هجمة واحدة بكل جنودنا وفرساننا ..

وقال «سقرديون» منهياً النقاش الذي احتدم :

– لتكن الحملة غداً وليتقدم الفرسان الصفوف لتثبت قلوب رجالنا ، وليبثوا الرعب في قلوب أعدائنا ..

° ° °

قبل أن تبدو تباشير صباح اليوم التالي ، كانت المعركة قد بدأت بالفعل بين فصائل المقدمة في الجيشين ، وكان صليل السيوف وصوت

اندفاع الخيل هنا وهناك يحيل سكون الصباح إلى ضجة ما لبثت أن اشتدت عندما تقدم «ميمون الهجام» وإلى جواره «سابك الثلاث» و «دمنهور الوحش» على رأس فرسانهم ، وقد دقت الطبول وارتفع صوت الأبواق في نفير الهجوم .. وإثر صيحة مدوية من «ميمون الهجام» اندفع الجيش كله كالسيل العارم ناحية المدينة .. وهناك تلقاه سد منيع من فرسان «سيف بن ذي يزن» على رأسهم «سعدون» وإلى جواره الملك «أفراح» و«برنوخ» الساحر .. ودارت المعركة الرهيبة التي طال توقعها أياماً طويلة ..

وكأنما كان الانتظار قد أهاج لهفة الجيشين إلى الحرب والصدام ، إذ اندفع كل من الجيشين نحو الآخر اندفاع الفناء والموت ، وشهدت شمس اليوم الجديد رؤوساً تطير في كل اتجاه ، وسمعت نسمات الصباح أنات الألم وحشرجات الاحتضار من كل جانب ، بينما لمعت وسط غبار المعركة أسنة الرماح وهي ترتفع وتهوي في كل جانب تصدها مرة دروع قوية وتجد طريقها مرات نحو الأجساد فتمزقها وتحيلها إلى أشلاء وبقايا ..

وكان «ميمون الهجام» فوق فيله يشق طريقه وسط الجنود شقاً وحربته الرهيبة لا تعرف طريقها إلا إلى الصدور فتمزقها رغم الدروع .. وكان الجنود يهرعون من أمامه هاربين وقد أحسوا بخطره وعرفوا قدره وهابوا ضرباته ..

وكان «دمنهور الوحش» و«سابك الثلاث» يحمل كل منهما على مجموعة من الفرسان بمفرده ، فيفرق جمعهم ويحبط ضرباتهم ويصيب منهم مقتلاً مع كل طعنة ، ويجندل قتيلاً مع كل ضربة ..

أما «سعدون» فقد أندفع كالمجنون يضرب بالرمح وبالسيف

فيقتل ويقتل ، ويكر فوق فرسه ويفر في هجمات متتاليات تحدث وسط جمع المتقاتلين دوامات من حركة الجند نحوه في الدفاع ، ثم من حوله في تراجع وإدبار .. وإلى جواره «برنوخ» يرقبه من مكر السحرة ويحميه من حيلهم ومكرهم ..

وزاد العدد على جند «سيف بن ذي يزن» فأخذوا يتراجعون في بطء شديد ، وهم يقتلون من أعدائهم مع كل خطوة العدد الكثير .. ونسي الجميع النهار والليل إلا «سقرديوس» الذي حجز جزءاً كبيراً من جند الحبشة وراء الخيام ، فلما أوشك الليل أن يجيء أصدر الإشارة فاندفع هـؤلاء إلى الميـدان وهـم مستريحـون لم يرهقهـم طـول الحرب على مر النهار ، فزاد تراجع جند الملك «أفراح» أمام هذا الهول الجديد وقد أخذ التعب منهم كل مأخذ ، وبدأ الرجال يتساقطون من الإجهاد والعناء .. ونظر «سعدون» حوله وقد راعه الأمر وأحس أن كفة المعركة تميل نحو أعدائه فزاد من حدة ضرباته ، وأخذ يصيح في جنوده وهو يتحرك إلى كل مكان يحس في فرسانه التقصير فيه ليشجعهم ويبث فيهم الأمل والشجاعة ..

وأخيراً بدأت الشمس في المغيب فرفع «ميمون الهجام» يده لتدق طبول انفصال إلا أن «سقرديوس» اندفع نحوه قائلاً :

– ماذا بك أيها الفارس ؟ هل أصابك التعب ؟ إن جند المسلمين قد أوشكوا على الهزيمة ، وهذه ساعة نصر زحل ، فهيا نهجم عليهم هجمة صادقة واحدة لنلقي الذعر في قلوبهم وننهي المعركة ..

فقال «ميمون» :

– ما هذه شرعة القتال في عرف الفرسان .

فصاح «سقرديوس» :

- بل هذه شرعة النصر عند الحكماء ..

وصاح في جند الأحباش منادياً بالهجوم ، فتبعه الجيش كله في هجمة مرعبة رهيبة وقد أحس جند الأحباش أنهم باتوا قاب قوسين أو أدنى من النصر ..

وأخذ الجنود في صفوف «سعدون» يتساقطون تحت ضربات خصومهم الذين أصبحوا يفوقونهم في العدد ، ونصفهم ما يزال نشيطاً لم يضعفه طول القتال .. ولوح الملك «أفراح» بسيفه وهو يتراجع ، وتبعه جنوده حتى ألصقوا ظهورهم بسور المدينة ، ومضوا يقاتلون قتال اليائس الذي لا يريد أن يفرط في حياته إلا بأفدح الأثمان .. وصاح «برنوخ» في «سعدون» وسط ضجة المعركة :

- عد بفرسانك إلى سور المدينة حتى لا يحيط بك الأعداء ..

فقال «سعدون» وهو يهشم رأس فارس حبشي بصفحة سيفه :

- لم يبق إلا القتال حتى الموت ..

وأشار «سعدون» بسيفه وهو يحس بمرارة في حلقه ، وأخذ يتراجع هو وفرسانه إلى حيث وقف «أفراح» بجنوده .. وقال لـ «برنوخ» :

- لقد كسرونا بكثرة العدد ..

فقال «برنوخ» :

- إنهم لم ينتصروا بعد .. حاذر ..

ورد «سعدون» بدرقته ضربة رمح من فارس حبشي ، ثم رفع ليجتز رأسه بكل ما في نفسه من حنق ، ولوى عنان فرسه ثم اندفع نحو كوكبة من الفرسان الأحباش أحاطت ببعض الجنود فمزقهم تمزيقاً .. كانت ضرباته مفاجئة وعنيفة ويائسة ، وتراجع الفرسان إلى الوراء قليلاً

حتى انضم إليهم ضعف عددهم ثم اندفعوا نحوه في جنون وحشي يغذيه النصر القريب الذي بدت تباشيره واضحة .

ظل «سعدون» يقاتل الفرسان في عنف وهو يتراجع خطوة خطوة حتى لحق به رجاله ، فاشتركوا معه في المعركة إلا أن الكلمة كانت قد سرت بين فرسان الحبش بمكان «سعدون» فأسرعوا جميعاً نحوه ، وقد أرادوا أن يشاركوا في مجد قتل هذا الفارس الذي دوخهم وأذل أبطالهم وجندل فرسانهم ..

وكان «سعدون» وهو يقاتل يحس بيأس من يعرف مقدماً نتيجة هذه المعركة اليائسة ، فقد انفصل تماماً عن جند الملك «أفراح» الذين اشتغلوا بمن يهاجمونهم من فرسان الأحباش وجنودهم .. وأخذ رجاله يتساقطون حوله وقد تزايد عليهم الهجوم ، وضرباته الصاعقة تقتل فارساً ليحل محله أكثر من فارس .. وكأن الأرض تنبت جنوداً بسرعة شيطانية . وكانت همهمات «برنوخ» المشجعة تأتيه من يمينه وكأنها صادرة من جب عميق تحيط بها صرخات وضحكات وضربات وصليل سيوف .. وبدأت عيناه تغيمان وهو يرفع درقته يصد ضربات متلاحقة تأتي من كل مكان حين وصله صوت «برنوخ» كالهمس يقول :

– أنظر غبرة من عند الأفق ..

فضغط «سعدون» أسنانه في حنق ، وهو يقول :

– أنجدة أخرى لهؤلاء اللئام ؟ .. أما يكفيهم ما نالنا منهم ...

فقال «برنوخ» وفي صوته رنة اضطراب :

– بل إنهم في حيرة من أمرهم لا يدرون شيئاً عن القادمين ..

وأحس «سعدون» أن العدو من حوله قد قل ، وأن الفرسان يتراجعون في حذر وقد شابت حركاتهم سمات القلق ..

ثم فجأة انبعثت صيحات فرح من صفوف الملك «أفراح» ، واندفع فجأة بكل جنوده في هجمة كالسيل ، والأحباش يتراجعون من أمامه في سرعة ، بينما انكشفت الغبرة عن جيش كالسيل يتقدمه فارسان يلوحان بسيفهما ويصيحان في أصوات كالرعد ، وتبين «سعدون» وجه الملك «سيف بن ذي يزن» ووجه الملك «أبي تاج» ، فصاح :

– هذا سيد فرسان اليمن الملك «سيف بن ذي يزن» .. إلى الأمام يا أبطال الإسلام ..

واندفع كالهول الصاعق ووراءه فرسانه إلى صفوف الأحباش الذين تغير موقفهم من الهجوم إلى الدفاع ، وسرعان ما أطبق عليهم الملك «سيف بن ذي يزن» والملك «أبو تاج» على رأس جيشهما اللجب يذيقونهم مرارة الحرب المستمرة الأوار والعدد المتزايد وحمية الجند المستريحين المشتاقين إلى المشاركة في القتال ..

وأخذ «سعدون» يشق طريقه وسط المقاتلين حتى وصل إلى الملك «سيف بن ذي يزن» وهو يطعن برمحه في كل اتجاه فقفز إلى الأرض ، وقبل ركاب الملك «سيف» وهو يقول :

– حمداً لله على سلامتك ، لقد أرسلك الله في الوقت المناسب ..

فقال «سيف» :

– اركب يا «سعدون» وعد أنت وجنودك وسنتولى عنكم القتال ..

فقفز «سعدون» إلى سرج جواده وهو يقول :

– بل لا عودة حتى ينكسر هؤلاء اللئام ..

واشتد الظلام ولهيب المعركة يشتد حدة ، وصرخات الجنود والفرسان تعكر صفوه ، وهجمات المسلمين تشتد موجة إثر موجة ، وجيوش

الأحباش تتراجع حتى وصلوا إلى خيامهم ، فأمر «سقرديوس» بدق طبول الانفصال ..

وعندما سمع «سعدون» الطبول صاح :

– بل هي الواقعة الفاصلة ...

فقال «سيف» :

– كلا يا سعدون» فما هذه آداب الحروب ..

فقال «سعدون» وهو يدور بفرسه في حنق :

– ولكنهم لم يحترموها عندما أحسوا بقتلنا وكثرتهم ..

فقال «سيف» وهو يشير إلى الجنود بالتراجع :

– لسنا مثلهم .. ثم نحن جميعاً في حاجة إلى الراحة .. وموعدنا معهم الغد ...

° ° °

كان لقاء الملك «سيف» في مدينته لقاء حافلاً ، فظلت المدينة تتلألأ بالأنوار وتصدح فيها ضحكات السعادة والبشر وكأن المدينة غير محاصرة ، وكأن جند المدينة قد اطمأنوا إلى النصر ، وما عادوا يبالون بالعدو مهما كثر عدده وعظم قدر فرسانه وجنده .. وأمر الملك «سيف» فأفرد الحجاب جناحاً في القصر للملكة «منية النفوس» التي كانت تصحبه مع جيش الملك «أبي تاج» ، كما أمر بنحر الذبائح وإقامة الولائم وإطعام كل أهل المدينة ..

وكان «سقرديوس» و«سقرديون» يرقبان الأنوار تسطع في المدينة ، وهما واقفان عند خيام جيش «سيف أرعد» في قلق وحيرة ، وقال «سقرديوس» :

– كنا نظن أن هذا الملعون «سيف بن ذي يزن» قد مات وانقضى ..

فقال «سقرديون» :

– لقد ضايقنا «سعدون» وأضجر فرساننا ، وها قد أتى «سيف» ليزيد الأمر سوءاً ..

فجاءهما صوت «سابك الثلاث» وهو يتقدم في الظلام بصحبة «دمنهور الوحش» و«ميمون الهجام» ويقول :

– وما «سيف» هذا ؟ .. ما هو إلا فارس أبيض ، ولو تعرض لي مائة من الفرسان أمثاله لما اهتزت في رأسي شعرة ...

فقال «سقرديوس» :

– أيدك زحل بقوته وجبروته ، وجعل النصر في سنان سيفك ..

فقال «دمنهور الوحش» :

– لم يعد تفوقنا العددي ذا قيمة الآن ، فالأمر في رأيي تحسمه المبارزة بالرماح والسيوف ..

فضرب «ميمون الهجام» الأرض بقدمه ، وهو يقول :

– لو كنت انتهيت من «سعدون» من أول يوم لانكسر جيش المدينة ، واستولينا عليها قبل قدوم الفارس الجديد .. ولكنها مشورة السيدين «سقرديوس» و«سقرديون» ..

فقال «سقرديوس» :

– إن ما فات قد فات .. وهذه شرعة الحرب ، يوم لك ويوم عليك ..

فقال «سابك الثلاث» :

– سوف أبرز في الغد لهذا الفارس الأبيض لننتهي من أمره فينتهي أمر جيشه ..

فقال «دمنهور الوحش» :

- بل سأبرز له أنا ..

فقال «ميمون الهجام» :

- لا أنت ولا هو ، لن يبرز له إلا أنا ..

فقال «سقرديون» :

- مهلاً أيها الفرسان لا داعي لكل هذه المجادلة .. لنحتكم إلى القرعة ، ومن فاز بها برز له غداً ، وأراحنا منه ..

وضرب «سقرديوس» بينهم القرعة فخرجت على «سابك الثلاث» فاستقر الأمر أن يبرز هو إلى الملك «سيف» عند الصباح ، وقصد كل منهم إلى خيمته في انتظار معركة الغد ..

° ° °

وما أن اصطف الجيشان في الصباح حتى برز الملك «سيف بن ذي يزن» فوق جواده ، فصال وجال وهو يشير برمحه ، وظل يدور وسط الميدان وهو يصيح :

- يا فرسان الحبش ، هذا «سيف بن ذي يزن» صاحب مدينة حمراء اليمن ، ومبيد أهل الكفر والمحن .. هل فيكم من يبرز لقتالي ؟ . أين فرسانكم ؟ .. أين أبطالكم ؟ ..

ولم يكمل الملك «سيف» جملته حتى اندفع إليه «سابك الثلاث» وقد تكوم فوق حصانه ، وشرع في يده حربته وقد أطلق حصانه بكل سرعته ، وهو يريد أن يزلزل الملك «سيف» من فوق جواده بصدمته القوية ، إلا أن الملك «سيف» استدار فوق جواده ، وتلقى الضربة فوق درقته ، ورفع رمحه ليطعن بها «سابك الثلاث» طعنة قاتلة .. فراغ منها «سابك الثلاث» في مهارة ، واستدار بجواده ليعود فيصدم الملك «سيف» بحربته ، فاستعد له الملك «سيف» واندفع نحوه مشرعاً حربته .

وكان للقاء الفارسين صوت يصم الآذان ، إذ تحطمت الحربتان على الدرقتين ولم يهتز أي من الفارسين من فوق جواده ، وامتشق « سيف » حسامه واستل « سابك الثلاث » سيفه ، وبدأت مبارزة رهيبة بين الفارسين الجبارين ، وثار الغبار حولهما وانعقد ، وكل منهما يروغ من طعنات خصمه ، ويكيل له مثلها في قوة وقسوة .. بينما تعلقت بهما أبصار الفرسان من الجانبين ..

وقال « برنوخ » الساحر لـ « سعدون » وهو يرقب المبارزة ، وقد وقف بجواده إلى جواره :

ـ إن « سابك الثلاث » هذا فارس شديد ..

فقال « سعدون » :

ـ ولكنه ليس من أنداد الملك « سيف » وسترى صدق ما أقول .

ولم يتم « سعدون » كلامه حتى علت صيحة من وسط الغبرة الثائرة ، واندفع منها « سابك الثلاث » بجواده مبتعدا وقد طار السيف من يده إثر ضربة حاذقة من حسام الملك « سيف » ، وتبعه الملك « سيف » ملوحاً بحسامه ، فوقف « سابك الثلاث » منتزعاً حربته الثانية من قرابها ، واندفع نحو الملك « سيف » بكل قوته ، وحاد الملك « سيف » عن الطعنة وضرب حربة « سابك الثلاث » فانكسرت ، إلا أن حسامه سقط من يده من عظم الضربة وقوتها.. واستدار « سابك الثلاث » بسرعة مخرجاً حربته الثالثة ورافعاً إياها لينزل بها في قوة نحو صدر الملك « سيف » وقد حسبه قد أصبح عاجز الحيلة بعد أن تحطمت حربته ووقع سيفه ، إلا أن الملك « سيف » استدار بجواده بسرعة وقبض بيد على ذراع « سابك الثلاث » التي تمسك بالحربة بينما امتدت يده الأخرى إلى وسطه ، وبعزم وقوة رفعه من فوق سرج حصانه وحمله في الهواء ملوحاً

به ثم قذف به إلى الأرض بكل قوة .. وما إن وصل « سابك الثلاث » إلى الأرض حتى كان الملك « سيف » قد قفز فوقه ، فجرده من حربته وعاد يرفعه فوق رأسه ويقذف به نحو جيش المسلمين ، فاندفع « سعدون » نحوه وجثم فوق صدره يشد وثاقه ويقوده أسيراً .. بينما استدار الملك « سيف » بسرعة ملتقطاً سيفه من فوق الأرض ، وقفز فوق صهوة جواده ليلقى هجمة جيوش الأحباش .. إذ ما كاد « سقرديوس » يلمح ما حل ب « سابك الثلاث » حتى صاح صيحة منكرة آمراً الجيوش بالهجوم مرة واحدة على الملك « سيف » ، فاندفع الجند كالسيل العارم متجهين إلى « سيف » الذي اندفع بدوره نحوهم ملوحاً بسيفه ، وتبعه « سعدون » وفرسانه ، والملك « أفراح » وجنده .. ثم الملك « أبو تاج » وفرسانه وبدأت معركة رهيبة سقط فيهامن الطرفين أكثر من صريع ، وصال فيها الفرسان وجالوا يبرزون فنون قتالهم وشديد بأسهم وبطشهم إلى أن غابت شمس النهار ، فدقت طبول الانفصال وعاد الجيشان كل إلى مكانه .. المسلمون إلى المدينة وجنود « سيف ارعد » إلى خيامهم ..

* * *

قال « سعدون » للملك « سيف » وهما يتناولان الطعام في قاعة القصر :

ـ لي رجاء عندك يا مولاي ، أرجوألا ترفضه ..

فقال « سيف » :

ـ وما رجاؤك يا « سعدون » ؟

فقال « سعدون » :

ـ أن أبرز لهم غداً إن طلبوا القتال ، فإني أظن ذلك الفارس « ميمون الهجام » هو من سيتعرض لقتالنا في الغد وأنا أود ان ألقاه .

فقال « سيف » :

ـ اترك الغد يا « سعدون » يصنع نفسه بنفسه .. أما الآن فأحضر الأسير وفك قيوده ، فإنه والله لفارس شجاع ..

فقال « سعدون » وهو يقوم من مجلسه :

ـ لعلك طمعت في إسلامه وانضمامه إلى صفوفنا ..

فقال « سيف » :

ـ نعم يا « سعدون » فمثله خسارة في الموت ..

وما إن ترك « سعدون » القاعة ليحضر الأسير حتى مال الملك « أفراح » على الملك « سيف » قائلاً :

ـ لقد وصل المدينة أثناء المعركة يا مولاي رجل مهيب في قافلة ، وأخبرنا أنه قاصد إياك .. فتركناه يدخل المدينة لحين انتهاء القتال ..

فقال « سيف » :

الم يخبرك من هو ولا ماذا يريد ؟

فقال الملك « أفراح » :

ـ ألهانا اشتغالنا بالمعركة الدائرة أن نسأله عن أمر من الأمور ..

فقال الملك « سيف » :

ـ إذن أحضره عندنا لنراه ..

وغادر الملك « أفراح » القاعة بينما دخل « سعدون » وبرفقته « سابك الثلاث » وقد فك يديه من القيود ، ووقف أمام الملك « سيف » منكس الرأس ، فقال له الملك « سيف » :

ـ ماذا رأيت اليوم أيها الفارس .. ؟

فقال « سابك الثلاث » :

ـ رأيت فارساً كريماً وخصماً شجاعاً ..

فقال « سيف » :

ـ أو تطمع في عفوي ؟

قال « سابك الثلاث » :

ـ الفارس لا يطمع في شفقة أحد ، وإنما أدفع فديتي .. !

فقال الملك « سيف » :

نعم الحديث من فارس شجاع ، ولكننا لا نأخذ فدية أحد ..

قال « سابك الثلاث » :

وإذن ؟ ! ..

فقال « سيف » :

ـ مهلاً أيها الفارس ، ماذا تعبد ؟

فبدت معالم الدهشة على وجه « سابك الثلاث » وهو يقول :

ـ وما دخل هذا فيما نحن فيه ؟ !

فقال « سيف » :

ـ بل له كل الدخل .. أخبرني من هو إلهك ..

فقال « سابك الثلاث » :

ـ زحل ..

فقال « سيف » :

ـ وزحل نجم وسط نجوم كثيرة ، فلماذا اخترته بالذات لتعبده ؟ !

فزادت معالم الحيرة وضوحاً على وجه « سابك الثلاث » وهز كتفيه وهو يقول :

ـ لقد وجدت قومي يعبدونه فعبدته ..

فأطرق « سيف » إلى الأرض لحظات ، ثم رفع رأسه قائلاً :

ـ ولماذا تحارب ؟

فضحك « سابك الثلاث » ضحكة باهتة ، ونظر حوله في قلق ثم قال :

ـ أحارب لأن هذه صناعتي ..

فقال « سيف » :

ـ إننا أيها الفارس نحارب لننشر ديننا ، وديننا يقول بالهواحد هو الذي خلق النجوم والأرض والسماء والناس والحيوان وكل شيء وديننا يقول إن عبادة الله فرض ، وإن الجهاد في سبيل نشر هذا الدين فرض ..

وسكت الملك « سيف » .. فتحرك « سابك الثلاث » في مكانه في قلق ، وقال :

ـ وما دخل هذا في .. ؟

فقاطعه « سيف » قائلاً :

ـ إننا نعرض عليك أن تدخل ديننا فتسلم وتسترد حريتك ، وتحارب معنا من أجل هدف واضح .

فقال « سابك الثلاث » :

ـ فإن لم أفعل ..

وسكت « سيف » وهو ينظر إليه .. وأطرق « سابك الثلاث » إلى الأرض لحظات وقال :

ـ ألهذا لا تخافون الموت وتواجهون القتال بقلوب كالحديد ؟ !

فقال « سيف » :

ـ نعم ..

فقال « سابك الثلاث » :

ـ إنني اسلم معك لا لأني أخاف من المصير الذي رسمه صمتك ، وإنما لأني أحببت وقفتك في الميدان ، وأعجبتني بسالة « سعدون » وكنت

أسأل نفسي دائماً عن سرهما .. والآن عرفت فماذا أفعل لأصير منكم ..

ولم يرد الملك « سيف » وإنما هب من مجلسه ، واحتضنه وقبله وهو يقول :

ـ مرحباً بك في صفوف الحق ..

وهب « سعدون » يقبل « سابك الثلاث » ويصافحه ، بينما أخذ كل من في الدوان يهنئه بإسلامه ودخوله الدين الحنيف .. ثم أجلسه الملك « سيف » إلى جواره ، وجعل يعلمه قواعد دين إبراهيم الحنيف و« سابك الثلاث » يردد وراءه الشهادة ، ويستمع لقوله في شغف ومحبة ..

وقطع عليهما الحديث دخول الملك « أفراح » بصحبة شيخ جليل ، ما إن رآه الملك « سيف » حتى هب من جلسته مسرعاً ، واندفع نحوه يحتضنه ويقول :

ـ مرحباً بالحكيم « إخميم الطالب » .. أهلاً بك في حمراء اليمن ..

فقال « إخميم الطالب » :

ـ لقد آن الأوان يابني كي اراك لتستلم وديعتك عندي ..

فنظر إليه الملك « سيف » في حيرة وهو يقول :

ـ وديعة . ! ..

فضحك « أخميم الطالب » وهو يقول :

ـ أنسيت ، زوجتك ، ابنتي « جيزة » .. . !

فقال « سيف » :

ـ مرحباً بك وبها .. أهي معك ؟

فقال « إخميم » :

ـ مع القافلة ..

وسرعان ما أمر الملك « سيف » بإنزال الملكة « جيزة » في جناح خاص بالقصر ، بينما أجلس « إخميم الطالب » إلى جواره ، ومضى يتذاكر معه الأحداث التي وقعت له ، ويحكي لمن بالمجلس قصة مغامراته للحصول على سيف سام بن نوح إلى أن آن أوان النوم ، فقام كل إلى مجلسه منشرح الصدر مسرور الفؤاد ..

° ° °

عندما اصطف الجيشان في صباح اليوم التالي للقتال ، تقدم « سعدون » بفرسه حتى حاذى الملك « سيف » وقال :

ـ أريد أن أبرز لهم اليوم يا مولاي ..

ولكن « سعدون » لم يكد يتم حديثه حتى خرج من صفوف الأحباش فارس ضخم مهول ، وعليه درع من الفولاذ . وجواده صورة للقوة والجمال وهو يصيح .

ـ أنا الفارس « دمنهور الوحش » لا يبرز لي إلا ملككم « سيف بن ذي يزن » فهو غريمي الذي أسر زميلي « سابك الثلاث » وثاري عنده ..

فقال « سعدون » :

ـ أخرج له ..

فقال « سيف » وهو يطلق العنان لجواده :

ـ هل طلبك أحد ... ألم تسمعه يطلبني انا ...

واندفع نحو « دمنهور الوحش » صائحاً :

ـ أنا طلبتك أيها الفارس ، أنا « سيف بن ذي يزن » ..

ولم يرد عليه « دمنهور الوحش » وإنما استل سيفه من غمده ، وقصده كالصخرة النازلة من عل في اندفاع مخيف .. ولم يتحرك الملك « سيف » وإنما ظل في مكانه حتى أوشك « دمنهور الوحش » أن يصدمه بجواده

فحاد عن طريقه في خفة ومهارة .. ثم استل حسامه من غمده ، واستدار بجواده ليلقى « دمنهور الوحش » في هجمته التالية .. ونزلت ضربة « دمنهور » على درقة « سيف » في دوي مخيف ، بينما نزلت ضربة « سيف » فوق درقة « دمنهور الوحش » كأنها الصاعقة .. ثم انطبق الفارسان كل منهما على خصمه في عنف ، وبدأت بين الاثنين مبارزة رهيبة ظهرت فيها المهارة وقوة الاحتمال وحسن الحيلة ، وكان « دمنهور الوحش » كلما لجأ إلى خدعة من الخدع التي يعرفها أبطلها له الملك « سيف » بطول باعه وكثرة تمرسه ..

وترك الملك « سيف » خصمه يهاجمه طول الوقت مكتفياً بصد هجماته ، وإطاشة ضرباته ، وإفساد حيل حربه ، حتى استنفد « دمنهور الوحش » كل ما يعرف من حيل الحرب وخدعه ، وأحس بذراعه يدب فيها التعب .. وبدأ جواده لا يطاوعه في حركته لكثرة ما قفز به وجرى ، فأخذ « دمنهور الوحش » يشتد في ضرباته وكأنه يخفي تعبه وضيقه .. ولكن الملك « سيفا » أحس ـ بخبرته وحنكته ـ أن خصمه قد بذل أقصى ما عنده ، فكر عليه في هجمة خاطفة ، وأخذ يوجه اليه الضربات ذات اليمين وذات الشمال ، و « دمنهور » منصرف بكليته لصد هذه الضربات الخاطفة القاتلة ، حتى اقترب الملك « سيف » منه بجواده ، فهب فجأة فوق سرج جواده وهو يزعق زعقة راعدة وأمسك بيده اليسرى وسط عدوه ، ثم صاح مرة أخرى وهو يرفعه عن حصانه .. ثم ضرب حصانه بكعب قدمه فاتجه به مسرعاً نحو جيشه و « دمنهور » مرفوع فوق ساعده ، وقد حط على الميدان صمت كثيف ..

وظل الملك « سيف » في اندفاعه حتى وصل إلى « سابك الثلاث »

فقذف تحت قدميه بزميله « دمنهور الوحش » فقفز إليه « سابك الثلاث » يوثق ذراعيه ويشد وثاقه ..

وارتفع من بين صفوف الأحباش صيحة مرعبة ، وانفرجت صفوفهم عن فيل « ميمون الهجام » يندفع إلى وسط الميدان ، وفوقه « ميمون الهجام » يردد صيحات القتال ويرسل صرخات التحدي ، واندفع إليه من وسط صفوف المسلمين « سعدون » فوق حصانه وفي يده حسامه وهو يلوح به في الهواء وهو يقول :

ــ أنا لك يا « ميمون » ..

فقال « ميمون » :

ــ أنت « سعدون » إنما هدفي سيدك « سيف بن ذي يزن » الذي أسر صاحبي ..

فقال « سعدون » :

ــ أتريد القتال أم الجدال .. ؟ !

فصاح « ميمون » :

ــ بل أريد ذبحك وسط هذا الميدان ..

فقال « سعدون » :

ــ إذن فانزل من فوق فيلك ، وأنزل من على حصاني .. ونتقابل رجلاً لرجل وفارساً لفارس ، أم انك لا تبدو في صورة الفارس إلا في حماية فيلك .؟ !

فصاح « ميمون » وهو يقفز من فوق ظهر فيله ، مسلماً مقوده إلى عبيده يعودون به :

ــ أنا لك يا « سعدون » ..

فقفز « سعدون » من فوق جواده ، وضرب جواده فوق مؤخرته

بيده فعاد يخب إلى صفوف الجيش .. بينما وقف « سعدون » يتلقى « ميمون » وقد باعد ما بين ساقيه رافعاً سيفه في يده .. وتقدم « ميمون » بجسده العملاق حتى وقف أمامه يتفرس فيه بعينين تتقدان .. ثم هجم « ميمون » بسيفه ، فتلقى « سعدون » الطعنة فوق درقته وهو يخفف من وقعها بأن يميل معها وفي اتجاهها .. ثم وجه طعنته في عنف وقوة فتلقاها « ميمون » .. وبدأت مبارزة رهيبة أظهر فيها الفارسان ما لديهما من جلد ومهارة .. ورفع « ميمون » حسامه ، ونزل به بكل قوته وقد انكشف له في « سعدون » مطعن ، إلا أن « سعدون » قفز من مكانه فجأة فوقعت الطعنة فوق الأرض الصلبة .. وقفز « سعدون » مرة ثانية ليمسك بيد « ميمون » مثبتاً إياها في الأرض رافعاً سيفه بيده الأخرى ليهوي به فوق رأس « ميمون » .. إلا أن « ميمون » رفع يده الطليقة ليمسك قبضة « سعدون » التي تحمل السيف ، وظلا هكذا فترة وكل منهما يضغط بكل قوته ليخلص سيفه من يد الآخر ، ثم بدأا يتحركان قليلاً قليلاً إلى أن اعتدلا واقفين وأذرعهما متباعدة وكل يمسك بقبضة غريمه التي تحمل سيفه ...وارتفعت صيحتهما معاً وقد دفع كل منهما الآخر بكل قوته فانفصلا في عنف ثم عادا يلتحمان في مبارزة دموية رهيبة ..

واقترب الملك « سيف » بجواده قليلا ليرقب هذه المعركة الجبارة بين فارسين شجاعين قويين ، لكل منهما باع طويل في الحرب بكل سلاح ، بينما اقترب من الجانب الآخر « سقرديوس » و « سقرديون » وقد تعلقت أنفاسهما بحركات « ميمون الهجام » يغوص قلباهما كلما وجه إليه « سعدون » ضربة قاتلة ، ويعلو الفرح الجنوني أساريرهما إذا ما ارتفع سيفه بطعنة قوية نحو « سعدون » .. وندت عنهما صرختان حادتان ، وهما يريان سيف « ميمون الهجام » يتحطم فوق سيف

« سعدون » إثر ضربة جبارة التقى فيها السيفان بصوت كالرعد ولكنهما عادا يلتقطان أنفاسهما الذاهبة حينما رأيا سيف « سعدون » يتحطم هو الآخر..

والتحم « سعدون » و« ميمون » وقد تحطم سيفاهما بالأيدي في مصارعة وملاكمة وشد وجذب ، وهما كالوحشين المفترسين ، يتربص كل منهما لخصمه ثم ينقض عليه بيديه ورأسه وقدميه ، ويضرب في قسوة وعنف ..

وظلت هذه المعركة الرهيبة تدور على مشهد من الجيشين الواقفين حول الميدان حتى انتهى النهار وبدأت الشمس تغيب عن الدنيا ، وقد تلطخ جسد البطلين بالدماء والرمال ممزوجة بالعرق الغزير ، وهما لا يكلان ولا يملان ، حتى دقت طبول الحرب بالانفصال .. فترك كل منهما صاحبه وأخذ يتراجع بظهره وهو ينظر إلى غريمه في حذر وتحفز حتى وصل كل منهما إلى صفوف جيشه ، فتراجع الجيشان إلى مكانيهما استعدادا لمعركة فاصلة أخرى في الغد ..

٢٩

تباشير النصر

تلقى « سقرديوس » و« سقرديون » « ميمون الهجـام » في لهفة .. وصحباه إلى خيمته حيث أسرع إليه عبيده يزيلون عنه غبار المعركة ويحضرون له رداء جديداً ويدلكون له جسده ، ويداوون ما به من جروح ، مزيلين آثار الدماء والرمال .. وقال « سقرديوس » :

ـ إن هذا الكلب كثير الخداع . .

فقال « ميمون » وهو يفرد ذراعه لواحد من عبيده يداوي جرحاً كبيراً فيها :

ـ بل هو فارس شديد ، لم ألق مثله من قبل ..

فصاح « سقرديوس » :

ـ ولكنه كلب ..

فقال « ميمون » في هدوء :

ـ بل هو فارس شجاع ، وأعتقد أنني أستطيع التغلب عليه ، وخاصة بعد أن خبرت حربه وعرفت مقدرته وفنه ..

فقال « سقرديوس » :

ـ إذن فسنشهد نهاية « سعدون » في الغد .. ؟ !

فصاح « سقرديوس » :

ـ ليس في الغد مبارزة ، بل هي موقعة حاسمة نشتبك فيها بكل جنودنا ..

فقال « ميمون » :

ـ ليس قبل أن أنهي معركتي ..

فقال « سقرديوس » :

ـ إن معركتك ستنتهي بمجرد انتهاء المعركة الكبيرة كلها ..

وقال « سقرديوس » :

ـ وما أهمية « سعدون » لتجعل لمعركتك معه الأولوية على المعركة الفاصلة .. ؟ !

فقال « ميمون » :

ـ ليست معركتي مع « سعدون » .. فقد عرفت كل ما عنده ، وأستطيع أن أهزمه لو التقيت به مرة ثانية .. وإنما معركتي شيء آخر ..

فقال « سقرديوس » :

ـ ماذا تعني ؟ ..

فقال « ميمون الهجام » :

ـ معركتي مع ملكه وسيده « سيف بن ذي يزن » .. وفي الغد سأتحداه هو لألقاه في مبارزة فردية حتى نرى من منا سيد الفرسان ..

فقال « سقرديون » :

ـ ولكن أيها الفارس ، أما كفانا مبارزات .. لقد طال الوقت ولم ننجز المهمة التي أوفدنا اليها الملك « سيف ارعد » ..

فقال « ميمون » محتداً :

ـ ليس قبل أن ألقى « سيف بن ذي يزن » في مبارزة فردية ..

فعاد « سقرديوس » يقول :

ـ ولكن أيها الفارس .

فصاح « ميمون » في عنف ، وقد اعتدل في جلسته ونزع ذراعه من بين يدي عبده :

ـ لقد كنت أود أنا أولاً إنجاز المعركة في موقعة فاصلة ، ولكنكما اخذتما تسوفان وتماطلان .. أما الآن وقد أسر « سابك الثلاث » و« دمنهور الوحش » فلا بد لي من مبارزة « سيف » والقضاء عليه قبل بدء المعركة .. والآن اخرجا من هنا فإني اريد أن أستريح ..

وتبادل « سقرديوس » و« سقرديون » النظرات في صمت ، وقد أحسا بغضب « ميمون » الهجام وتملكهما الخوف أن يثيراه عليهما ، ثم خرجا من خيمته في صمت .. وظلا يسيران بين الخيام في صمت كامل وقد غرق كل منهما في افكاره حتى قطع « سقرديوس » هـذا الصمت قائلاً :

ـ إن هذه حالة لا يصح السكوت عليها ..

فقال « سقرديون » :

ـ هذا ما كنت أفكر فيه ، فقد أسر فارسان كنا نحسب أن أي واحد منهما كفيل بسحق جيش « سيف » كله .. ولم يبق إلا « ميمون » ..

فقال « سقرديوس » :

ـ و« ميمون » اليوم لم يستطع أن يقضي على « سعدون » .وليس « سعدون » إلا من فرسان « سيف » .. أتظن أنه يستطيع أن يهزم « سيف ابن ذي يزن » ؟

فقال « سقرديون » :

ـ أشك في هذا ، فإن « سيفاً » قد هزم « سعدون » من قبل ..

ـ فقال « سقرديوس » :

ـ لديّ فكرة ننهي بها هذا التعويق كله ..

فقال « سقرديون » :

ـ قل ما عندك فكلي آذان صاغية ..

فوقف « سقرديوس » ووضع يده على كتف « سقرديون » وقال هامساً :

ـ نتفق مع الثمانين ساحراً على التدخل إذا ما حل بـ « ميمون » سوء ، فإن قتله « سيف » أو أسره يوجهون همهم إلى فرسان « سيف » وقواده ليمنعوهم بالحكمة وعلوم الأقلام من الحركة ، ونوجه نحن جيوشنا في هجوم كبير مفاجئ على جيش « سيف » فنقضي عليه مرة واحدة ،وفي واقعة كبيرة لا يحسبون لها حساباً ..

فهز « سقرديون » رأسه وهو يقول :

ـ نعم التدبير .. هيا بنا إلى السحرة لنتفق معهم وليكن هذا الأمر سراً بيننا وبينهم ..

واتجه الحكيمان في الحال نحو خيام السحرة ، وسرعان ما ابتلعهما الظلام ..

° ° °

قال الملك « سيف بن ذي يزن » للفارس « سعدون » وهو يفسح له مكاناً إلى جواره على مائدة العشاء :

ـ كيف رأيت خصمك اليوم يا « سعدون » ؟

وكان « سعدون » قد ارتدى حلة جديدة ، واغتسل مزيلاً آثار الدماء والعرق والأتربة ، وقد ضمد له عبيده جراحه فبدا منتعشاً مرحاً وهو يقول :

ـ والله يا مولاي انه لنعم الفارس والغريم .. لا يفوقه في الضرب

بالحسام وفن الصراع إلا أنت ، فابتسم « سيف بن ذي يزن » وهو يقول :

ـ ما أظنك إلا جائعاً بعد هذا المجهود العنيف الذي بذلت ..

فقال « سعدون » وهو ينقض على ما وضع أمامه من طعام :

ـ وأي جوع يا مولاي .. ؟

وقال « برنوخ » الساحر وهو يراقب « سعدون » يلتهم الطعام :

ـ إن من يراك تأكل يا « سعدون » يخاف أن يقع تحت براثنك ..

فضحك الملك « سيف » وهو يقول :

ـ كنت أخشى على « ميمون الهجام » من أنيابه .. !

فشارك « سعدون » في الضحك وهو يقول :

ـ لكم عليّ أن آكله لكم غداً ، إن لم يكن بأسناني فبسناني .. !

فضج الجميع بالضحك ، إلا أن الملك « سيف بن ذي يزن » وقال :

ـ كلا يا « سعدون » لن يبرز له غداً غيري ..

ووقف الطعام في حلق « سعدون » وفتح فمه ليرد ، إلا أن إشارة من يد الملك « سيف » أسكتته ، وقال الملك « سيف » :

ـ إن موت فارس مثله خسارة كبيرة وأنا أريد أن آخذه أسيراً عله يسلم فيشتد به عضد المسلمين ..

واستطاع « سعدون » أخيراً أن يبتلع الطعام ، فقال :

ـ ولكن يا مولاي ..

فقال « سيف » ..

ـ ليس هناك لكن .. هذا أمر ..

فقال الملك « أبو تاج » :

ـ حقاً يا مولاي إنك لعلى حق .. فقد كنت أرقب قتاله وأنا مشدوه

من مهارته وقوته ، ولولا أن « سعدون » هو الذي يقاتله لفتك به منذ أول جولة ..

وهنا تدخل « سابك الثلاث » في الحديث لأول مرة قائلاً :

- أيسمح لي مولاي أن أذكره بأمر ؟ !

فالتفت إليه « سيف بن ذي يزن » قائلاً :

- ما الأمر أيها الفارس الشجاع .. ؟

فقال « سابك الثلاث » :

- لقد أسر مولاي اليوم فارساً خطيراً ومجيداً هو « دمنهور الوحش » ..

فقال « سعدون » :

- هذا صحيح وقد نسينا أمره فعلاً ..

فقال « سيف بن ذي يزن » :

- كلا أنا لم أنسه ، وإنما كنت أؤجل الحديث في أمره إلى ما بعد الطعام ، فليس أشق على النفس من الأمر بإعدام مثله من الفرسان ..

فقال الملك « أفراح » :

- لنعرض عليه الإسلام يا مولاي ؟

فقال « سيف بن ذي يزن » :

- نعم ، ولو أني أشك في أنه سيقبل ..

فقال « سابك الثلاث » :

- بل قبل يا مولاي ..

وران على القاعة صمت قطعه الملك « سيف » قائلاً :

- الحمد لله ، إن هذا ما كنت أتمناه من قلبي ، عليّ به وفك قيوده .

واندفع « سابك الثلاث » خارجاً ليحضر « دمنهور الوحش » ..

بينما قال « برنوخ » :

– إن هذا بشير النصر المؤزر إن شاء الله ..

وقال «سعدون» :

– إن هذين الفارسين بكل جيش «سيف أرعد» .. ولم يبق إلا «ميمون الهجام» فلو تركتني يا مولاي أتم ما بدأت ..

فقاطعه «سيف» قائلاً :

– قلت كلا يا «سعدون» لقد شرح الله صدر زميليه للإسلام وأود أن ينضم إلى صفوفنا .. والآن صمتاً ، ها هو الفارس المسلم الجديد يدخل قاعتنا .. أهلاً ..

ووقف الملك «سيف» تكريماً لـ «دمنهور الوحش» وهو يدخل القاعة ، فوقف لوقوفه كل من بالقاعة من ملوك وفرسان وحكماء ، وقال «سيف» :

– مرحباً بك أيها الفارس بين رجال يعرفون فضلك وقوتك ..

فانحنى «دمنهور الوحش» وهو يقول :

– مولاي لقد شرح الله صدري لنور الإسلام ، وهداني أخي «سابك الثلاث» إلى طريق اليقين ، فإن شئت فهذا السيف طوع أمرك ..

فقال «سيف بن ذي يزن» :

– ونعم السيف سيفك أيها الفارس ، أنت منذ اليوم واحد منا .. ولتذبح الذبائح وتفرق على أهل المدينة ابتهاجاً بإسلامك وانضمامك إلى صفوفنا ...

فقال «سعدون» :

– هذه ليلة كلها خير ، فوالله إنه لفارس ..

فقال «برنوخ» :

– هذه تباشير النصر الكامل .. هذه علامة الفوز المبين ..

وبينما كان الجميع يتبادلون التهاني ويظهرون الفرح ، كانت هناك عينان حاقدتان تلتهبان بجمر الحقد والغضب تتطلعان إلى القاعة من فتحة سرية بأعلى الجدار ، وترقبان كل ما يجري في حنق ومرارة ..

* * *

كانت صاحبة العينين الحاقدتين هي الملكة « قمرية » التي نسيها الجميع في غمار الأحداث التي توالت عليهم ، تحمل في كل لحظة جديداً وخطيراً يحتاج إلى كل انتباههم وعنايتهم ..

وكانت « قمرية » منذ استطاع السحرة أن يزيلوا عنها الغمة التي ابتلاها بها « برنوخ » تجلس في قصرها متوقعة دخول جيوش « سيف أرعد » إلى المدينة بين لحظة وأخرى ، وكانت تجتر في ذهنها الملتوي ما تنوي أن تفعله بـ « سيف » ورجاله وزوجاته عندما يقعون جميعاً في ذل الأسر والهوان .. إلا أن الأمر قد طال ولم يبلغ سمعها كل يوم إلا ضجيج الجيوش وهي خارجة إلى القتال ، ثم صيحات متباعدات تأتي من ميدان القتال لا تكاد تتبين منها شيئاً ، ثم يعود الجنود عند الليل إلى المدينة ، وتظل المدينة ساهرة في حياة ضاحكة .. وكأن لا قتال هناك ، وكأن خطر الهزيمة المحققة لا يظلل سماء المدينة بتهديده الجاد الأكيد ..

وكانت « قمرية » تخشى الخروج من قصرها ، وفي وهمها أن « برنوخ » قد أقام الحراس والجواسيس ليقتلوها عند مغادرتها القصر حتى يقول لابنها إنه قتلها أثناء محاولتها الهرب ، فسجنت نفسها باختيارها في القصر إلى أن أصبحت لا تحتمل البقاء بعيدة عما يجري حولها من أحداث .. فقررت في تلك الليلة أن تخاطر بالتسلل إلى المدينة لتعرف جلية الأمر ..

وانتظرت « قمرية » حتى أسدل الظلام أستاره على المدينة ، وتزيت

بزيّ الجنود ، وانتظرت بباب قصرها حتى فتحت أبواب المدينة وبدأ الجنود العائدون من ميدان القتال يدخلون المدينة في ضجة كبيرة .. فانضمت إلى جموعهم ، ومضت تسير من مكان إلى مكان تتسمع أحاديثهم وتعرف أنباء القتال منهم ..

وأدهش « قمرية » أن أحداً لا يأتي لها بذكر ، ولا يتحدث عنها بخير أو بسوء ، وكأنها لم تكن الملكة الحاكمة بأمرها ، وكأن الجميع قد نسوا كل شيء عنها .. وزادت دهشتها عندما سمعت أنباء القتال الدائر ، وكيف استطاع « سعدون » أن يقتل كل من خرج إليه من فرسان ، ثم امتزجت دهشتها بحسرة مرة عندما سمعت أخبار ابنها « سيف » وكيف استطاع أن يأسر « سابك الثلاث » و « دمنهور الوحش » ..

وفي خان بوسط المدينة ، استمعت « قمرية » لوصف المعركة بين « سعدون » و« ميمون الهجام » وهي لا تكاد تصدق نفسها ، وحين كانت تغادر الخان كانت تهمس لنفسها :

– أيعجز « سيف أرعد » بكل قوته وفرسانه عن « سيف » ورجاله .. ؟

وظلت تسير بغير هدف محدد في أرجاء المدينة ، وهي تأكل غيظها وغضبها الذي يحرق قلبها حرقاً إلى أن اقتربت من قصر ابنها ، فأذهلها أن تراه متلألئاً بالأنوار الساطعة ، وكأن القوم لا يحزنهم أمر الحرب التي تدور رحاها كل يوم على أسوار المدينة ، ووجدت « قمرية » قدميها تسوقانها مرغمة نحو القصر وكأنما هناك قوة قاهرة تجذبها نحوه ..

وأسرعت « قمرية » تتسلل خلال سراديب خفية تعلم أمرها متجهة نحو حجرتها في القصر ، وكان لهذه الحجرة أكثر من منفذ سري ، أعدتها لتتجول دون أن يراها أحد ممن بالقصر فتعرف من أسرار أتباعها كل ما تريد .. وحين وصلت إلى حجرتها بالقصر أسرعت إلى الطاقة السرية

التي تطل على القاعة الكبرى والتي كانت تتجسس منها على كل ما يجري بالقاعة ، ففتحتها في حذر وأطلت منها لترى هذا المشهد الذي جعل الحسرة تمسك بخناق أنفاسها ، مشهد دخول « دمنهور الوحش » القاعة ، وهذا الترحيب الذي قوبل به لانضمامه إلى صفوف المسلمين ..

وكانت « قمرية » تعض شفتيها في حنق ، وهي تقول لنفسها :

– لا بد من حيلة يا « قمرية » .. لا بد من حيلة قبل أن يفوت الأوان ، ويحقق « سيف » نصراً جديداً على جيوش « سيف أرعد » .. لا بد من حيلة ..

وجعلت « قمرية » تدور في الحجرة وهي كالفهد الحبيس ، ثم تعود لتطل من الطاقة فتشهد من علامات البهجة والسرور ما يزيد ألمها ويضاعف حسرتها ، وتعود لتجول في الحجرة من جديد وهي تقلب كل الحيل في رأسها دون أن تهتدي إلى حيلة صالحة ..

وكانت « قمرية » تقترب من الطاقة حين سمعت أصواتاً غير عادية من القاعة ، فتقدمت ترقب ما يجري .. فرأت ابنها واقفاً على الأقدام ، وقد وقفت أمامه امرأتان .. والملك « سيف » يقول :

– مرحباً بك أيتها السيدة الكريمة في مدينتنا ، ولكن من تكونين ؟

فكشفت كبرى المرأتين عن وجهها ، وصاح الملك « سيف » في الحال وهو يهرول نحوها :

– هذه هي الحكيمة « عاقلة » .. مرحباً بك ثم مرحباً ..

فقالت الحكيمة « عاقلة » :

– نعم أيها الملك الكريم والفارس الشجاع ، أنا « عاقلة » أم الأميرة « طامة » ..

فقال « سيف » :

– وأين طامة أيتها الحكيمة ؟ ..

فأشارت «عاقلة» إلى المرأة الأخرى التي وقفت إلى جوارها ، وقالت :

– هذه «طامة» .. طال سفرك عنها فسألتني عنك ، وقالت لعل الملك «سيفا» نسينا يا أمي .. فضربت الرمل لأعرف أخبارك ، فعرفت أنك في حرب دائرة تواجه إلى جوار الفرسان ورجال السيوف ، السحرة ورجال الأقلام ، فجئت معها لنقف إلى جوارك في حربك ..

فقال «سيف» :

– أهلاً ومرحباً ..

ثم التفت إلى «طامة» قائلاً :

– وأين القلنسوة يا «طامة» .. ؟

فقالت «طامة» :

– هي معي أيها الملك وقد أقسمت ألا تأخذها إلا بشرط ..

فصاحت فيها الحكيمة «عاقلة» :

– ألا تعرفين الأدب ؟ .. أهذا كلام يقال في حضرة كل هذا المجلس .. ؟

ثم التفتت إلى الملك «سيف» قائلة :

– إن «طامة» معذورة فهي لم تعرف الراحة منذ غادرتنا ، وكانت قد أقسمت ألا ترد لك القلنسوة إلا وهي زوجتك .. ولكن أيها الملك لا عليك منها ، فهذه القلنسوة لا قيمة لها إلا إنها تخفيك عن الأنظار .. وقد صنعت لك بدلاً منها هذه المنطقة التي إن لبستها لا يستطيع مخلوق من الجن أن يقترب منك حتى تستريح من «عيروض» وأفعاله ..

ثم أخرجت منطقة من الجلد المدبوغ قد نقشت برسوم وأشكال

غريبة ، فألبستها لـ «سيف» في الحال وهي تقول :

– هذه هديتي لك أيها الملك ومعها أهديك «طامة» ابنتي ..

فقال الملك «سيف» :

– ونعم الهدية أيتها الحكيمة .. انضمي إلى مجلسنا .

وحين أخذت «عاقلة» وابنتها «طامة» مجلسهما في القاعة ، قال الملك «سيف» :

– لعلكم لا تعرفون الحكيمة «عاقلة» ، ولكني لا أنسى فضلها عليّ حين ذهبت للحصول على كتاب النيل ، فقد ساعدتني وخلصتني من كل ما وقعت فيه من مآزق وأخطار في مدينة «قمرون» حتى خرجت سالماً ناجياً ومعي كتاب النيل ..

– هذا صحيح ، فهم جميعاً ما زالوا على الضلال مقيمين .. والله ينجي من مكائدهم ومكرهم ..

فقال «إخميم الطالب» مشتركاً في الحديث لأول مرة :

– مرحباً بك أيتها الحكيمة «عاقلة» .. لقد كنت أنا أيضاً أود أن أراك منذ مدة طويلة ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» ملتفتة إليه :

– أنت «إخميم الطالب» حارس سيف «سام بن نوح» ولوح «عيروض» .

– هذا صحيح ، وقد أديت رسالتي نحو الملك «سيف» وبقيت رسالتي نحو «جيزة» ابنتي ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» :

– إن الملك «سيف» يجمع بيننا برابطة النسب ، فابنتك «جيزة» وابنتي «طامة» من نسائه ..

فقال الملك «سيف» :

– هذا حديث لا مجال له إلا بعد انتهاء هذه المعركة التي نخوضها بالنصر ..

فقال «سعدون» :

– اسمح لي يا مولاي بالانصراف ، فإني أريد أن أتفقد فرساني قبل معركة الغد ..

فأذن له الملك «سيف» بالانصراف .. وأمر بإفراد جناح خاص للحكيمة «عاقلة» وابنتها «طامة» ..

• • •

وخشيت الملكة «قمرية» أن يكشف أحد أمرها ، إذ أخذ الجميع يقومون .. كل يتجه إلى جناحه ، فأخذت تتسلل عبر السراديب التي تعرفها حتى خرجت من القصر ، وقد عقدت عزمها على الفتك بابنها «سيف» قبل أن يفوت الأوان ويتحقق له النصر ..

ما إن وصلت «قمرية» إلى حجرتها حتى أخرجت لوح «عيروض» .. ودلكت اللوح بكل قوتها فظهر أمامها «عيروض» في الحال .. فأسرعت تقول له :

– يا «عيروض» .. اذهب الآن في الحال إلى «سيف» واقبض على رقبته ، ولا ترفع يدك عنها حتى تفصل رأسه عن جسده ، وإن لم تستطع فهاته هنا أجزر رقبته بيدي ..

فخرج «عيروض» من أمامها وقد ركبه الهم ، فقد أدرك أن لا خلاص للملك «سيف» هذه المرة من حقد أمه المتعطشة إلى دمائه .. بينما جلست «قمرية» تنتظر ابنها ، وهي تدور في حجرتها في فرح

وحشي .. وهي ترسم في ذهنها صورة ولدها ملطخاً بدمائه ، وقد انفصل رأسه عن جسده ..

حين وصل « عيروض » حزيناً يائساً إلى حجرة الملك « سيف » زكمت أنفه روائح نفاذة .. وكلما اقترب من الملك « سيف » ازدادت هذه الروائح حدة وقوة ، وأحس انها تخنقه وتمنع عنه الهواء وتكاد تأخذ برقابه ، وأدرك أنه إذا ازداد اقتراباً قضت عليه هذه الروائح .. فنظر إلى الملك « سيف » وهو نائم ، فلمح المنطقة التي أعطتها له الحكيمة « عاقلة » ، فابتسم قائلاً :

– لقد نجاك الله أيها الملك وحفظك .. وأرسل لك ما ينقذك من شر هذه الأم التي جنت بكراهيتك والحقد عليك ..

وانصرف مبتعداً عن الملك « سيف » وقد حلت البهجة في نفسه محل الخوف واليأس .. وحين وصل إلى « قمرية » ابتدرته صائحة .

– هل قتلته ؟ . أرني دمه .. أرني دمه .

فقال « عيروض » :

– إنه حي يا سيدتي لم يمت ..

فصاحت « قمرية » في ثورة جنونية :

– حي ؟ .. كيف هذا .. ؟ ألم أقل لك أن تقتله ، أن تضع يدك على رقبته حتى تزهق أنفاسه ، وتفصل رأسه عن جسده ؟ !

فقال « عيروض » في هدوء :

– لم أستطع أن أقترب منه ..

فصاحت « قمرية » :

– هل خالفت أوامري ، أنت تعرف أنك لو خالفتها تحرق في الحال !

فقال «عيروض» :

– ولكني لم أحرق ، ومعنى هذا انني لم أخالف أمرك .. وإنما تعذر تنفيذه لأنني وجدت الملك «سيفا» يتمنطق بمنطقة من جلد الغزال صنعتها الحكيمة «عاقلة» لتمنع عنه أذى الجن .

فصاحت «قمرية» :

– آه .. هذه المنطقة ، لقد تذكرت ، حقاً اعطتها له «عاقلة» ، وما العمل الآن ؟ ! .

ثم التفتت إلى «عيروض» قائلة :

– انصرف أنت يا عيروض .. لا بد لي من التفكير .. لا بد من حيلة ..

• • •

وانصرف «عيروض» بينما أخذت هي تدور في حجرتها ، وقد ظهرت على وجهها أمارات الشر والخبث .. وسرعان ما صفقت بيديها تستدعي جاريتها وعيناها تلتمعان ببريق وحشي ، وحين حضرت الجارية قالت لها «قمرية» :

– اذهبي إلى بيت كبير الصاغة في منزله وأيقظيه من نومه ، واعطيه هذا الكيس ..

وأخرجت لها كيساً مليئاً إلى آخره بالذهب ، وقالت :

– وأخبريه أن يحضر أدواته معه ويحضر معك في الحال ..

وما إن خرجت الجارية حتى أخذت «قمرية» تخلع زي الجنود ، وقد هدأ بالها واستراحت إلى الخطة التي رسمها ذهنها الملتوي .. ثم أمرت بالطعام فأحضر لها وجلست تتناوله وقد تزينت واستعادت إشراقتها وهدوءها ..

وحين وصل الصائغ يحمل أدواته أمرته بالجلوس ثم صرفت الجارية وقالت «قمرية» للصائغ وهي تخرج لوح عيروض :

– أريد أن تصنع لي لوحاً مثل هذا اللوح تماماً بحيث لا يستطيع إنسان أن يفرق بين اللوحين ، كما أريـد أن تنقش لي عليه من الكتابة والنقش مثل ما على هذا اللوح الأصلي ..

وأمسك الصائغ بلوح «عيروض» يتأمله ثم قال :

– هذا أمر سهل يا مولاتي ، وفي الغد أحضر لك اللوح المطلوب ..

فقالت «قمرية» :

– إن الأمر لا يحتمل التأجيل للغد .. سأعطيك ألف قطعة ذهبية إن بدأت العمل الآن ، وألفاً أخرى إن انتهيت من اللوح قبل الصباح ..

فسكت الصائغ لحظات ، ثم قال :

– وأين سأبدأ العمل .. ؟

فابتسمت «قمرية» وهي تصفق بيديها ، وقالت :

– هنا والآن ..

وحضرت الجارية على صوت التصفيق ، فقالت لها «قمرية» :

– احضري كيساً فيه ألف قطعة ذهبية . وأحضري للصائغ ما يريد من أدوات ..

فقال الصائغ وعيناه تلمعان ببريق الطمع :

– إن معي كل أدواتي يا مولاتي ..

وبدأ الصائغ يعد أدواته ليشرع في العمل ، وحين أحضرت الجارية كيس الذهب تلقفه في لهفة ، ثم انكب على عمله منصرفاً إليه بكليته ..

• • •

مع نسمات الفجر الأولى كانت «قمرية» ترقب الصائغ ، وهو يضع

اللمسات الأخيرة في اللوح المقلد ، وأصوات الجند يصطفون استعداداً للخروج إلى ميدان القتال تتناهى إلى أذنيها فأسرعت إلى نافذة حجرتها ترقب جنود الملك «أفراح» يخرجون إلى ظاهر المدينة ووراءهم جنود الملك «أبي تاج» مدججين بالسلاح والعتاد ، وحين كان يمر أمامها «سعدون» وعبيده سمعت صوت الصائغ يقول :

– مولاتي ؟

فالتفتت إليه «قمرية» فرأته يحمل بين يديه اللوح المقلد ، فمضت فرحة تتأمل فيه بعناية ، ثم أخرجت لوح «عيروض» ومضت تقارن بين اللوحين ، وأرضتها نتيجة المقارنة فصفقت بيدها وهي تقول :

– هذا عمل رائع أيها الصائغ وسنجزيك عنه خير الجزاء ..

وحضرت الجارية والصائغ يقول :

– المهم هو رضاء مولاتي ..

فقالت «قمرية» للجارية :

– أحضري كيساً آخر فيه ألفان من القطع الذهبية ، وأمري بإحضار الطعام فوراً .. فلا شك أن ضيفنا جائع .. وأعدي له جوادين بكامل عدتهما عند الباب الخلفي من المدينة ..

وأخذ الصائغ يلهج بالشكر ، ويردد عبارات الدعاء ، بينما كانت «قمرية» تحمل لوح «عيروض» لتثبته على زندها ، وتحمل اللوح المقلد لتخبئه في مكان أمين ..

وحين عادت الجارية بالطعام أمرتها بأن تضعه أمام الصائغ ثم تنصرف ، واقترب الصائغ من الطعام ليأكل ، فقالت له «قمرية» :

– تعال إلى صيوان الملابس فانتق ما شئت من خلع لك ولزوجتك ..

ولم يصدق الصائغ أذنيه ، فقد أذهله كل هذا الكرم ، فقال وعيناه

تجوسان في ألوان الطعام الفاخرة التي حفلت بها المائدة :

– هذا كثير يا مولاتي ، إن كرمك فاق كل تصور ..

فقالت «قمرية» وهي تدفعه إلى حجرة الملابس :

– لقد خدمتنا بإخلاص ، فوجب علينا أن نجزل لك العطاء ..

ووجد الصائغ الذاهل نفسه في حجرة مليئة بأفخر أنواع الملابس فأخذ يتأملها في ذهول ، ثم يلمسها في حذر وهو يقول :

– من هذه يا مولاتي .. ؟ !

فقالت «قمرية» :

– نعم انتق ما شئت ..

وبينما كان الصائغ منهمكاً في انتقاء الملابس ، كانت «قمرية» تدس له السم في أطباق الطعام ..

وحين عاد حاملاً حملاً ضخماً من الملابس كانت «قمرية» تقف عند النافذة ، وهي تشهد موكب الملك «سيف» يستعد للخروج .. فقالت له :

– إجلس وكل ، فلا شك أنك جائع بعد العمل المتواصل طول الليل ..

وكانت على ثغرها ابتسامة مشجعة فاتنة ، فاندفع الصائغ نحو الطعام يلتهمه بينما كانت «قمرية» ترقب موكب الملك «سيف» يتجه للحاق بالجيش ، وعلى رأسه «سيف بن ذي يزن» ووراءه «برنوخ» والملك «أبو تاج» والملك «أفراح» و«إخميم الطالب» والحكيمة «عاقلة» ، وكانت أصوات الأبواق تتعانق على دقات الطبول في لحن مهيب .. والتفتت «قمرية» وقد شحب وجهها من الغيظ والحنق

لتجد الصائغ قد ارتمى إلى جوار الطعام يحتضر وقد جحظت عيناه وتقلص وجهه في ألم فظيع ..

وظلت «قمرية» ترقب الصائغ يموت في استمتاع وحشي ، وما إن لفظ آخر أنفاسه حتى أسرعت نحوه تجره من قدميه إلى خارج القصر حيث وضعته فوق أحد الفرسين المنتظرين عند الباب الخلفي وركبت هي الفرس الآخر ، وخرجت من السور الخلفي للمدينة مبتعدة في الخلاء حيث قذفت بالجثة بعيداً ثم عادت إلى القصر ، وصعدت إلى حجرتها ترقب نتيجة المعركة وهي تقول :

– إن أراحني « ميمون » الهجام منه فقد انتهى الأمر وعادت المدينة لي ، وإلا فبيني وبينه حساب لا ينتهي إلا بموته ..

° ° °

اصطف الجنود المتقاتلون في صفين متقابلين ، وقد برز في مقدمة جيش الأحباش الفارس «ميمون الهجام» وقد امتطى صهوة فيله ، وأمسك عبدان بمقود الفيل ، وبرز في مقدم جيش المسلمين الملك «سيف بن ذي يزن» فوق صهوة جواد أشهب ..

وصاح «ميمون» في عبيده فتركوا مقود الفيل ، وتقدم «ميمون» إلى وسط الميدان صائحاً :

– أنا « ميمون الهجام » لا يبرز لي إلا ملك هـذه المدينة « سيف بن ذي يزن » حتى ننهي سوياً أمر هذه المعركة ..

فدفع الملك «سيف» جواده بقدمه ، وبرز إلى «ميمون» صائحاً :

– أنا «سيف» أيها الفارس ، جئت أعرض عليك أن تسلم فتسلم وتترك دين الضلال كما فعل زميلاك «سابك الثلاث» و«دمنهور الوحش» ..

فصاح « ميمون » وهو يرفع سيفه بيده :

- أجئت تقاتل أم جئت تخاتل ؟

وتلقى الملك «سيف» الضربة فوق ترسه ، واستدار بفرسه بعيداً عن الفيل .. وأخذ يدور حول الفيل وهو يتلقى ضربات «ميمون» القوية فوق درعه .. وكان الملك « سيف » يتجنب إحدى الطعنات حين وقعت فوق عنق جواده .. فقطعت العنق وسقط الجواد صريعاً ، فقفز الملك « سيف بن ذي يزن » من فوق صهوة جواده ، وقلوب فرسان المسلمين قد قفزت إلى حلوقهم خوفاً عليه ، وقد تقدم « سعدون » بجواده قليلاً في توتر وتحفز .. واندفع « ميمون » بفيله بسرعة يريد أن يدوس الملك « سيف » بأقدام الفيل ، وظل الملك « سيف » مكانه مشرعاً حربته حتى اقترب منه الفيل فدفع بالحربة بكل قوته في عين الفيل ثم راغ بعيداً عن متناول سيف « ميمون » وعاد يلتقط سيفه بيده وينتظر ..

كان الفيل مندفعاً بسرعة عظيمة كما كان «سيف» يضع كل قوته وراء ضربة الحربة ، فنفذت في عين الفيل الذي تهاوى إلى الأرض مصدراً صوتاً مخيفاً ، سرعان ما أخذ يخفت في حشرجات الاحتضار .. بينما قفز «ميمون الهجام» فوق الأرض ممتشقاً سيفه ، وقد ملأه الغضب لمصرع فيله الذي صحبه في كل معاركه وحروبه ..

والتقى السيفان في صرير مخيف ، وقعقع السلاح والفارسان يتبادلان الضربات المميتة ، وكل منهما يحاذر أن يكشف لخصمه عن مصرع فيه .. كما يجتهد أن يضرب خصمه بكل عنف وقسوة . وكان الملك «سيف» يقاتل «ميمون» وهو يحاذر أن يقتله ، فقد كان يريد أن يأخذه أسيراً . وسرعان ما أصبحت ضربات «ميمون الهجام» أكثر فعالية ، وقد أحس أن غريمه لا يضربه في مواطن الخطر . وكان «سيف»

يوجه إحدى الضربات حين ركز «ميمون» كل ضربته لمقبض حسام الملك «سيف» فطار في الهواء ووقع على الأرض ، وأصبح الملك «سيف» يواجه «ميمون الهجام» أعزل .. بينما أخذ «ميمون الهجام» يتقدم نحوه في بطء وهو يلوح بسيفه في الهواء استعداداً لتوجيه ضربة قاتلة تنهي المعركة التي أصبحت غير متكافئة ..

والتفت «سقرديوس» إلى «سقرديون» قائلاً في فرحة غامرة :

– لقد انتهى أمر «سيف» أخيراً ..

فقال «سقرديون» :

– سنجز رقاب جنده ، كما نجز صوف الأغنام .. فقد اتفقت مع ..

ولم يكمل جملته ، حتى ارتفعت صيحة من ميدان المعركة جعلتهما يلتفتان معاً .. فإذا بـ «سيف» قد راغ من ضربة «ميمون» وأمسك يده القابضة على السيف بكلتا يديه ، وثناها بسرعة فائقة ملقياً بـ «ميمون» على الأرض ومخلصاً السيف من يده .. ثم وقف على رأس «ميمون» والسيف في يده ..

فقال «سقرديوس» :

أسرع إلى السحرة ..

وبينما كان «سقرديون» يتجه إلى السحرة ليصدر لهم أمره بشل حركة قواد الجند من المسلمين ، كان «سقرديوس» يسرع إلى جنود الأحباش وهو يرقب ميدان المعركة ، فإذا بـ «سيف بن ذي يزن» يقذف بالحسام بعيداً ، وينقض على «ميمون» في حركة خاطفة فيلصقه بالأرض حيث وقع ، و«ميمون» يحاول الخلاص باستعمال عضلاته القوية دون جدوى ، ثم انثنى «سيف» يضم ساعدي «ميمون» بيديه ، وسرعان ما كان واقفاً وقد رفع «ميمون» فوق ساعده متجهاً به نحو صفوف جيشه ،

جيشه ، والصيحات تتعالى بفرحة النصر من جند المسلمين ..

• • •

قال «سقرديون» :

- لقد تم الأمر ، وألقى السحرة بالخمول على فرسان المسلمين وقوادهم ..

فقال «سقرديوس» :

- عليهم أن يهاجموا «برنوخ» إلى أن يقتلوه حتى يشغلوه عن إنقاذ القواد والفرسان .. أما أنا فسأهاجم المسلمين على رأس الجيش للقضاء على الجنود قبل أن يستعيد القواد والفرسان قواهم ..

وصاح «سقرديوس» معلناً بدء الهجوم ، واندفع وراءه كل جيش الأحباش في هجمة مرعبة كأنها الموج الزاخر ، وتلقاهم عساكر المسلمين يدافعون عن أنفسهم ، وقد أخذهم العجب من وقوف قوادهم وملوكهم بلا حراك ..

وفهم «برنوخ» معنى هذا ، فتقدم إلى الميدان ليرفع عن قواد المسلمين ما هم فيه من كرب إلا أن السحرة كانوا قد استعدوا له .. فما كاد يبرز إلى الميدان حتى أخذ الثمانون ساحراً يرمون عليه أبواب السحر تباعاً وهو يفك هذه الأبواب ، وقد اشتد عليه الهجوم وزاد عليه العدد وهو لا يكاد يخرج من مأزق حتى يقع في آخر ، وقد انقلب ميدان المعركة إلى معرض لظواهر غريبة .. فهو مرة يمتلئ بجمرات النيران تتساقط من كل فج صوب «برنوخ» فما تكاد تصل إليه حتى يحيلها «برنوخ» إلى قطرات ماء ، وهو مرة يمتلىء بأحجار مهولة تتراكم نحو «برنوخ» الذي يضع أمامها سوراً من حديد ، فتتساقط عليه هباء ، وهو مرة يمتلئ بجنيات وثعابين وعقارب تتلوى وتتثنى قاصدة «برنوخ»

الذي يحيلها حين تكاد تصل إليه إلى قطع من الأخشاب والأعشاب صماء يابسة لا خطر منها ..

وكثر العدد على « برنوخ » واشتد عليه الطلب وهو صامد صابر يدافع عن نفسه بكل ما تعلم من حيل وطرق مستعيناً بكل خبرته وقدرته إلى أن أخذ التعب يحل به ، وعرف في نفسه التقصير وأحس أن المسألة مسألة وقت قبل أن يسقط صريعاً .. إن لم يكن بحيلة من حيل السحرة فمن التعب والجهد والعناء ..

* * *

قالت « طامة » لأمها « عاقلة » :

– إلى متى يا أمي ستظلين في موقف المتفرج و« برنوخ » يكاد السحرة يقضون عليه .. ؟

فقالت الحكيمة « عاقلة » :

– إنهم تلاميذه ، وليس منهم من يستطيع أن يمسه بسوء .. ولولا كثرة العدد لقضى عليهم ..

فقال « اخميم الطالب » :

– سأنصرف أنا إلى فك السحر عن قواد المسلمين وفرسانهم ، وعليك أنت إنهاء أمر هؤلاء السحرة ..

فقالت الحكيمة « عاقلة » :

– إن الوقت مناسب الآن ، فهم مشغولون بـ « برنوخ » وقد أحسوا بقرب انهزامه ، ولن يلتفتوا إليك ليعوقوك عن فك الفرسان كما لن يلتفت أحد إليّ حتى أقضي عليهم ..

وبينما ذهب « اخميم الطالب » إلى خيمته يعمل على إزالة سحر السحرة عن الملوك والفرسان والقواد ، ذهبت الحكيمة « عاقلة » إلى خيمتها ،

واستدعت عوناً من أعوانها من الجان وطلبت إليه أن يدلها على أسماء السحرة .. وصارت تقص رقعاً على هيئة شخوص آدمية ، ثم جلست تكتب على الثمانين رقعة من علوم أقلامها وسحرها ، وما أن انتهت من هذا حتى اتجهت هادئة إلى الميدان ..

° ° °

كان « برنوخ » قد أوشك على الموت حين رأى شخصين قادمين نحوه من ناحية عسكر المسلمين ، وحين أمعن النظر فيهما عرف الحكيمة « عاقلة » و« اخميم الطالب » .. وما كاد الاثنان يقتربان منه حتى أطلقت الحكيمة « عاقلة » من بين يديها الثمانين رقعة ، ووقفت تعزم عليها فإذا بها تطير كالسهام وكل منها تتجه نحو صدر أحد السحرة فتنفذ منه كالسكين القاطع .. وسرعان ما يتهاوى الساحر على الأرض جثة هامدة .. !

وارتفعت من صفوف المسلمين صيحات عنيفة ، وقد أخذ كل ملك وكل فارس يتجه مسرعاً إلى جيشه يلم شعثه ويعدل صفوفه ويقوده في هجوم عنيف على جيش الأحباش وقد انفك عنهم السحر وزال الكرب ..

والتفت « برنوخ » إلى « عاقلة » وقال لها :

– لقد جئت أيتها الحكيمة في الوقت المناسب تماماً ..

ثم التفت إلى « اخميم الطالب » قائلاً :

– لا شلت يداك أيها الحكيم .. إن ساعة النصر قد دنت ..

° ° °

نظر « سقرديوس » إلى فرسان المسلمين يكرون في عنف وقوة على جيش الأحباش فذهل ، والتفت بحصانه إلى الميدان فرأى « برنوخ » و« عاقلة » و« اخميم » يقفون وسط الميدان سالمين ، ورأى « سقرديون » يهرع إليه صائحاً :

– لقد مات السحرة ، الثمانون ..

فاشتد ذهول «سقرديوس» وقال :

– كيف ... هل استطاع «برنوخ» وحده القضاء عليهم

فقال «سقرديون» وهو ينتفض ذعراً :

– لقد قتلتهم الحكيمة «عاقلة» ، وفك «اخميم الطالب» أسر القواد والفرسان ..

فصاح «سقرديوس» وقد تملكه خوف قاتل :

– لقد ضعنا ولن ينجينا من يد «سيف بن ذي يزن» شيء .. !

فقال «سقرديون» :

– ليس أمامنا إلا الهرب ، وهو مشغول عنا بالجنود ، قبل أن يبدأ في البحث عنا ..

ولم يكمل «سقرديون» حديثه حتى كان «سقرديوس» قد لوى جواده وانطلق لا يلوي على شيء ، فتبعه «سقرديون» مسرعاً .. وأطلقا جواديهما للريح متجهين نحو مدينة الدور ليحتميا بـ «سيف أرعد» قبل أن تنتهي المعركة ..

واشتد الأمر على جنود الحبشة ، فقد كان الملك «أفراح» يهاجمهم على رأس جيشه من اليمين ، بينما كان الملك «أبو تاج» يهاجمهم على رأس جيشه من اليسار ، وكان «سيف بن ذي يزن» ينقض عليهم في الوسط وإلى جواره «سعدون» و«سابك الثلاث» و«دمنهور الوحش» ووراءهم فرسان «سعدون» يضربون كالشياطين ..

وأخذ جنود الحبشة يتضعضعون تحت وطأة الهجوم ، وقد أذهلهم أن يروا فرسانهم يحاربون في صفوف المسلمين ، وصاح صائح فيهم :

– هرب «سقرديوس» و«سقرديون» ..

وصاح آخر :

– مات السحرة الثمانون ..

وأحس الجنود أنهم يحاربون معركة خاسرة ، ففرسانهم أسلموا ، وقوادهم هربوا ، والسحرة الذين كانوا يطمئنون إلى وجودهم ماتوا .. وسرعان ما دبت روح الهزيمة فيهم وأخذوا يتراجعون هاربين ، وسيوف المسلمين تصرعهم من كل جانب وتنزل فيهم الذبح والتقتيل حتى غدا تراجعهم هروباً مخيفاً غير منظم ، وانقسموا إلى جماعات كل جماعة تهرب في اتجاه ووراءها فرسان المسلمين .. وما هي إلا ساعات حتى خلا الميدان إلا من أشلاء القتلى وأجساد الصرعى .. وخيام جيش «سيف أرعد» سقطت غنيمة باردة بكل ما فيها من ذخائر في يد الجيش المنتصر ، جيش «سيف بن ذي يزن» ..

ودقت الطبول مبشرة بالنصر ، وارتفع صوت الأبواق تعلن انتهاء المعركة ، بينما صدرت الأوامر بحصر الغنائم وإدخالها إلى المدينة المنتصرة التي أخذ سكانها يرقصون ويهللون وقد أذهلهم النصر .

٣٠

بعد النصر

استقبلت المدينة الملك «سيف بن ذي يزن» وقواده وجنوده أروع استقبال ، فقد كان اليوم بالنسبة لكل من بالمدينة يوم عيد .. وزاد هذا هذا العيد بهجة أن الملك «سيفا» حين وصل إلى قاعة العرش في قصره أمر بإحضار الغنائم في الحال ، وبدأ في توزيعها على القواد والجنود ، ثم على جميع أهالي المدينة .. وكانت الغنائم كثيرة جداً بحيث مس نصيب كل أسرة شغاف القلوب بالفرحة والغبطة .. ثم وصلت الفرحة إلى قمتها حين دخل الحاجب إلى مجلس الملك «سيف» وقال :

– مولاي .. البشارة ..

فقال «سيف بن يزن» وهو يلتفت إليه :

– أي بشارة ؟ ..

فقال الحاجب :

– جاءك مولود ذكر يا مولاي الآن ..

فصاح «سيف» مبتهجاً :

– الآن وضعت «ناهد» .. إن فرحتنا بالنصر غدت فرحتين ..

فقال «برنوخ» الساحر :

– لنسمه «نصراً» يا مولاي ..

فصاح «سيف» :

– وهو نصر من عند الله .

وأسرع الملك «سيف» يغادر القاعة متجهاً إلى جناح الملكة «ناهد» ليطمئن على الوالدة والمولود ، بينما التفت «سعدون» إلى «دمنهور الوحش» و«سابك الثلاث» قائلاً :

– ما الأمر بالنسبة للفارس «ميمون الهجام» ..

فقال «سابك الثلاث» :

– إنه في الأسر والقيود ..

فقال «دمنهور الوحش» :

– وليس مكانه أعماق السجون ، وليس له ذل الأسر ..

فقال «سعدون» :

– وأنا مثلك أشفق عليه من عذاب القيد وذل الأسر ، ولكن أخاف أن يقتله الملك «سيف» ان لم يسلم ، ومثله خسارة في الموت ..

فقال «سابك الثلاث» :

– إن «ميمون الهجام» فارس نادر المثال ..

فقال «سعدون» :

– أتحدثني عن «ميمون الهجام» ؟ .. لقد التقيت به في ميدان القتال وعرفت قيمته وقدره ..

فقال «دمنهور الوحش» :

– وماذا ترى إذن في أمره ، فإني أخشى أن يرفض الإسلام كثمن لحياته .. فليس مثله من يشتري حياته بأي ثمن ..

فقال «سعدون» :

– وهل اشتريت حياتك أنت بالإسلام ؟

فقال «دمنهور الوحش» وهو يشير إلى «سابك الثلاث» :

– لقد جنبني «سابك الثلاث» هذا الموقف حين جاءني وأنا في الأسر ، وعرض عليّ الإسلام دون وعيد فشرح الله قلبي له..

فقال «سعدون» :

– علينا إذن أن نجنب «ميمون الهجام» هذا الموقف ، عَلَّ الله يهديه إلى الإسلام .. هيا بنا إليه ..

وقام الفرسان الثلاثة متجهين إلى حيث وضع «ميمون الهجام» في الأسر ليتحدثوا إليه ..

° ° °

حين عاد الملك «سيف» إلى قاعة العرش كانت الفرحة تتملك عليه نفسه ، وتأخذ عليه مجامع قلبه .. وجلس الملك «سيف» فجلس كل الفرسان والقواد والحكماء الذين وقفوا له وهو يدخل القاعة ، ووقف «اخميم الطالب» قائلاً :

– أتأذن لي يا مولاي ؟ ..

فقال «سيف» :

– ماذا تريد أيها الحكيم اخميم ؟ ..

فقال «اخميم الطالب» :

– لقد جئتك أحمل أمانة كانت لك عندي .. والآن وقد منّ الله عليك بالنصر حان الوقت لأسلمك الأمانة وأعود من حيث أتيت ..

فقال «سيف بن ذي يزن» :

– أنت تعني الملكة «جيزة» .. نعم الأمانة ، واليوم يكمل بها فرحي ، ولتقم الزينات ابتهاجاً بزواجها .. وأنا أطلب يدها منك أمام الجميع ، فهل تقبل أيها الحكيم «أخميم الطالب» أن تزوجني ابنتك «جيزة»

فقال «اخميم الطالب» والفرحة تبدو في عينيه ونبرات صوته :

– قبلت يا مولاي وهي منذ اللحظة خادمتك .

فقال «سيف» :

– بل ملكة آمرة واطلب مهراً لها ما تشاء ..

فقال «أخميم الطالب» :

– لو أذن لي مولاي ، فالمهر الذي أطلبه هو رضاء الحكيمة «عاقلة» ..

فالتفت الملك «سيف» إلى الحكيمة «عاقلة» قائلاً :

– ونحن جميعاً نطلب رضاء الحكيمة «عاقلة» ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» :

– إن رضائي في سعادة الملك «سيف» ، و«طامة» ابنتي من زوجاته إن لم يكن اليوم فغداً ..

فقال الملك «سيف» :

– لقد أقسمت ألا أتزوج «طامة» حتى تعطيني القلنسوة ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» :

– وهي قد أقسمت ألا تعطيك القلنسوة إلا بعد أن تتزوجها ..

فقال «سيف» :

– ويبدو أن هذا المأزق لا حل له ..

– وإلى أن نجد حلاً له ، فأنا أبارك زواجك من ابنة أخي «أخميم الطالب» ..

فقال «برنوخ» :

– لنعقد لك العقد عليها الليلة لتتم أفراحنا وتكتمل بهجتنا ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» :

– وأنا بنفسي سأذهب مع «أخميم الطالب» ومعي «طامة» لنزينها ولنعدها للعرس ..

وغادرت الحكيمة «عاقلة» القاعة مع «أخميم الطالب» بينما كان «برنوخ» يقول :

– إن مشكلة «طامة» بنت الحكيمة «عاقلة» لا بد لها من حل ، وسأجهد ذهني لأجد الحل الذي يوفق بينكما ، فإن زواجك من «طامة» نعم الجائزة للحكيمة عاقلة على ما قدمت من خدمات ..

وما أن انتهى «برنوخ» من حديثه حتى ثارت عند باب القاعة ضجة واندفع الحراس نحو الباب .. ولكن سرعان ما انفرج جمعهم عن «قمرية» وهي تدخل مهرولة إلى حيث جلس «سيف» حافية القدمين عارية الرأس ، وهب كل من بالمجلس وقوفاً وقد تملكتهم الدهشة .

وما إن وصلت «قمرية» إلى مكان ابنها «سيف» حتى صاحت وهي تبكي وتنتحب :

– لقد جئتك يا ولدي ومعي كفني ، فأمر بقتلي لتستريح ، وتريحني من هذا الشيطان الذي يوسوس لي بكل شر .. واقتلني يا ولدي فأنا لا أستحق إلا القتل ..

فصاح «برنوخ» :

– لقد حكمت على نفسها بالموت ، وهذا هو الجزاء الذي تستحقه ..

فقال الملك «أفراح» في غضب :

– بل إن الموت ليس جزاءً مناسباً لمثلها ، فالموت لا يكفر عما رتكبت من شرور .. ولكن ما دامت اختارت الموت ، فالموت مصيرها ..

واستل الملك «أفراح» سيفه ، واندفع نحو «قمرية» وشرار الغضب يقفز من عينيه .. ولكن الملك «سيفا» هب واقفاً وهو يصيح :

– مكانك يا ملك «أفراح» .. لقد جاءتنا مسلمة نفسها فلنسمع لها ..

فصاح «أفراح» :

– نسمع لها ، وماذا تستطيع أن تقول ؟ !

فقال «سيف» :

– سنرى ..

ثم التفت إلى «قمرية» قائلاً :

– والآن ماذا تريدين أيتها الملكة .. ؟

فابتسمت «قمرية» لنفسها وهي تحسب انها أوشكت أن تكسب المعركة ، وازداد صراخها وبكاؤها وهي تقول معولة :

– لست أريد إلا ما ينتويه الملك «أفراح» لي .. الموت .. إلا أنني جئت أعطيك الذي سلبته منك في نوبة من نوبات تملك الشيطان لجوارحي وعقلي ..

وخلصت «قمرية» اللوح المقلد الذي كانت تربطه حول زندها وقدمته للملك «سيف» الذي أصابته دهشة كبيرة من السهولة التي تسلم بها «قمرية» الذخيرة التي دوخته بها .. ولكن «برنوخ» صاح :

– لن تنطلي علينا حيلك أيتها المرأة الكافرة الملعونة ..

فصاح «سيف» :

– كفى يا «برنوخ» إنها أمي ..

واندفعت «قمرية» تقول :

– قد أكون ملعونة حقاً بحكم ما قدمت يداي من أفعال السوء ، ولكنني لست من اليوم كافرة ..

فصاح الملك «سيف» وقد طمع في إسلامها :

– ماذا تعنين ؟ ..

فأخذت «قمرية» تبكي ، وهي تقول من بين دموعها الغزار :

– لقد جاءني أبوك الملك «ذو يزن» أمس في المنام وقال لي : يا قمرية ، يا خائنة ، كفاك ما فعلت من آثام في حق ولدك وفي الرعية ، فنهايتك قد اقتربت وأجلك قد حان ، وبعد قليل تأتين هنا عندنا ولن تجدي لك مكاناً بيننا ، وإنما سيكون مكانك في النار وبئس القرار .. !

وعلا بكاء «قمرية» بينما سكت الجميع ذاهلين وقد سحرتهم «قمرية» بإتقانها لتمثيلها ، ومضت تقول وهي تمزج بين حديثها والبكاء :

– ثم ضربني بعرض سيفه فوق رأسي وقال لي : يا «قمرية» لا شيء يستطيع إنقاذك من هذا المصير المخيف إلا أن تؤمني وتسلمي ، فكفرك هو الذي يفرق ، في الآخرة ، بيني وبينك ..

وعادت «قمرية» تبكي وتنشج ، ثم هدأت قليلاً وعادت تقول :

– وقلت يا سيدي علمني لأسلم وأصبح مؤمنة مثلك ، فقال لي : بل اذهبي إلى ابنك «سيف» يعلمك الإيمان والإسلام ، ويطهر قلبك من نوازع الشيطان .. !

وسكتت «قمرية» وهي مطرقة برأسها إلى الأرض ، ثم رفعت عينيها المبللتين بالدموع ، وقالت وهي تنظر في عيني ابنها في استعطاف وانكسار :

– وقد جئت إليك ، أرد اللوح الذي أخذته منك ، وأتعلم الإسلام على يديك ، ثم تسلمني للقصاص حتى ارتاح وأذهب للقاء زوجي «ذي يزن» راضية قريرة العين ..

واندفع «سيف» نحوها وقد نسي كل حقده عليها صائحاً :

– أماه .. أتسلمين حقاً .. ؟

وعرفت «قمرية» انها انتصرت ، فأخفت فرحتها وهي تهمس مطأطئة الرأس :

– إن مننت عليّ وعلمتني أيها الملك ..

فصاح «سيف» :

– بل قولي يا بني .. حقاً ما أزهى هذا اليوم وأنضره ، لقد منّ الله عليَّ فيه بإسلام أمي كما منَّ عليَّ بالولد والزوجة والنصر ..

وارتفع صوت «برنوخ» قائلاً :

– أينطلي عليك هذا العبث يا مولاي ؟ ! . إنها تخدعك ..

فالتفت إليه «سيف» مغضباً وهو يقول :

– إنها أسلمت ..

فصاح «برنوخ» قائلاً :

– إن مثلها لا يعرف معنى الإسلام ، ولن يدخل الإيمان قلبها قط ..

فصاح فيه «سيف» مغضباً :

– وأسلمتني اللوح ..

فعاد «برنوخ» يقول في إصرار :

– خدعة من خدعها .. إنها امرأة شريرة ماكرة .. !

وصاح الملك «أفراح» :

– ولا جزاء لها إلا القتل ..

فقال «سيف بن ذي يزن» وهو ينظر في وجوه أعوانه وقواده :

– إنها أمي .. أيريد أحدكم أن يقتل أمي .. ؟ !

فصاح الملك «أفراح» :

– ليست تريد إلا قتلك ، وإنها لتدبر مصرعك من الآن ..

فقال «سيف» وقد ازداد غضبه :

– إنني أصدقها ، وأمنع عنها كل شر ، بل هي أمي وأنا أفديها بحياتي ، فليقتلني أولاً كل من يريد قتلها ..

وكان الملك «سيف» يقف وسط القاعة يجيل بصره في الموجودين ، وقد اشتد به الغضب وامتدت يده إلى مقبض سيفه في تحد... فقال «برنوخ» مهدئاً :

– لقد حذرناك يا مولاي والأمر ما ترى ..

فصاح «سيف» :

– وأنت أيها الملك «أفراح» ؟

فقال الملك «أفراح» :

– إننا نخشى عليك أنت .. وأنت صاحب الشأن في أمر سلامتك ..

وصاح «سيف» وهو يجول بعينيه في الموجودين :

– لقد عفوت عن أمي ، ولها أن تعيش في القصر بكل حرية ، أهناك من يعترض .. ؟!

ولم يجبه أحد ، فالتفت إلى «قمرية» قائلاً :

– اذهبي إلى حجرتك في هذا القصر يا أماه ، وسألحق بك بعد قليل لأعلمك الإسلام ..

وخرجت «قمرية» وهي تبتسم لنفسها .. بينما ثبت الملك «سيف» اللوح على زنده وهو يحسبه لوح عيروض ، ثم جلس صامتاً فوق العرش والكل من حوله في سكوت كامل وصمت مخيم ..

* * *

حين عاد الفرسان الثلاثة «سعدون» و«سابك الثلاث» و«دمنهور الوحش» إلى القاعة ، أدهشهم أن يجدوا الكل في صمت غريب ، فأخذوا أماكنهم في سكون .. ثم رفع «سعدون» رأسه قائلاً :

– مولاي ، لقد جئنا إليك في أمر الفارس «ميمون الهجام» ..
وكان الغضب ما زال محتدماً في صدر «سيف» من موقف «برنوخ» و«أفراح» من أمه فصاح :
– ليقتل ، وفي الحال ..
فقال «سعدون» :
– ولكن يا مولاي إن مثله خسارة في الموت ..
فقال «سيف» مغضباً :
– ألم يكن ينتوي قتلي في الميدان ؟
فعاد «سعدون» يقول :
– ولكنك أسرته يا مولاي في مبارزة شريفة ، وله حق الفرسان ..
فقال «سيف» وقد أضجره النقاش :
– ليس لكافر حق ..
– مولاي لقد جئنا نبشرك ، فقد أسلم «ميمون الهجام» ..
فصمت الملك «سيف» لحظة والغضب يزول عنه تدريجياً ، وقال :
– هذا خبر حسن ..
ثم عاد يقول :
– بل هو خبر رائع ، فـ«ميمون» نعم الفارس ..
وانطلقت أسارير الملك «سيف» وعلاه البشر وهو يقول :
– أحضروا الفارس «ميمون» هنا ، وفكوا قيوده ..
واندفع «سابك الثلاث» و«دمنهور الوحش» إلى خارج القاعة ، وعادا وفي وسطهما «ميمون الهجام» مطلق السراح ، فقال «سيف» :
– مرحباً بك أيها الفارس في صفوفنا وبين رجالنا ..
فقال «ميمون» :

– ونعم الرجال يا مولاي رجالك ، ونعم الفارس أنت ..

فقال «سيف» :

– لقد عزز الله نصرنا بإسلامك فأنت جيش وحدك .. ومن الآن مكانك إلى جواري مع «سعدون» و«سابك الثلاث» و«دمنهور الوحش» .

وأمر الملك «سيف» لـ «ميمون» بعدة فارس كاملة ، وأمر بأن يفرد له مكان إلى جوار زملائه الفرسان .. وابتدأ الملك «سيف» ينسى ما أحدثه قدوم أمه من أثر حين دخلت الحكيمة «عاقلة» قائلة :

– هل نسيت أيها الملك أن الليلة زفافك إلى الملكة «جيزة» ، لقد استعدت العروس لاستقبالك ، فهيا نعقد العقد ونقيم الأفراح فالليلة ليس كمثلها بين الليالي ..

٣١

مكيدة جديدة

قضى الملك «سيف» مع عروسه الجديدة «جيزة» سبعة أيام كاملة لا ينزل فيها إلى الديوان ، والمدينة خلال الأيام السبعة في أفراح لا تنقضي وولائم لا تنتهي ، فقد أمر الملك «سيف» بمد أسمطة الطعام ليل نهار لأهل المدينة والغرباء والوحوش والطيور تأكل جميعاً دون مانع أو حائل ..

وفي اليوم السابع ، اكتمل عقد الفرسان والملوك والحكماء بقاعة العرش في انتظار نزول الملك «سيف» ليهنئوه (بالسبوع) ..

وقال «سعدون» لـ «برنوخ» وهما يقفان في جانب من القاعة :

– الذي يحيرني هو كيف استطاعت «قمرية» أن تفوز بعفو الملك «سيف» ..

فقال «برنوخ» وهو يتنهد :

– لقد حاولت أن أنبهه إلى مكرها وخستها ، ولكن لا فائدة ، فقد أعمته ببكائها وحكاية الحلم الذي رأت فيه أباه ..

فقال «سعدون» :

– لست أطمئن لها ، ولا اكتمك أنني في كل صباح أخشى أن أسمع أن مكروهاً قد حل به ..

فقال الملك « أفراح » الذي انضم إليهما وبصحبته الحكيمة « عاقلة » :

– إنني معك في توقع الشر من هذه الداهية الأريبة ..

فقال « برنوخ » :

– لا بد لنا أن نراقبها مراقبة دقيقة لنعلم مكيدتها التالية ..

فقالت الحكيمة « عاقلة » :

– إن ابنتي « طامة » أخبرتني بالأمس أنها شاهدت « قمرية » تحوم كثيراً حول جناح الملكة « ناهد » ..

فقال « برنوخ » :

– لعلها تقصد السوء بالأمير « نصر » .. فعلينا حمايته ..

فقالت الحكيمة « عاقلة » :

– كفاكم حديثاً فقد وصل الملك ..

ودقت الطبول وارتفعت أصوات الأبواق معلنة قدوم الملك ... فاصطف الجميع كل في مكانه الذي يخوله له مركزه ، بينما دخل الملك « سيف » متجهاً إلى كرسي العرش ، وحين وصل إلى كرسي العرش رفع يديه محيياً الجميع ثم جلس ، فجلس الجميع لجلوسه ، وقال الملك « سيف » :

– لقد طال غيابي عنكم ، ولكن لكل شيء أوان ..

ثم ضحك الملك « سيف » وهو يقول :

– هل طاب لك المقام بيننا أيها المقدم « ميمون » .. ؟

فقال « ميمون الهجام » :

– لقد شملني كرمكم يا مولاي ، إلا أن الحنين قد زاد بي لأرض الوطن ، وأريد أن أستأذنكم في العودة إلى مقري لأعرض الإسلام على أتباعي وأهلي ، ثم أعود بهم ليكون مقامي الدائم بجوارك يا مولاي ..

ووقف «سابك الثلاث» قائلاً :

– ولي مثل هذا الطلب يا مولاي ..

فالتفت الملك «سيف» إلى «دمنهور الوحش» قائلاً :

– وأنت أيها الفارس ؟

فقال «دمنهور الوحش» :

– إن أذن مولاي .. فلا بد أن أنباء المعركة قد بلغت أهلنا وظنوا هلاكنا ..

فقال الملك «سيف» :

– حسناً .. ليتوجه كل منكم منذ الغد إلى أرضه ووطنه على أن تكون عودتكم بعد عام ..

فوقفت الحكيمة «عاقلة» قائلة :

– أيسافر الفرسان يا مولاي دون أن يحضروا أفراح ابنتي «طامة» ؟

فابتسم الملك «سيف» وهو يقول :

– ولكن «طامة» ترفض أن تعطيني القلنسوة إلا بعد أن أتزوجها ، وقد أقسمت ألا أتزوجها إلا بعد أن تعطيني القلنسوة ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» ملتفتة إلى «برنوخ» :

– لقد وعدني «برنوخ» أن يجد حلاً لهذه المشكلة ..

فقال «برنوخ» :

– إذن ليمهلني مولاي حتى الغد ..

فقال «سيف» ملتفتاً إلى الفرسان الثلاثة :

– أو يرضى الفرسان أن يؤجلوا ارتحالهم إلى ذلك الحين .. ؟

فقال «ميمون الهجام» :

– نعم يا مولاي لقد غدونا من اسرتكم ، وكل ما يهم أي فرد منها يهمنا ، وأفراحكم أفراحنا ..

وهنا دخل الحاجب إلى القاعة قائلاً :

– مولاي ، البشارة يا مولاي ..

فقال الملك «سيف» :

– خيراً ..

فقال الحاجب :

– لقد رزقك الله الآن بمولود ذكر ..

فصاح الملك «سيف» فرحاً :

– إذن فقد وضعت «منية النفوس» في سلام .. لك خلعة البشارة أيها الحاجب ..

فقال «برنوخ» :

– لو أذن لي مولاي فلنسمه «مصراً» :

فقال «سيف» :

– فهو «مصر» إذن .. والآن لتسمحوا لي فلا بد أن أطمئن على الوالدة والمولود ..

كان القصر يموج بالحركة والحياة وقد هزته أخبار مولد الأمير «مصر» ، فانتهزت «قمرية» الفرصة وتسللت إلى جناح الملكة «ناهد» دون أن يراها أحد .. وكانت «قمرية» قد أحكمت خطتها معتمدة على براءة «ناهد» بنت ملك الصين وسذاجتها وإحساسها بالغربة عن أهلها ووطنها ..

وما إن رأتها «ناهد» حتى هبت واقفة ، وهي تقول :

– مرحباً بالملكة «قمرية» في مكاني المتواضع هذا ..

فقالت «قمرية» في دهاء :

– وأين هذا الجناح من قصر أبيك ملك الصين .. ؟

فقالت «ناهد» :

– والله يا مولاتي إن قرب الملك «سيف» أحب إلى قلبي من كل قصور الأرض ..

فابتسمت «قمرية» ابتسامة صفراء وهي تقول :

– وهل تنعمين بقرب الملك «سيف» .. ؟

فنظرت إليها «ناهد» بجفلة ، ثم أطرقت برأسها صامتة ، فاقتربت منها «قمرية» وربتت على كتفيها قائلة :

– إنني مثل والدتك يا بنية فلا تخفي عني ضيقك ، فـ «سيف» ولدي وأنت بمنزلة ابنتي ..

فرفعت «ناهد» رأسها وهي تقول :

– والله يا ملكة إن الأحداث صرفت عنا الملك «سيف» .. فقالت «قمرية» في خبث :

– الأحداث ، أم الزيجات الجديدة .. واليوم ولد له ولد جديد من «منية النفوس» فنسي الأمير «نصر» ..

فقالت «ناهد» وهي تتنهد :

– إنه لم ير «نصراً» منذ ولد إلا مرة واحدة ..

فقالت «قمرية» في هدوء :

– لا يضايقك هذا يا بنية ، فلو أنك بعيدة عن ديارك إلا أنك تستطيعين اعتباري في منزلة أمك هنا ، وسأجعل الملك «سيفا» يزورك الليلة ليرى ابنه ويراك ..

فصاحت «ناهد» فرحة :

– أحقاً ؟ لو حدث هذا فعلاً لطوقني جميلك ..
فقالت «قمرية» .
– بل إني سأعيد إليك قلب زوجك فلا يميل إلى غيرك من زوجاته .
فقالت «ناهد» :
– كيف .. ؟
فاقتربت منها «قمرية» وهي تقول :
– أنت تعرفين كيف يكرهني كل المحيطين بالملك «سيف» ويتمنون قتلي حتى يستأثروا بعقله ويملكوا مقوده ، وهم يعتمدون في دسائسهم ضدي على تصرفات طائشة صغيرة تصدر مني لمرض يصيبني ، ودوائي عند «سيف» ابني .. ولكني أخاف أن أطلبه منه فيظن بي السوء ..
فقالت «ناهد» :
– وهل يصدقهم ؟
فتنهدت «قمرية» في حزن مصطنع ، وقالت :
– وهل تصدقين أنت أن هناك أماً تكره الخير لابنها ، لقد أصبحت أنت أماً فهل تمسين ابنك بسوء .. ؟ !
فصاحت «ناهد» :
– بل أفديه بروحي ..
فابتسمت «قمرية» وهي تقول :
– وهذا شعور كل أم ، ولكني امرأة وحيدة لا حول لها ولا طول وسط قوم يعتبرونني غريبة عنهم ويخافون على نفوذهم مني .
فقالت «ناهد» وهي تطرق برأسها إلى الأرض :
– نعم ، إنني أعرف هذا الإحساس ، إحساس الغربة بين قوم ليسوا من الأهل ولا الوطن ..

فقالت «قمرية» وقد أيقنت أنها خدعت «ناهد» تماماً :
– ودوائي يا ناهد في يدك ..
– كيف يا ملكة ؟
فقالت «قمرية» متلطفة :
– بل قولي يا أمي ..
فرفعت «ناهد» رأسها ، وابتسمت وهي تقول :
– حسناً يا أمي أخبريني ما هو دواؤك ، وكيف يكون في يدي ولا أعطيه لك ؟ !
فقالت «قمرية» :
– يتمنطق الملك «سيف» بمنطقة من رق الغزال ، لو وضعتها على جسدي ساعة لزال عني الشيطان إلى الأبد ..
فنظرت إليها «ناهد» وهي تقول :
– وكيف الحصول على هذا الرق ؟
فقالت «قمرية» :
– عندما يأتي عندك الملك «سيف» الليلة ، وسأجعله يأتي إليك ، لا تتركيه ينصرف بل حاولي أن يقضي الليلة عندك .. وعندما ينام تحضرين لي المنطقة ، وسأكون واقفة بالباب أنتظرك ، فأرتديها ساعة وأعيدها قبل أن يستيقظ ..
وأسرعت «قمرية» تكمل حديثها قائلة :
– وعندما ينتهي مرضي ويعلم ابني «سيف» بسر شفائي ، سيكون مركزك عنده بحيث لا يطاول منزلتك في قلبه إنسان آخر ..
فقالت «ناهد» وقد أسعدها أن تقدم لـ «سيف» الذي شفاها من العمى خدمة مقابل شفائها ، بالعمل على شفاء أمه .

– هذا أمر بسيط يا أمي ، فقط اجعليه يأتي إليّ الليلة ..

• • •

كان الملك «سيف» خارجاً من حجرة «منية النفوس» منشرح النفس مسرور الخاطر برؤية ابنه الوليد «مصر» وباطمئنانه على سلامة أمه «منية النفوس» حتى اعترضت «قمرية» طريقه قائلة :

– تهاني القلبية لك أيها الملك السعيد .. إنني أدعو لك من كل قلبي بالسعادة واليمن وكثرة الولد .

فقال لها الملك «سيف» :

– هذا بفضل رضاك يا أمي ..

فعادت «قمرية» تقول :

– إلا أنني يا بني أحب أن تكون الإنسان الكامل الذي لا يغضب منه أحد ، ولا يتسبب في إيلام من يحبونه ويودون سعادته ..

فقال الملك «سيف» مندهشاً :

– هل بدر مني ما يضايقك ؟

فقالت «قمرية» ضاحكة :

– وهل يصدر منك لي إلا كل خير ، إنني لا أعني نفسي ..

فقال «سيف» :

– ومن تعنين إذن .. ؟

فعادت «قمرية» تضحك وهي تقول :

– الملكة «ناهد» بنت ملك الصين .. من يوم جاء ابنها «نصر» لم تسأل عنها ، ولم تطيب خاطرها بكلمة أو زيارة رغم أنها وحيدة يا بني ، وليس إلى جوارها أب أو أم أو صديق تشكو إليه ..

- هذا حق يا أمي .. لقد قصرت في حقها لا شك ، وسوف أقضي هذه الليلة عندها فهي لا تستاهل إلا كل خير ..

فابتسمت «قمرية» ابتسامة عريضة تخفي سماً زعافاً ، وهي تقول :

- طيب الله خاطرك يا بني ، إنك والله لنعم الولد ونعم الزوج ..

* * *

كانت فرحة «ناهد» بزيارة الملك «سيف» لها تفوق كل فرحة .. وأسرعت تستقبله مستبشرة وهي تقول :

- لقد طال والله غيابك عنا أيها الملك ..

فقال «سيف» مداعباً :

- إنها أيام يا «ناهد» ..

فقالت «ناهد» في دلال :

- إن أيام غيابك عنا يا مولاي سنوات ، هل رأيت «نصراً» ؟ .. سأحضره لك ..

ومضت ناهد تحضر ابنها ليراه أبوه ، وعادت تحمله بين ذراعيها في حنـان ، فتلقفه مـن بين يديها الملك «سيف» ضاحكـاً وأخذ يداعبه ويلاعبه .. ونسي الملك «سيف» بين ضحكات الصغير البريئة وابتسامته العذبة كل شيء .. وأمرت «ناهد» بإحضار الطعام للملك في جناحها ، وهي تحس أن الزمان قد هيأ لها الفرصة لتشفي «قمرية» أم «سيف» ولتحتل في قلبه بعد ذلك المكان الأول ..

وظل «نصر» الصغير يناغي أباه ويضاحكه إلى أن تملكه سلطان الكرى فنام ، وقام الملك «سيف» يحمله إلى سريره والسعادة تملأ قلبه والبشر يفيض في نفسه ، وحين عاد إلى «ناهد» كان الطعام معداً فمضى يتناوله معها وهي تحادثه وتلاطفه وتذكره برحلته إلى بلدها ، وقصة

الحكماء والأطباء المقتولين الذين علقت رؤوسهم على باب المدينة .. وكيف تقدم هو فشفاها بدوائه العجيب الذي كان يحمله ، ومضى الملك «سيف» يحكي لها سر هذا الدواء وقصته حتى مضى من الليل شطر طويل ، فقام الملك «سيف» لينام .. وجلست «ناهد» إلى جواره تقص عليه عجائب بلاد الصين وحكايات أهلها وتاريخ ملوكهم إلى أن ران عليه الكرى فنام ..

وما إن تأكدت «ناهد» من نومه حتى أخذت تنزع عنه ثيابه في رقة وحذر ، حتى وصلت إلى المنطقة المصنوعة من رق الغزال فأخذت تنزعها في هدوء حتى استخلصتها دون أن يحس بها .. وبلغت فرحتها القمة حين حصلت على المنطقة التي تشفي «قمرية» كما أوهمتها هذه الماكرة ، فقامت متجهة نحو الباب ..

وكأنما كانت «قمرية» في انتظار كل ما يجري ، إذ سرعان ما انفتح الباب وظهرت «قمرية» مندفعة إليها في لهفة تريد أن تأخذ المنطقة ..

وفجأة انعكست الأضواء التي تملأ الحجرة على حد سيف مصقول يرتفع في الهواء ويهوي في عنف فوق جسد يتمزق تحت الطعنة في صوت رهيب ، بينما ارتفعت صيحة مرتعبة مخنوقة شقت سكون الليل وأيقظت كل من بالقصر ..

وهب الملك «سيف» من نومه مذعوراً ، وأسرع يبحث عن سيفه ليمتشقه ، واندفع إلى الباب حيث لمح ظهر «قمرية» وهي تجري في ذعر قاتل ، وولولة يائسة .. وكاد يندفع وراءها حين ارتطمت قدماه بجسد مسجى على الأرض ، وانحنى ليرى جسد «ناهد» وقد نفذت فيه طعنة سيف قاتل ، وغمر دمها الأرض من حولها وإلى جوار يدها

لمح «سيف» المنطقة الجلدية فوق الأرض .. وحين رفع رأسه وقد تملكه الغضب والحزن رأى أمامه «طامة» وقد حملت في يدها سيفاً ملوثاً بالدم.

* * *

كاد الملك «سيف» يبطش بـ «طامة» في الحال ، ولكنه تمالك نفسه بصعوبة خوفاً من أن يقدم على أمر – وهو غاضب – يندم عليه ، وقال لـ «طامة» :

– إذن أنت قاتلة «ناهد» .. ؟

فقالت «طامة» :

– إنما وجهت ضربتي إلى اللعينة «قمرية» ولكنها هربت ووقعت الضربة على «ناهد» فصرعتها ..

فقال «سيف» :

– أتعرفين جزاء من يقتل نفساً بغير ذنب .. ؟

فقالت «طامة» :

– ومن قال إن «ناهد» لم ترتكب ذنباً تستحق من أجله القتل .. ؟!

فقال «سيف» وغضبه يزداد :

– وما هو ذنب «ناهد» الذي استحقت من أجله القتل ؟

فقالت «طامة» :

– لقد سرقت منك رق الغزال الذي أعطته لك أمي الحكيمة «عاقلة» لتحميك من مكر «قمرية» وشرها .. وها هو ذا الرق في يدها دليل على جريمتها ، ولولا أنني كنت أشك في نوايا «قمرية» فتتبعتها حتى عرفت أنها كانت عند «ناهد» اليوم . ولولا انني أخذت أراقب «ناهد» حتى رأيتك تدخل جناحها ، ثم رأيت «قمرية» تحوم حول

هذا الجناح ، فلبست قلنسوة الإخفاء وترصدت لهما ، لما رأيت «ناهد» وهي تتجه بالمنطقة لتعطيها لأمك ..

فصاح «سيف» :

– أنت كاذبة يا «طامة» .. وما كل هذه القصة المختلقة إلا لتبرير جريمتك ، وليس لك من عقاب عندي إلا القتل ..

فقالت «طامة» :

– وهذا الرق في يدها ألا تراه ؟ .. ثم ألم تر «قمرية» وهي تجري هاربة مذعورة ؟!

– لقد خافت أمي منك ، فهربت من سيفك ..

فضحكت «طامة» وهي تقول :

– أمك الرؤوم .. ؟!

فصاح «سيف» وهو يتقدم منها ، وقد تملكه الغضب تماماً :

– نعم أمي الرؤوم أيتها الخائنة السفاحة ، لقد أعطتني اللوح المرصود ولو كانت تريد بي شراً ما أعطتني إياه ..

فقالت «طامة» وهي تتراجع أمامه :

– أليس اللوح المرصود معك ؟ .. إذن ادلكه لتستدعي خادمه تعرف أصادقة أنا أم كاذبة ..

ووقف «سيف» في وسط الحجرة وقد أخذ الشك يغزو قلبه ، ثم استدار وعاد إلى حيث وضعت «ناهد» اللوح بعد أن خلعته من زنده ومضى يدلكه مرة ثم مرة ، ومرة ثالثة دون جدوى ..

وكانت «طامة» ترقبه ، فضحكت ، وهي تقول :

– لقد سرقت أمك الرؤوم اللوح الحقيقي وأعطتك لوحاً مقلداً ، وخدعتك خدعة لا تنطلي على صبي صغير .. أعرفت الآن أنني صادقة . ؟

وأدرك «سيف» أن «طامة» أنقذته بسهرها عليه .. وأدرك أنه أساء بها الظن ، وكاد يجزيها عن جميلها شر الجزاء .. فقال :

– والله يا «طامة» لقد ارتكبت في حقك خطأ كبيراً حين ظننت بك السوء ، ولكن ليس هذا وقت الاعتذار فيجب أن أسرع إلى «قمرية» لأجزيها على مكرها ، وأنتزع منها اللوح المرصود قبل أن توردني مورد الهلاك ..

وكاد «سيف» يندفع خارجاً بحثاً عن أمه حين أمسكت «طامة» بذراعه قائلة .

– ارتد المنطقة أيها الملك قبل أن يحملك عيروض وأنت أعزل منها ..

فنظر إليها الملك «سيف» نظرة عرفان ، ومضى يرتدي منطقة رق الغزال ، ثم يرتدي ما خلعته «ناهد» من ثيابه .. وأمسك سيفه بيده واندفع خارجاً إلى جناح «قمرية» ..

• • •

لم يسفر بحث «سيف» عن «قمرية» عن شيء ، فقد اختفت «قمرية» تماماً من القصر كله ، بل ومن المدينة بأسرها .. وظل الملك «سيف» يبحث عنها في كل مكان حتى أشرق الصباح دون جدوى ، فأمر بالإعداد لدفن «ناهد» ، ثم أمر بأن يحضر كل رجاله وأعوانه إلى قاعة العرش ..

• • •

وفي قاعة العرش كان الملوك والحكماء والفرسان في انتظار الملك «سيف» وهم يتبادلون الحديث عن الإشاعات التي سرت في أرجاء المدينة تحكي مصرع «ناهد» وهرب «قمرية» ، وحين دخل الملك «سيف» إلى القاعة كان متجهم الوجه بادي العبوس ، وجلس «سيف»

صامتاً فجلس الجميع واجمين ، ولما طال الصمت بالمجلس وقف «برنوخ» الساحر قائلاً :

– أيها الملك السعيد لقد أمرتنا بالحضور فحضرنا ، وقد عودتنا في مجلسك على الصراحة الكاملة ، والحرية في الحديث ، فما الذي حدث ليصيبك كل هذا الهم .. ؟!

فقال «سيف» وهو مطرق برأسه :

– وكيف لا يصيبني الهم وقد قتلت «طامة» «ناهد» بسبب أمي «قمرية» .. ؟!

ومضى يحكي ما حدث حتى وصل إلى حكاية اللوح المقلد وهرب «قمرية» واختفائها ، فضحك «برنوخ» قائلاً :

– يا ملك الزمان ، إن «قمرية» خائنة ولا مجال للحزن عليها ، وقد طلبت منك في إلحاح أن تقتلها فغضبت مني .. وإذا صدق ظني فلا بد أن «عيروض» حملها إلى ملك عظيم تحتمي بسطوته وجبروته منك ومن انتقامك ..

فهب «سعدون» صائحاً :

– والله لو احتمت بكل ملوك الأرض ، فلا بد من تمزيق جسدها إرباً كما تسببت في مصرع الملكة «ناهد» .

وهنا فتح باب القاعة ، ودخلت «عاقصة» ومعها الملكة «منية النفوس» والملكة «شامة» والملكة «جيزة» فهب كل من في المجلس واقفاً ، وقال الملك «سيف» :

– كيف تركين حجرتك أيتها الملكة «منية النفوس» وأنت بعد الولادة تحتاجين للراحة التامة ..

فقالت «منية النفوس» :

– لقد جاءتني «عاقصة» لتهنئني بابني «مصر» .. وبينما نحن نتكلم دخلت علينا «شامة» و«جيزة» وأخبرتنا بما حدث لـ «ناهد» وقد جئنا جميعاً لنقول لك شيئاً واحداً ..

فقال الملك «سيف» :

– وما هو ؟..

فقالت «شامة» :

– لن تستطيع واحدة منا أن تأمن على حياتها ، وأمك «قمرية» على قيد الحياة ..

وقالت «جيزة» :

– وقد أقسمنا جميعاً أن نمزق جسدها بسيوفنا نحن ، وأقسمت «عاقصة» أن تعمل كل ما في وسعها لتحضرها هنا لتنال جزاءها ..

فقال «سيف» :

– لو جاءت بها «عاقصة» فسيكون انتقامي منها رهيباً ..

فقالت «عاقصة» :

– أتريد مني أن أتجشم عناء إحضارها لتبكي أمامك فتغفر لها من جديد ؟! ..

فهبت «طامة» واقفة وهي تقول :

– لقد تسببت في أن يصبح في عنقي دم «ناهد» ، وجعلت مني قاتلة ، وأنا أقسم أمام الجميع أن سيفي الذي قتل «ناهد» هو الذي سيمزقها لو وقعت عيني عليها سواء رضي الملك «سيف» أم لم يرض .

فقال الملك «سيف» :

– لقد استحقت القتل جزاء ما فعلت ، ولكن لتحضر أولاً ..

فصاحت «عاقصة» :

– بل لتقسم أنت أولاً أن تتركنا ننفذ فيها القصاص العادل الذي تستحقه ..

وسكت الملك «سيف» محرجاً ، وقد أحس أنهن قد حاصرنه جميعاً .. فتدخل «برنوخ» في الحديث قائلاً :

– إن وراءك يا ملك من المهام ما هو في حاجة إلى كل التفاتك .. والمجهود الذي تصرفه لدفع أذى «قمرية» أولى أن ينصرف إلى نشر دين الإسلام ..

ووقف الملك «أفراح» قائلاً :

– إن المسألة أصبحت إما نحن جميعاً وإما «قمرية» ..

وقال «سعدون» :

– إن «قمرية» تستحق الموت ألف مرة ..

فأطرق الملك «سيف» برأسه ، فقالت «منية النفوس» :

– ماذا قلت أيها الملك ؟

فرفع «سيف» رأسه وهو يقول :

– لكم جميعاً ما تريدون .. ولتقتل «قمرية» ..

وقالت «عاقصة» :

– وتقسم على هذا ؟ ..

فقال «سيف» :

– وأقسم ..

فقالت «عاقصة» :

– سأتدبر أمر إحضارها مع «برنوخ» الساحر ، ولن تنتهي احتفالات زواجك من «طامة» حتى تكون «قمرية» أمامنا جثة ممزقة ..

فقال «سيف» :

– زواجي من «طامة» ؟

فقالت «عاقصة» :

– أليس هذا ما وعدت به الحكيمة «عاقلة» ، ثم ألا تستحق «طامة» أن تجزيها خيراً وقد حرستك بيقظتها من غدر «قمرية» وسذاجة «ناهد» ؟ ..

فقال الملك «سيف» :

– ولكنها أقسمت ألا تعطيني القلنسوة إلا بعد أن أتزوجها ، وأقسمت أنا ألا أتزوجها إلا بعد أن تعطيني القلنسوة ! ..

فهبت الحكيمة «عاقلة» واقفة وهي تقول :

– ووعدنا «برنوخ» بحل هذا المشكل ..

فقال «برنوخ» :

– لقد فكرت في حل لا يجعل أحدكما يتنازل عن قسمه ..

فقال «سيف» :

– وما هو ؟

فقال «برنوخ» :

– نعقد لك عليها ، ولا تدخل بها إلا بعد أن تعطيك القلنسوة ..

فضحك «سيف» وهو يقول :

– حسناً .. وما دام الأمر كذلك فسأذبح سبع بقرات سمان تكفيراً عن يميني ، فإن «طامة» تستحق كل خير ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» :

وهذا يوم مناي الذي انتظرته عمري كله ..

فقال «سيف» :

– ألا تسأل العروس ماذا تريد مهراً لها ؟ ! ..

فقالت «طامة» :

– لست أريد يا ملك إلا شيئاً واحداً تعدني به أمام الجميع ..

قال «سيف» :

– وما هو ؟ ..

قالت «طامة» :

– أن تكون لي عندك رغبة تلبى بلا نقاش أطلبها في أي وقت أشاء ..

قال «سيف» ضاحكاً : «لك عليّ هذا ..»

فقالت «طامة» : «إذن وصل مهرك ..»

فقالت «جيزة» :

– وعلينا نحن إعداد العروس للزفاف ..

واتجهت «شامة» نحو «طامة» فأمسكت بذراعها ، وخرجت بها هي و«جيزة» و«منية النفوس» وتبعتهم الحكيمة «عاقلة» بينما التفت «سيف» إلى الفرسان قائلاً :

– أحسب أنكم ستؤجلون سفركم مرة أخرى ..

فقال «ميمون الهجام» :

– إن أفراحك أيها الملك تبهجنا كلقاء أهلنا ..

فضحك «سيف» وهو يقول :

– إذن اؤمروا بإقامة الزينات ومد الموائد في المدينة وإعلان الأفراح سبع ليال كاملة ..

فقالت «عاقصة» :

– ولن تنتهي هذه الأيام السبعة حتى تكون عندك «قمرية» كما وعدتك .. والآن سأنصرف أنا و«برنوخ» لندبر أمورنا ..

• • •

ظل «برنوخ» يضرب الرمل في بيت أرصاده و«عاقصة» تنظر إليه إلى أن رفع رأسه قائلاً :

– لقد صدق حدسي . لقد لجأت الملعونة إلى ملك الصين ..

فقالت «عاقصة» :

– إلى أبي ناهد ؟ ! ..

فقال «برنوخ» وهو يهب واقفاً :

– لا بد أنها تستعديه على «سيف» ، ويعلم الله ما سوف تدعيه من أكاذيب ليشن حرب الانتقام علينا ..

فقالت «عاقصة» :

– إن الوصول إلى بلاد الصين ليس مشكلة ، وإنما المشكلة أنني لا استطيع الاقتراب منها وهي تحمل لوح «عيروض» فهذا اللوح يحميها من كل الجان .. .

فقال «برنوخ» :

– احمليني إلى بلاد الصين ، وعلى الحصول على اللوح منها ..

فقالت «عاقصة» :

– وعليَّ الباقي .. هيَّا بنا .

٣٢

قمرية وملك الصين

ما ان وصلت «قمرية» هاربة مذعورة إلى حجرتها حتى دلكت اللوح الأصلي ، فحضر لها «عيروض» في الحال فصاحت فيه :

– أحملني إلى بلاد الصين وأنزلني أمام ملكها ..

وحملها «عيروض» طائراً في الحال حتى وصل إلى بلاد الصين ، فدخل بها إلى القصر وأنزلها أمام الملك «الصمصام» ملك الصين ..

وكان ملك الصين جالساً في قاعة عرشه . فأذهله أن يرى امرأة تبرز أمامه وكأنها نزلت من السماء .. فهب واقفاً في ذعر وهو يقول :

– من أنت أيتها المرأة ، من الإنس أم من الجان ؟ ..

فقالت «قمرية» :

– بل أنا إنسية أيها الملك ، وقد جئت أحمل لك نبأ خطيراً ..

فقال لها :

– قبل أن تحكي أي شيء ، أخبريني كيف تكونين من الإنس وتهبطين هكذا من السماء كأنك جنية ؟ ..

فقالت «قمرية» وهي تريه لوح «عيروض» :

– بواسطة هذه الذخيرة أيها الملك . فإذا دلكت هذا اللوح المرصود حضر خادمه – وهو من عتاة الجان – ليلبي كل طلباتي ، وسأعطيك هذه الذخيرة حين تحتاجها في الانتقام ..

فقال «الصمصام» :

– الانتقام ممن ؟! ..

قالت «قمرية» :

– من قاتل ابنتك ! ..

فصاح «الصمصام» قائلاً :

– ابنتي .. قتلت ؟! ..

فقالت «قمرية» :

– إني جئت إليك أيها الملك من بلاد اليمن حيث تركت ابنتك تذهب مع الفارس العربي الذي شفاها ..

فقال «الصمصام» :

– نعم لقد تزوجته وسافرت معه ..

– ثم استضعفها واستصغر شأنك ، فقتلها حين ملها وسئم منها .. وأراد أن يفرغ لغيرها من زوجاته ..

فقال ملك الصين :

– سيلقى هذا المجرم جزاءه وسوف أجعله يندم على اليوم الذي ولد فيه ، ولكن ما الذي جعلك تأتين لي بهذا الخبر ، ومن أنت .. ؟

فقالت «قمرية» :

– إنني .. يا ملك أمه وقد كنت أحب «ناهد» كابنتي .. وحين أردت الدفاع عنها كاد يقتلني ، فأسرعت بالهرب إليك .. ولولا هذه الذخيرة التي أحملها لقتلني كما قتل «ناهد» من قبل ..

فقال «الصمصام» متعجباً :

– يقتل أمه ؟!

فقالت «قمرية» تزيد من غضبه على الملك «سيف» :

– إنه لا يعرف أماً ولا زوجة ، فهو شرير كأبيه خائن مثله .. !

فقال الملك «الصمصام» :

– سآمر بإعداد الحملة إلى بلاده في الحال ، ولكن أريد أولاً أن أعرف الطريق إلى بلاده ..

فقالت «قمرية» وقد بدأت في تنفيذ الجزء الثاني من خطتها :

– بمجرد أن أستريح من هذه الرحلة ، أيها الملك أرسم لك طريقة الوصول من أقرب السبل ..

فقال الملك :

– لقد نسينا واجب الضيافة سنفرد لك حجرة في الحال تزيلين فيها عناء السفر ..

فقالت «قمرية» مكملة وهي تتأود في حديثها :

– ثم تحضر لي لأشرح لك الطريق ..

فنظر إليها الملك «الصمصام» وقد أخذ يلتفت إلى جمالها وروعة تركيب جسدها وقال :

– حسناً .. بعد ساعة سأزورك في حجرتك لنتناول الطعام معاً ..

• • •

قالت «قمرية» وهي تخرج للقاء الملك «الصمصام» وقد تعطرت وسارت تتأود فتكشف الغلالة الرقيقة التي ارتدتها عن مفاتن جسدها الجميل .

– لقد غمرتني يا مولاي بكرمك وحسن رعايتك ..

فقال «الصمصام» وهو يأكلها بعينيه أكلاً :

– بل أنت التي شرفت بلدنا وقصرنا .. !

ثم صمت لحظة ، وقال :

– لقد فهمت من حديثك أن زوجك قد مات من زمن ، فهل ما يمنعك من أن تصبحي زوجتي ..

فقالت «قمرية» وهي تضحك ضحكة ماجنة :

– أهكذا سريعاً يا مولاي ، إننا لم نتعارف جيداً بعد ..

فقال «الصمصام» وهو يقترب منها في نهم :

– لست أحتاج وقتاً لأعرف الجمال حين أراه ..

فقالت «قمرية» وهي تبتسم في دلال :

– وهل أستطيع يا مولاي أن أرفض لك طلباً ؟

فقال «الصمصام» :

– هناك عقبة واحدة وهي دينك فماذا تعبدين .

فقالت «قمرية» :

– أهذه مسألة مهمة ؟!

فقال «الصمصام» :

– إنها مهمة جداً عندنا ..

فقالت «قمرية» وهي تبتسم :

– وماذا تعبدون أيها الملك السعيد ؟ ..

– نحن نعبد النار ونسجد لها ..

فقالت «قمرية» وهي تضحك :

– لقد كنت أعبد زحل ، ولكني دائماً على دين زوجي ، ومنذ الآن سأعبد النار ..

فضحك «الصمصام» وهو يقول :

– إن نوعك من النساء هو الذي يعجبني .. ولنعجل بالأمر ،

سآمر بإعداد المعبد في الحال لنذهب هناك تواً ، حيث تدخلين في عبادة النار ويزوجنا الكهنة ، لتكون هذه الليلة ليلتنا ..

° ° °

تقدم الملك «الصمصام» من النار وسجد لها بين تراتيل الكهنة وصلواتهم ، ثم تقدمت «قمرية» وسجدت للنار .. وظلت ساجدة وكبير الكهنة يتلو فوق رأسها أدعيته وتراتيله ، وكانت هناك عينان ترقبانها في حرص شديد .. فبين الكهنة وفي زيهم وقف «برنوخ» يرتل كما يرتلون ، إذ حملته «عاقصة» إلى المدينة ، فظل يتجسس إلى أن سمع بأخبار الزائرة التي جاءت للملك من السماء فعرف أن رمله لم يكذبه ، ثم سمع بأمر الملك أن يعد الكهنة معبد النيران .. فتنكر في زي واحد منهم واندس بينهم ليرى ويرقب عن قرب ..

وما أن انتهى كبير الكهنة من طقوسه حتى علا صوته في ترتيل سريع النغمة ، منتهياً بصيحة عالية تبعه فيها باقي الكهنة ، ثم أعلن دخول «قمرية» في عبادة النار .. وبدأت طقوس جديدة احتار «برنوخ» في فهمها أول الأمر ، ثم سرعان ما أدرك أن ما يشهده هو إجراءات زواج «قمرية» من الملك «الصمصام» فقال لنفسه في حنق :

– يا للملعونة .. سرعان ما استطاعت أن تطويه وتسخره لكل ما تريد ، وسوف تجعل منه أداة انتقام رهيبة من ابنها ..

وأسرع «برنوخ» يغادر المعبد ليفكر في حيلة يدخل بها القصر ولم يجد أمامه سوى أن يتنكر في رداء حارس من حراس القصر .. فوقف بجوار باب القصر حتى لمح أحد الحراس يخرج متجهاً إلى المدينة ، فتبعه حتى دخل أحد الشوارع الجانبية المظلمة .. وسرعان ما انقض عليه وقتله ، واستولى على ملابسه وارتداها .. ثم أسرع عائداً إلى القصر ودخل

من بابه محاذراً وجعل يتجول في أنحائه ليعرف مداخله ومخارجه قبل حضور الملك و« قمرية » ..

وما أن انتهت مراسم الزواج حتى عادت « قمرية » مع الملك « الصمصام » في موكب ضخم ، يتقدمه عازفو الطبول والضاربون على الأوتار والنافخون في الأبواق .. ثم بدأت حفلة كبيرة في القاعة الكبرى بالقصر اشترك فيها الراقصون والعازفون واللاعبون من كل جنسية وكل لون ، وكان « برنوخ » يقف وسط الحراس يرقب « قمرية » من بعيد ويعجب في نفسه من دهائها ومكرها ، وكيف استطاعت أن تلعب برأس الملك « الصمصام » وتأسر لبه وتجعله أطوع لها من بنانها ..

واستمر الحفل وقتاً طويلاً من الليل ، ثم صفق الملك فانصرف الراقصون واللاعبون ، وقام بصحبة « قمرية » يتقدمه صفان من حاملي القناديل متجهين إلى الجناح الذي خصص للملكة الجديدة « قمرية » . وكان « برنوخ » يراقبهم عن كثب .. فلما غابوا عن القاعة انسل خارجاً دون أن يلحظه أحد ..

وتسلل « برنوخ » إلى مطابخ القصر حيث كان الطعام الذي سيقدم للملك في ليلة عرسه يعد .. واستطاع أن يحصل على رداء أحد السقاة بعد أن صرعه وأخفى جثته .. ووقف ضمن صف السقاة الطويل الذين حملوا الطعام والشراب متجهين إلى جناح « قمرية » ..

وكان « برنوخ » يقف وسط صف طويل من الخدم والسقاة ، كل يحمل لوناً من الطعام أو لوناً من الشراب .. وحين فتح الباب تقدم كبير السقاة إلى داخل الحجرة مستأذناً الملك في تقديم الطعام ، ثم أمر الخدم بالتقدم فساروا صفاً طويلاً يتقدمهم من يحملون الطعام .. وكان كبير الخدم عند رأس المائدة يتناول الطعام ويتذوقه أمام الملك ،

ثم يضعه أمام الملك والملكة ويشير إلى الخادم التالي ليتقدم ..

وكان «برنوخ» كلما أحس أن دوره قد اقترب يقدم من وراءه ويتأخر هو قليلاً ، وعيناه لا تفارقان وجه «قمرية» وهي تأكل وتلاطف الملك «الصمصام» في عذوبة وبراءة ، وكأن ضميرها لا يثقله ذنب ولا تؤرقه جريمة .. وشربت «قمرية» من كأسها في رشاقة ، وقالت وهي تلتفت إلى الملك :

– إنني استطيع أيها الملك أن أضم إلى جيوشك الزاحفة على بلاد اليمن جيوش الملك «سيف أرعد» ملك الحبشة ، فبينه وبين «سيف» ثأر قديم ..

فقال الملك «الصمصام» :

– لست في حاجة إلى معونة من أحد .. إن في جنودي وفرساني الكفاية ..

فضحكت «قمرية» وهي تقول :

– طبعاً ، طبعاً .. ولكن جنود «سيف أرعد» يعرفون الأرض جيداً وقد تعودوا القتال فيها .. وسيكونون كالأدلاء لجنودك ..

فتناول «الصمصام» كأسه وهو يقول :

– لنؤجل هذا الحديث إلى الصباح ، فليس في هذه الليلة إلا المتعة ..

ثم أشار بيده ، فتقدم كبير الخدم يملأ الكؤوس الفارغة ..

وانتهز «برنوخ» فرصة خروج مجموعة من الخدم والسقاة الذين فرغت أوانيهم ، فانضم إليهم دون أن يلحظه أحد لأنه كان قد غدا آخر السقاة الواقفين في الصف .. وحين وصل إلى قرب مطابخ القصر ، انسل محاذراً حتى خرج من القصر إلى الحديقة .. ومضى يحدد مكان حجرة

« قمرية » حتى استطاع أن يعرف مكانها تماماً فاتجه إليه ، وظل يتقدم متستراً بالأشجار وأحواض الورد حتى أصبح تحت النافذة المفتوحة على القاعة حيث كان الملك و« قمرية » قد أخذ منهما السكر مأخذه ، فجعلا يتبادلان القبلات واللمسات دون مبالاة بالخدم الواقفين أو السقاة المنتظرين ..

ولم يطل انتظار « برنوخ » فسرعان ما أشار الملك بيده ، فأخذ الجميع ينسحبون حتى لم يبق في القاعة إلا الملك و« قمرية » اللذين غابا في قبلة طويلة وقد انساهما السكر والرغبة كل حذر ، فألقى عليهما « برنوخ » سحر النوم فسكنا كما هما ، ثم تقدم محاذراً حتى أمسكت يده حافة النافذة فقفز إلى داخل الحجرة وأسرع إلى حيث جلست « قمرية » ففك اللوح من فوق زندها ، ثم تسلل به والدنيا لا تتسع لفرحته ، وخرج كما جاء من النافذة ، ثم تسلل إلى خارج القصر ليلتقي بـ « عاقصة » .

* * *

قالت « عاقصة » :

– هل أحضرت لوح « عيروض » !

فقال « برنوخ » وهو يريه لها :

– ها هو اللوح .. لقد آن الأوان ليستريح الملك « سيف » من الآلام التي تسببت عن ضياع هذا اللوح منه .

فقالت « عاقصة » :

– ولماذا لم تحضر « قمرية » معك لتأخذها إلى الملك « سيف » !؟

فقال « برنوخ » :

– لقد فكرت في الأمر يا « عاقصة » وأرى أن نترك « قمرية » في حالها ، فقد أصبحت بلا حول ولا طول من غير هذا اللوح ..

فصاحت «عاقصة» في غضب :
- نترك «قمرية» ؟! لقد أقسمت أن آتيه بها ليقتلها وسط الديوان ..
فقال «برنوخ» في هدوء ..
- وهل تظنين أن الملك «سيفا» سيرضى بمصرع أمه أمام عينيه ؟!
فقالت «عاقصة» في غضب :
- لقد أقسم ..
فعاد «برنوخ» يقول في هدوء :
- ولهذا فلست أريد أن نحملها إليه . لأنه حين يراها سيكون بين عاملين خطرين أحدهما أن يفي بقسمه فيقتلها . والثاني عاطفته كابن تجاه أمه ..
فقالت «عاقصة» :
- وهل هذه أم ؟! . سأذهب أنا لإحضارها ..
فقال برنوخ وهو يمسك بها :
- كلا يا «عاقصة» سنحمل له اللوح فقط . ويستطيع هو إن أراد أن يحضرها أمامه .. إما بواسطتك أو بواسطة «عيروض» الذي أصبح الآن من خدامه ..
وأدركت «عاقصة» انة لا فائدة من مناقشة «برنوخ» فقالت :
- حسناً .. هيا بنا إلى حمراء اليمن ..
وحملت «عاقصة» «برنوخ» وطارت به قاصدة مدينة الملك «سيف ابن ذي يزن» ومعه لوح «عيروض» .

* * *

حين أنزلت «عاقصة» «برنوخ» في قصر الملك «سيف» قالت له :

– سأذهب أنا في حال سبيلي ، وسوف أراك في الموعد الذي بيننا وبين الملك «سيف» ..

ثم تركته وانطلقت مسرعة إلى حجرة «منية النفوس» .. وبعد قليل خرجت من حجرة «منية النفوس» جاريتان ، واحدة إلى جناح «جيزة» والأخرى إلى جناح «شامة» .. وبعد قليل كانت «جيزة» و«شامة» تدخلان حجرة «منية النفوس» .. وظللن مع «عاقصة» ساعات يتحدثن في همس ، وقالت «عاقصة» :

– والآن وقد اتفقنا فلتخبر إحداكن «طامة» عندما ينام الملك «سيف» ..

٣٣

القصاص

بعد سبعة أيام من دخول الملك «سيف» بالملكة «طامة» اجتمع الفرسان والملوك والحكماء بقاعة العرش في انتظار الملك «سيف» وقد ارتدوا أبهى حللهم ، لأن هذه كانت جلسة الوداع قبل سفر من يزمع السفر منهم ..

وأعلنت الأبواق والطبول قدوم الملك ، فأخذ كل منهم مكانه حسب مكانته وقيمته .. وحين جلس الملك جلس الجميع في أماكنهم وانتظروا حتى بادرهم الملك «سيف» بالتحية فانطلق كل منهم يهنئ الملك ويتمنى له السعادة والصحة ، والتفت الملك «سيف» فوجد «برنوخ» في مجلسه ساكتاً ، وحاول أن يستشف من ملامحه ماذا تم في مشكلة «قمرية» ولكنه لم يستطع أن يفهم من وجه «برنوخ» الساكن شيئاً .. فالتفت إليه قائلاً :

– أيها الشيخ «برنوخ» نراك اليوم ساكتاً ..

فأدرك «برنوخ» ما يعنيه الملك ، فهب واقفاً وهو يقول :

– لقد أحضرنا اللوح المرصود يا مولاي وها هو ..

وأخرج «برنوخ» اللوح المرصود ، وتقدم به نحو الملك «سيف» يسلمه له في يده وقد ساد المجلس كله صمت تام .. ومضى الملك يتأمل

اللوح لحظات ثم دلكه فجأة ، فظهر «عيروض» وهو يقول :

– لبيك أيها الملك السعيد ..

فقال «سيف» وهو يبتسم ابتسامة عريضة :

– هل تركت خدمة «قمرية» يا «عيروض» ؟

فقال «عيروض» :

– لقد أراحني الشيخ «برنوخ» من صحبة هذه الماكرة الشقية ، جزاه الله خيراً ..

فقال الملك «سيف» وهو يثبت اللوح فوق زنده :

– انصرف يا «عيروض» الآن ..

ودهش الحاضرون جميعاً ، فقد كانوا يتوقعون أن يسأل الملك «سيف» «عيروض» عن مصير «قمرية» .. ولكن «سيفا» انتهى من تثبيت اللوح ، ثم التفت إلى «برنوخ» قائلاً :

– حسناً ، قل ما عندك ..

وتطلعت كل الأبصار إلى «برنوخ» وهو يقول :

– ليس عندي شيء ، فقد أحضرت اللوح .. وهذا كل ما هنالك ..

ولم يتمالك «سعدون» نفسه فسأل في حدة :

– و«قمرية» ألم تقتلها ؟

فقال «برنوخ» :

– إن أمر «قمرية» يقرره الملك «سيف» .. وقد تركتها حية في قصر الملك «الصمصام» أبي الملكة «ناهد» وملك الصين ..

وبينما كان الملك «سيف» يتنهد في ارتياح ، كان «سعدون» يسأل صارخاً :

– لقد أخذت منها اللوح ، ومعنى هذا انك كنت تستطيع قتلها .. فلماذا لم تقتلها .. ؟!

فقال « برنوخ » :

– مهلاً يا « سعدون » .. إن الملك يستطيع أن يأمر « عيروض » بإحضارها فتكون أمامكم بعد ساعات ..

فقال « سيف » وهو يشير بيده :

– لننته من هذا الموضوع نهائياً ولنغلقه إلى الأبد ..

فصاح « سعدون » :

– ولكنها لم تلق جزاءها ..

فقال « سيف » :

– إنها لا حول لها ولا قوة من غير لوح « عيروض » .. وها هو اللوح معي وهذا ضمان بكف أذاها ..

فهب الملك « أفراح » صائحاً :

– ولكنك وعدت يا مولاي ..

فابتسم الملك « سيف » وهو يقول :

– لقد وعد « برنوخ » أن يحضرها هو و« عاقصة » لنقتص منها هنا ووعدت أنا فعلاً أن آمر بقتلها ، وها هو « برنوخ » لم يحضرها فكيف أستطيع أن أفي بوعدي لكم ؟!

وهنا ارتفع صوت « عاقصة » من أعلى المكان ، وهي تقول :

– بل هي هنا يا مولاي .. وأنا عند وعدي لك ، وعليك أن تفي الآن بوعدك ..

ورفع الجميع رؤوسهم ليروا « عاقصة » تحمل الملكة « قمرية » بين

يديها ، و«قمرية» تحاول الفكاك في حركات هستيرية محمومة دون جدوى .. وصاح الملك «سيف» في ذعر :

– انزلي يا «عاقصة» ، وإلا سقطت منك وماتت .. انزلي .. إني آمرك أن تنزلي ..

فقالت «عاقصة» :

– أتخاف عليها الموت حقاً ؟ .. إني لن أتركها إلا لتلقى حتفها في الحال ..

فصاح الملك «سيف» في جنون :

– إن لم تتركيها سالمة سأقتلك ، ولن تهربي مني أبداً .. أنزليها فوراً ..

وفجأة فتح باب القاعة في صوت ملفت ، فنظر الجميع نحوه وإذ بالملكة «منية النفوس» تدخل إلى القاعة ووراءها الملكة «شامة» والملكة «جيزة» .. وفي أثرهم دخلت الملكة «طامة» ..

وصاحت «عاقصة» :

– لقد حان أوان القصاص ، ارفعن السيوف ..

وفي الحال امتشقت الملكات الأربع سيوفهن ورفعنها إلى أعلى ، وقد ثبتن أقدامهن فوق الأرض في قوة .. وقبل أن يفهم أحد من الحاضرين شيئاً ، سمعوا صيحة «قمرية» وهي تهوي وقد قذفت بها «عاقصة» فوق السيوف ، ثم سكتت الصيحة فجأة وقد تمزقت «قمرية» إلى أشلاء فوق سيوف الملكات الأربع .. وجاء للجمع المذهول صوت «عاقصة» وهي تقول :

– والآن وداعاً أيها الملك ، لقد وفيت بوعدي وكان لا بد لك أن تفي بوعدك .. ولن أخاف عليك بعد موت هذه الملعونة من شيء ..

واختفت «عاقصة» في الحال ، بينما وقف الملك «سيف» يتأمل

أشلاء أمه « قمرية » ودمها الذي يلطخ أرض القاعة وفي عينيه نظرة مذهولة ، وما لبث أن رفع رأسه وقد بدا الغضب واضحاً في عينيه ، ومد يده يمتشق حسامه ، والتفت إلى زوجاته قائلاً :

– لقد اتفقتن عليَّ .. ودم أمي في رقابكن ، وليس لكن إلا الموت .. !

فقالت « شامة » في هدوء :

– لقد أرحناك منها أيها الملك ..

فقال « سيف » وهو يتقدم نحوهن :

– هل تستطيع إحداكن أن تعوضني عنها ؟

فقالت « شامة » :

– نعم يا مولاي .. نحن عوضناك ونعوضك عنها ..

وأشارت « شامة » بيدها ، فدخل القاعة ثلاثة حجاب يحملون « دمر » و« مصر » وبينهما « نصر » أولاد الملك « سيف » .. وصمت الملك بينما سرت في القاعة همهمة « برنوخ » :

– لقد صدقن يا مولاي .. لقد ماتت « قمرية » بكل شرورها ، والحياة منذ اليوم لأمراء الغد « دمر » و« مصر » و« نصر » .

وهبت الحكيمة « عاقلة » قائلة :

– أنت مؤمن يا مولاي ، وهذا المصير الذي لقيته « قمرية » هو جزاؤها العادل إن لم يكن على ما ارتكبته في حقك من آثام أو على مصرع « ناهد » فهو جزاؤها العادل على قتلها لأبيك الملك « ذي يزن » وإن أردت أن تنتقم لقتلها فأنت ستنتقم من نفسك ومن أولادك وزوجاتك ..

فصمت الملك « سيف » وأطرق برأسه ، وصاح « سعدون » :

– أحملوا هذه الأشلاء إلى الخارج ..

وسرعان ما تقدم العبيد يحملون بقايا « قمرية » إلى خارج القاعة ، و

«سيف» قد غطى عينيه بيديه ، واستند برأسه إلى حافة مقعده ، وقالت الحكيمة «عاقلة» للملكات الأربع :

– ليس هذا مكانكن ، فلتعد كل واحدة إلى جناحها ..

وانصرفت الملكات صامتات ، وكاد الحجاب يخرجون بالأمراء الثلاثة حين رفع الملك «سيف» رأسه قائلاً ..

– بل اتركوهم وأجلسوهم هنا ..

وأشار بيده إلى المقعد الذي كانت تجلس عليه «قمرية» ، فأجلسوا عليه «دمر» و«مصر» وبينهما «نصر» .. والثلاثة يضحكون ويلعبون ، وظل الملك «سيف» يتأملهم قليلاً وقد أخذت أساريره تنبسط ، وبدأت الابتسامة تعود إلى وجهه ، ووقف «سعدون» قائلاً :

– مولاي إن الفرسان يستأذنون في الرحيل ..

فالتفت إليه الملك «سيف» قائلاً :

– نعم .. إني آمر لكل منهم بعدة كاملة ، وسنفتقدكم أيها الأبطال ..

فقال «ميمون الهجام» :

– سنعود يا مولاي بعد أن نطمئن على أهلنا وأولادنا ..

فقال الملك «سيف» :

– بل موعدنا بعد عام ، فلست أريد أن أحرمكم من أهلكم ..

فقال «سابك الثلاث» :

– لو سمح مولاي ، لعدنا معهم إلى هنا لنقيم إلى جوارك ..

فقال «سيف» :

– لا بأس .. توجهوا على بركة الله ..

وحين كان الفرسان يخرجون . كان الملك «أبو تاج» يقف قائلاً :

وأنا أستأذنك أيضاً يا مولاي ..

فقال «سيف» :

حسنا أيها الملك النبيل . وستعود إلينا ..

فقال «أبو تاج» :

بعد عام يا مولاي ..

وما لبث «الخميم الطالب» والحكيمة «عاقلة» أن قاما يطلبان الإذن لهما بالسفر . فابتسم الملك «سيف» وهو يقول :

– أنا في انتظاركما في أي وقت تشاءان ..

فقالت الحكيمة «عاقلة» :

– نحن معك يا مولاي دائماً . وسنكون إلى جوارك عندما تحتاج إلينا ..

وبينما كانا يخرجان . التفت «برنوخ» إلى «سعدون» قائلاً :

– أنظر يا «سعدون» .. إن الكل يحس أن مرحلة قد انتهت من عمرنا ..

فقال «سعدون» :

– وغداً تبدأ مرحلة جديدة .. أنظر . إن الملك قد نسي «قمرية» تماماً ..

والتفت «برنوخ» إلى حيث يجلس الملك الذي كان قد قام من مكانه قاصداً مقعد «قمرية» ورفع أولاده من عليه . وجلس هو وقد أجلس أولاده الثلاثة فوق ساقيه يداعبهم ويلاعبهم وضحكاته تنطق بالسعادة والبهجة ..

المحتويات

الصفحة